

يوشع براور

عالم الصليبيين

ترجمة وتعليق وتقديم

د. قاسم عبده قاسم

د. محمد خليفة حسن

يوشـــع بـراور

عالم الصليبيين

ترجمة وتقديم وتعقيب

دكتور قاسم عبده قاسم

أستاذ تاريخ العصـور الوسـطى

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

دكتور محمد خليفة حسن

أستاذ تاريخ االأديان

كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٩٩م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

– ٥ شارع ترعة المريوطية – الهرم – ج.م.ع – تليفون ٣٨٧١٦٩٣

ص . ب ٦٥ خالد بن الوليد بالهرم – رمز بريدى ١٢٥٦٧

Publisher: EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES
5, Maryoutia St ., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693
P . B 65 Khalid Ben - Alwalid - Alharam P. C 12567

مقدمة الطبعة الثانية

منذ صدرت الطبعة الأولى للترجمة العربية لهذا الكتاب ، مر الصراع العربى ضد الكيان الصهيونى بمراحل عديدة . بيد أن ذلك لم يغير من جوهر الصراع وطبيعته ولأن الاستيطان الصهيونى هو لب المشكلة وجوهر الصراع ، فإن هذا الكتاب يكتسب أهمية متجددة .

إذ إن الكتاب عبارة عن دراسة فى الاستيطان الصليبى ، الذى يتشابه فى جوانب عديدة مع الاستيطان الصهيونى ، كما أنه تعبير عن وجهة النظر الصهيونية فى هذا الصراع . ومؤلف الكتاب الأستاذ يوشع براور ، الذى رحل عن عالمنا منذ سنوات قليلة ، من أشهر المؤرخين المتخصصين فى دراسة الاستيطان الصليبى ومؤسساته وإفرازاته . كما أنه كتب العديد من الدراسات والكتب حول هذا الموضوع من وجهة النظر الإسرائيلية . ومن ناحية أخرى، يعكس الكتاب خطوط التوازى وخطوط التقاطع بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية . ويحمل الكتاب فى طياته كثيراً من ملامح الرؤية الإسرائيلية لمسألة الاستيطان والصراع العربى / الصهيونى .

هناك جوانب كثيرة تتشابه فيها الحركة الصهيونية مع الحركة الصليبية التى تعتبر "السابقة التاريخية" ، أو "التجربة التاريخية" التى أفادت منها الصهيونية :

أولا : قامت الحركة الصليبية والحركة الصهيونية على عنصر توراتى مستمد من الكتاب المقدس ، وهو فكرة الاختيار والأرض الموعودة . فمن المعلوم أن الحركة الصليبية قامت على أساس إيديولوجية دينية زعمت أن هدفها تحرير الأرض المقدسة ، التى وعد الرب بها المؤمنين بالمسيح ، من أيدى المسلمين . وفى خطبة البابا إربان الثانى وخطاباته اللاحقة تكررت عبارة "الأرض التى تفيض باللبن والعسل" وهى فلسطين ، نقلاً عن الكتاب المقدس . ومع وعد بالغفران لمن يشاركون فى المشروع الصليبى كان هناك وعد بملكية الأرض المقدسة . وهى نفس الفكرة التى قامت عليها الصهيونية . كذلك فإن اليهود يزعمون أنهم "شعب الله المختار" وقد خاطب إربان الثانى الصليبيين بعبارات تشير إلى أن الرب قد اختارهم لهذه المهمة المقدسة .

ثانيا : أن الواقع التاريخى لكل من الحركة الصليبية والحركة الصهيونية يتشابه فى إطاره العام ، وإن اختلفت تفاصيله بطبيعة الحال . فقد خرج الصليبيون من شتى أرجاء أوربا ليحاربوا شعباً آخر فى أرض تبعد عن أوربا مئات الأميال بدعوى أنهم جيش الرب فى مهمة

مقدسة . وكذلك جاء الصهاينة من كافة أنحاء أوربا وأمريكا لكى يستوطنوا أرض فلسطين بعد تشريد أبناء الشعب الفلسطينى فى داخل المنطقة العربية ، وخارجها .

ثالثا : كان الغرب الأوربى المعادى للحضارة العربية الإسلامية بإمكانياته المادية والبشرية، ومؤسساته وجيوشه الظهير المساند للكيان الصليبى طوال فترة الصراع . وكذلك يفعل الغرب الأوربى والأمريكى اليوم بمساعداته المالية والعسكرية والسياسية والدبلوماسية حماية للكيان الصهيونى فى فلسطين .

رابعا : نجحت الحركة الصليبية ، فى البداية ، عندما استغلت حالة التشرذم السياسى والتفرق والشك الذى حكم علاقات حكام المنطقة العربية فى القرن الحادى عشر الميلادى ، وكذلك نجحت الحركة الصهيونية بفضل سيطرة القوى الأوربية الاستعمارية على الوطن العربى طوال النصف الأول من القرن العشرين وتفكك القوى العربية وتمزقها .

هذه هى أهم عوامل التشابه بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ، ولكن هناك فروقاً كثيرة بينهما أهمها بطبيعة الحال الخبرة التاريخية التى وفرتها الحركة الصليبية للحركة الصهيونية . ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب .

لقد حرّض تيودور هرتزل صانعى السياسة الدعائية الصهيونية على ".. أن يحدثوا اكبر قدر ممكن من الضجة حول القضية اليهودية .." وذكرهم بأن التاريخ والفن هما خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف ؛ فالفن يتسرب إلى الوجدان فى هدوء كما أن التاريخ يحمل مصداقية ذاتية داخلية . وبدأت الدوائر الصهيونية تروج للفكرة القائلة بأن الحركة الصهيونية رمز لنهاية الأيام ، وتحقيق لتحرير اليهودى من حياة الشتات ، ونهاية لحياة المنفى ، وبداية للاستقرار . وهو مايعنى أن الحركة الصهيونية امتداد لفكرة الخلاص فى اليهودية (وهى نفس الفكرة التى قامت عليها الحركة الصليبية قبل أكثر من تسعمائة سنة) وقد وصفها البعض بأنها حركة خلاص علمانية فى الفكرة والتنفيذ ، وهو مايعنى أن زعماء الصهيونية قد استغلوا فكرة دينية هامة فى الدين اليهودى ، هى فكرة الخلاص ، وحاولوا تنفيذ هذه الفكرة بوسائل علمانية عن طريق الدعاية واستغلال الظروف السياسية وتطبيق سياسة الاستيطان . وهو مايصدق أيضاً على الحركة الصليبية .

هذه الرؤية الصهيونية استلزمت أن يستخدم الفن والأدب والتاريخ لخدمة الهدف الدعائى للحركة الصهيونية ، والتركيز على فكرة حلم الخلاص "بالعودة" إلى فلسطين "الأرض الموعودة" فى كافة الكتابات التاريخية والأدبية التى كتبها اليهود . وليس من قبيل المصادفة ، بطبيعة

الحال، أن يبدأ يوشع براور هذا الكتاب بنص من الكتاب المقدس يتحدث عن الأرض التى وعد الرب بها "شعبه المختار" لقد استخدم الصهاينة أداتين ثقافيتين غاية فى الخطورة لتحقيق أكبر قدر من الضجة حول المشكلة اليهودية ؛ هاتان الأداتان هما التاريخ والفن . ومنذ ذلك الحين جرت محاولات دؤوبة ومستمرة فى مجال البحث والكتابة التاريخية استهدفت مايلى :

أولا : إعادة كتابة تاريخ العالم عامة ، وتاريخ الحضارة العربية الإسلامية بوجه خاص ، بهدف تحسين صورة اليهودى وتضخيم الإسهامات الفردية اليهودية فى الحضارة الإنسانية عبر الزمان والمكان ، ومحاولة عزلها عن سياقها التاريخى ، واختلاق ما يسمى "الحضارة اليهودية" و"الشعب اليهودى" .

ثانيا : إظهار العرب فى صورة "العالة الحضارية" التى عاشت فى الماضى على إنجازات "العبقرية اليهودية" ، ومحاولة إخراج اليهود الذين عاشوا فى رحاب الحضارة العربية الإسلامية وأفادوا من معطياتها واصطناع هوية حضارية خاصة بهم تحقيقا لهدف الصهيونية بتغييب العرب .

ثالثا : يتصل بهذا ويرتبط به نمط من النشاط الدعائى لاختلاف مايسمى "الشعب اليهودى" و"التاريخ اليهودى" و"الفن اليهودى" كما ينشط الترويج لفكرة وجود خصائص ترتبط باليهود وحدهم دون سائر البشر . وهذه كلها أمور تجافى العلم والمنطق والتاريخ . فاليهودية ديانة مثل سائر الديانات وليست قومية أو جنسية أو عرقاً ، كما أن اليهود أتباع دين وليسوا جنساً . وعلى الرغم من أن الحركة الدعائية الصهيونية والمؤرخين الصهاينة يحاولون تقديم "الحركة الصهيونية" على أنها إحدى الحركات القومية التى نشأت بين الحركات القومية الأوربية فى القرن التاسع عشر ، فإنهم يحاولون القول بأن افتقارها إلى اللغة المشتركة والتاريخ المشترك لايهدم أساس الإدعاء الصهيونى بالقومية ، وإنما يجعلها مجرد قومية تختلف عن بقية القوميات .

وهذه مغالطة كبيرة ؛ إذ إن اليهود كانوا على مر العصور مزيجاً من عناصر جنسية ولغوية وثقافية انتشرت فى سائر أرجاء الأرض شأنهم فى ذلك أتباع الديانات الأخرى . ويعنى هذا أنه يمكن لأى إنسان أن يصير يهوديا إذا اعتنق الديانة اليهودية ؛ ولكنه لن يكون ضمن "الشعب اليهودى" الذى تحاول الدعاية الصهيونية أن تخلقه من غياهب الوهم وضباب الأساطير والتحيز . فالشعب ، أى شعب ، لايمكن أن يوجد سوى على أرض واحدة ، وفى ظل

تراث حضارى مشترك تراكم على مدى العصور ، وثقافة تشكلت عناصرها على مدى الزمان بحيث تكون الخصائص التى تجعلنا نميز شعبا عن شعب آخر .

ولايمكن لليهود ، الذين لايجمعهم غير الدين ، وينتشرون بين أمم الأرض - منذ ألفى سنة على أقل تقدير - ويتحدثون لغات الأمم التى عاشوا بينهما ، ويلبسون ملابسهم ، ويمارسون عاداتهم وتقاليدهم ، ويشاركونهم التطور الاجتماعى على شتى المستويات الثقافية والسياسية والاقتصادية - نقول إنه لايمكن لليهود فى هذه الحال أن يزعموا أنهم شعب واحد متمايز عن بقية شعوب الدنيا لمجرد أنهم يدينون بدين واحد (فهل يمكن الزعم بأن اليهودى اليمنى من نفس سلالة اليهودى البولندى ؟ وهل يمكن أن يكون يهود الفلاشا من نفس جنس يهود ألمانيا ؟) ذلك أن المسلمين والمسيحيين والبوذيين والهندوس وغيرهم ينتشرون فى مساحات كبيرة من هذا العالم ؛ لكننا لم تسمع من يقول - عن علم ودراية - إن المسلمين شعب واحد : لأن منهم العرب ومنهم الإيرانيون ومنهم الأتراك ، ومنهم أبناء الشعوب الآسيوية والأفريقية ، ومنهم الأوربيون والصينيون والأمريكيون .. ويصدق هذا الكلام ، أيضا ، على المسيحيين وغيرهم .

رابعا : ربط هذه المزاعم كلها بفكرة ترتبت عليها بالضرورة ؛ مؤادها أن "العبقرية اليهودية" كفيلة بأن تنتشل العرب من وهدة التخلف التى يعيشون فيها ، وأن قيادة الدولة الصهيونية لهذه المنطقة العربية أمر طبيعى (وقد تجسدت هذه الفكرة فعلاً فى مشروع السوق الشرق أوسطية ، ومحاولات التسوية الأمريكية المشابهة) . ويلفت النظر بشكل حاد هنا أن الأوساط الصهيونية والأمريكية روجت فى السنوات الأخيرة لفكرة أن العبقرية الإسرائيلية تستطيع أن تزرع الصحراء ، وتقود قوى العمل العربية ، والأموال البترولية ، نحو التقدم والازدهار فى المنطقة .

وبدأت عشرات الكتب والدراسات والبحوث والمقالات تظهر لكى تروج لوهم "الحضارة اليهودية" و"التاريخ اليهودى" ومن خلال كتابات جاكوب مان وجويتين وآشتور وداقيد أيالون، ومارك كوهين ، وسيفان ، وبرنارد لويس ، وبنفستى ، ويوشع براور وغيرهم من المؤرخين ، ترددت نغمة قوية تقول إن اليهود أصحاب حضارة وتاريخ عريق تمكنوا بفضله من الحفاظ على هويتهم طوال ألفى سنة فى الشتات ؛ بل إن الجرأة والزيف وصلا بجويتين إلى حد القول بأن خروج اليهود من المنطقة العربية كان سبب تخلفها بسبب سيطرة الغرباء عليها طوال ألفى سنة، وأن عودة إسرائيل بشير ببدء التقدم والرقى فى هذه المنطقة .

ومن هنا تأتى أهمية هذا الكتاب الذى ألفه يوشع براور بعنوان "عالم الصليبيين" فعلى الرغم من أن عنوان الكتاب يشى بأنه دراسة عن الاستيطان الصليبى فى الشرق العربى فيما بين سنة ١٠٩٩ وسنة ١٢٩١م ؛ فإن المؤلف قد سخر الدراسة للأهداف الدعائية الصهيونية من ناحية ، ولوضع دراسة عن استيطان الغزاة وسط المحيط البشرى العربى المعادى من ناحية أخرى . ففى صفحات الكتاب دراسة جيدة عن الاستيطان الصليبى تناولت كافة جوانبه ؛ بيد أن هذه الدراسة الجيدة تضمنت اسقاطات معاصرة عن مشكلات الأمن للكيان الاستيطانى ، ووجوب توفير قوة عسكرية سريعة الحركة قوية التأثير لردع أصحاب الأرض الذين يحيطون بهذا الكيان . كذلك فإن الدراسة حملت انحيازات واضحة ضد المصريين خاصة والعرب بصفة عامة ؛ إذ إن يوشع براور وجد الشجاعة ليقول إن المصريين ليسوا أهل حرب وقتال على الرغم من أن حقائق تاريخ الحركة الصليبية التى يعرفها هو جيداً تقول بعكس ذلك تماماً .

ولكن أخطر مافى هذا الكتاب هو محاولة اختلاق دور تاريخى لليهود فى الحرب الصليبية الطويلة . وعلى الرغم من معرفته الأكيدة بضآلة أعدادهم ، وعدم انضمامهم إلى أية قوات محاربة من أى نوع ، وعدم وجود قوة عسكرية خاصة بهم نظراً للظروف التاريخية السائدة آنذاك – على الرغم من هذا كله يزعم يوشع براور أنه كان لليهود دور إيجابى فى الحروب الصليبية . وإذا كان ثمة دور لليهود زمن الحروب الصليبية فإنه كان دور المفعول به لاغير . فقد كانت أعدادهم فى فلسطين عامة ، والقدس خاصة ، قليلة إلى درجة مذهلة ، كما أنهم راحوا ضحية مذبحة القدس بعد اقتحام الصليبيين لها مع الضحايا المسلمين من سكان المدينة المقدسة . ولكن هذا المؤرخ يتلاعب فى صياغة الأحداث والوقائع التاريخية لكى يخلق انطباعاً بأن اليهود كانوا يدافعون عن مدينتهم .

أما هدف الكتاب فيتضح تماماً من الفصل الأول ، ومن الآية التى أخذها من العهد القديم ليضعها عنواناً للفصل الأول الذى يتحدث عن أن اليهود ، شأنهم شأن المسيحيين والمسلمين ، لهم حق ملكية القدس ، ولكن الإمبراطوريات المسيحية ثم الإسلامية ، فرضت الأمر الواقع بالقوة وحرمت اليهود من ملكية القدس . وتتحدث الآية التى أخذها من العهد القديم عنوانا لهذا الفصل عن "الوعد المقدس" الذى قطعه الرب لبنى إسرائيل بملكية الأرض المقدسة كلها .

هكذا ، إذن ، يقول يوشع براور بوضوح إن الدراسة موجهة لخدمة هدف صهيونى على الرغم من أن عنوانها يشى بدراسة الكيان الصليبى .

وفى تقديرنا أن دراسة المشروع الصليبى من كافة جوانبه ، وتقدير أسباب الفشل ، وتحديد عناصر القوة وعوامل الضعف فى هذا المشروع ، محل اهتمام الدوائر الصهيونية تماماً لأسباب لاتخفى على كل ذى عينين : فالمشروع الصليبى والمشروع الصهيونى يقومان على أرضية واحدة ، وأساسهما الإيدلوجى متشابه . كما أن المشكلات التى واجهها الكيان الصليبى تكاد تكون هى نفس مشكلات الكيان الصهيونى (الأمن - الموارد البشرية - المحيط العربى المعادى - الظهير المساند من خارج المنطقة - عناصر القوة الذاتية - عوامل الضعف الداخلية- العلاقات مع العرب) وربما كان يوشع براور من أهم المؤرخين الذين كرسوا حياتهم وعلمهم لدراسة ظاهرة الأستيطان الصليبى .

إن دراسة مسحية شاملة لكتابات اليهودية ، الإسرائيلية لتكشف عن اتجاهات الرؤية الإسرائيلية للحروب الصليبية ، ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات فى عدةنقاط :

أولا : دراسة الظاهرة الصليبية باعتبارها السابقة التاريخية التى تعلمت منها الحركة الصهيونية من ناحية ، وباعتبار المشروع الصهيونى امتداداً تاريخياً للمشروعات الصليبية المتأخرة من ناحية أخرى .

ثانيا : محاولة اختلاق دور تاريخى لليهود فى الحركة الصليبية والتركيز على محاولة تصوير اليهود فى صورة "الشعب" الذى اعتدى الصليبيون على أرضه واصطناع مواقف تاريخية تبين "المقاومة اليهودية" للغزو الفرنجى على نحو ماحاول يوشع براور فى هذا الكتاب.

ثالثا : تشويه الدور التاريخى للعرب والمسلمين ، ومحاولة تغييب العرب فى الصراع ضد الوجود الصليبى والتركيز على دور العناصر غير العربية . ومن ناحية أخرى ، محاولة المساواة بين الدور اليهودى والدور العربى الإسلامى وتجاهل الحقيقة التاريخية القائلة بأن يهود المنطقة العربية كانوا جزءاً من الكل العربى الإسلامى ، ولم يكن لهم وجود مستقل سواء على المستوى السياسى أو الثقافى ، أو الاقتصادى أو العسكرى - وهو مايعنى أنهم لم يكونوا كياناً مستقلاً .

وربما كان كتاب يوشع براور "عالم الصليبيين" تجسيداً لهذا كله . وعلى أية حال ، فإننا نترك القارئ الكريم مهمة الحكم على الكتاب .

والله الموفق والمستعان ،،

دكتور قاسم عبده قاسم

الهرم - يناير ١٩٩٩م

تقديـم

حين تطرق عبارة "الحروب الصليبية" أسماع الناس تنطبع فى مخيلاتهم على الفور صورة ترسبت فى وجدانهم عبر سنوات طوال ، بفضل ما نسج حول هذا الحدث التاريخى الفذ من روايات وقصص - حقيقية وخيالية - ظلت الأجيال تتناقلها عبر القرون . ومن المنطقى أن تكون الصورة المترسبة فى الوجدان الغربى مختلفة الى حد بعيد ، بل وبشكل جذرى ، عن الصورة الكامنة فى أعماق الشرق الاسلامى .

ففى الشرق تعنى "الحروب الصليبية" عدواناً شنه الغرب المسيحى ، تحت راية الصليب ، بهدف اقامة نوع من المستعمرات الاستيطانية تكون بؤرة للتوسع الذى يمتد أخطبوطه للقضاء على العالم الاسلامى . وتختلط الفكرة المجردة بصورة المجاهدين الذين تصدوا لهذا العدوان ، حتى تمكن صلاح الدين الأيوبى أن يبدأ الهجوم الإسلامى للتحرير ، وهو الهجوم الذى استمر حتى تم القضاء على فلول الصليبيين المتجمعين فى عكا فى عهد السلطان المملوكى الأشرف خليل بن قلاون .

ومن ناحية أخرى ، فإن الصورة التى رسمتها المصادر التاريخية العربية لفترة الحروب الصليبية تكشف عن نظرة المسلمين الى أولئك المعتدين ، وهى نظرة عدائية بطبيعة الحال ، فالصليبى ، كما تصوره المؤلفات التاريخية ، مقاتل همجى ، جامد العاطفة ، وهو أيضاً كافر ملعون . وليس هناك مايدعو للدهشة إزاء هذه النظرة العدائية التى تعاملت بها المصادر التاريخية العربية مع الشخصية الصليبية ، فالواقع أن تكفير المقاتل الصليبى - فى كتابات المؤرخين المسلمين - نابع من موقف سياسى أكثر من كونه موقفًا دينيًا ، ذلك أن جزءا من إيمان المسلم أن يؤمن بالمسيح عليه السلام . ولكن حقيقة أن العدوان الصليبى قد تم على "دار الإسلام" وأن المقاومة الإسلامية ضده كانت تحت راية الجهاد ، جعل من غير المنطقى والمقبول أن يرفع المسلمون شعار الجهاد ضد قوم لايعتبرونهم كفاراً .

ومن الطبيعى أن تترسخ هذه الصورة فى وجدان الناس فى مصر وسوريا وفلسطين خاصة - حيث دارت رحى المعارك مع الصليبيين - وفى وجدان المسلمين عامة .

أما فى الغرب الأوربى فإن الصورة مختلفة إلى حد بعيد ، وهو أمر يبدو متسقًا ومتوافقًا مع المنطق تمامًا : فإن الكثيرين من عامة المثقفين المعاصرين فى الغرب اليوم لايكادون يعرفون عن الحروب الصليبية شيئاً سوى تلك الصورة الجذابة التى تبرز من ثنايا حوادث تلك الفترة

لفارس عملاق ، ذى سترة مصفحة ، يمتطى صهوة جواد فاره ، وقد حمل راية الصليب وأخذ يطارد أبناء القبائل العربية الذين يفرون أمامه فى جبن وتخاذل ، تميزهم بشرتهم الداكنة ، وعزائمهم الخائرة ، ليخلّص قبر المسيح من أيدى المسلمين "الكفار".

وعلى الرغم من أنه ليس هناك جانب واحد صحيح فى هذه الصورة ، فإنها قد رسخت فى الوجدان المسيحى الغربى بفعل التراث المتراكم فى ثنايا الكتابات التاريخية المعاصرة لتلك الفترة . لقد كانت قصة الحروب الصليبية الحافلة بالإثارة مجالاً جديداً تمام الجدة على مؤرخى أوربا آنذاك ، وقد حررتهم من قيود النماذج والأطر القديمة التى كانوا يصبُّون رواياتهم التاريخية فى قوالبها الجاهزة . ولكن هذا لم يمنعهم من رؤية "الآخر" على أنه عدو كافر يجب قتله وتخليص الأماكن المقدسة من قبضته .

لقد كانت الحروب الصليبية حربًا كأية حرب أخرى ، ومن خلالها برزت رؤية كل فريق "للآخر" وتبلورت بفضل التلاحم العسكرى والاحتكاك الحضارى بشتى جوانبه .هذه الرؤية هى التى فرضت نفسها على سطور الكتابات التاريخية آنذاك .

والحقيقة عندى أن الحروب الصليبية ليست سوى توضيح درامى له مغزاه يكشف عن الجوانب الرئيسية فى حضارة العصور الوسطى . ذلك لأن هذه الحروب ليست سوى مجرد عامل سببى من عوامل التغير فى العصور الوسطى ، كما أنها كانت تعبيراً عن ثقافة وأفكار ومواقف الناس فى تلك العصور . فالحروب الصليبية تكشف النقاب عن أهل العصور الوسطى، وتسلّط الضوء على خصائصهم بشكل غير عادى ، الأمر الذى يجعلها ظاهرة تاريخية جذيرة بالدراسة من جميع الوجوه .

ويميل فريق من المؤرخين - وهم غالبية - إلى المبالغة فى تصوير الحروب الصليبية على أنها العامل الأساسى فى التغيرات التاريخية التى طرأت على الشرق والغرب منذ القرن الحادى عشر . وربما نقترب من الحقيقة بقدر أكبر إذا قلنا أن الحروب الصليبية تعبير عن هذه التغيرات التاريخية أكثر منها سبب فى حدوثها . فالحروب الصليبية تطور هام فى تاريخ العصور الوسطى ، بيد أن ذلك يرجع فى أساسه إلى أن هذه الحروب كانت آنذاك تعبيراً عن أنماط أساسية من التفكير والسلوك الأوربى والشرقى أيضًا. حقيقة أنه كان للحروب الصليبية تأثيرها على مجرى التطور الأوربى ، ولكن هذا التأثير لم يكن كافياً لأن يغير من اتجاه التطور فى نُظُم الحكم والاقتصاد والثقافة بشكل جذرى .

ومن ناحية أخرى ، توحى عبارة "الحروب الصليبية" بصورة فرسان ألهبتهم الحماسة الدينية ففارقوا الأهل والوطن للمشاركة فى حرب مقدسة وعادلة ضد أعداء المسيح . وبالفعل ، حملت الجيوش الصليبية راية المسيح ، ووضع المقاتلون شارة الصليب على ستراتهم ، كما رفعوا شعار تحرير القدس من أيدى المسلمين .

والواقع أن صراعات كثيرة قد دارت حول هذه المدينة المقدسة منذ أقدم العصور ، ولايزال الصراع مشتعلاً من حولها حتى اليوم . فقد ربط الإسرائيليون المحدثون بين الوعد المقدس ومفهوم "الأرض الموعودة" فى العقيدة اليهودية ، وبين عدوانهم الاستعمارى الاستيطانى فى الأرض العربية على نحو ما فعل الصليبيون فى العصور الوسطى . فهل يمكن أن تكون المحاولة الاستعمارية الاستيطانية التى قام بها الصليبيون على مدى مايقرب من قرنين من الزمان نتيجة لهذا الدافع الدينى وحده ؟ وهل يمكن أن نسلم بالدافع الدينى لدى الصهاينة كمبرر وحيد لاغتصاب الأرض العربية فى فلسطين وسيناء والجولان ولبنان ؟

إن هذين السؤالين ، وما يتفرع عنهما بالضرورة من أسئلة أخرى ، يقودان إلى محاولة تقصى الأصول الأولى للفكرة الصليبية ، حتى يمكننا أن نجد الإجابة المناسبة لكل سؤال . وفى الحقيقة أنه لايمكن تتبع أصول هذه الفكرة وجذورها على نحو فعال بسبب الضبابية الناجمة عن اختلاط المثال بالواقع ، أو تضاربهما فى كثير من الأحيان ، فضلا عن عدم وجود الأدلة التاريخية الدافعة التى تحدد البداية الحقيقة لهذه الفكرة . وفكرة الحروب الصليبية ، كفكرة ، يصعب تعقب أصولها وجذورها ، شأنها فى ذلك شأن أية فكرة أخرى . ومع ذلك فإن لدينا من الشواهد والقرائن والأدلة الاستنباطية ما يساعدنا على رصد أصولها بشكل مقنع ، وإن يكن غير حاسم .

لقد أشار المؤرخ الاقتصادى البلجيكى هنرى بيرين إلى أنه لايمكن فهم أحوال الغرب الأوربى فى العصور الوسطى دون تفهم حقيقة الدور الإسلامى وتأثيره على أحوال الغرب آنذاك . وعلى الرغم من أن بيرين اختار لكتابه الذى تناول فيه هذه القضية عنوانا معبرا هو "محمد وشارلمان" ، فإن محاولته لتأكيد التأثير السلبى للدور الاسلامى قد كشف عن التعصب وسوء الفهم من جهة ، كما أثارت معارضة شديدة فى أوساط المؤرخين المتخصصين من جهة ثانية ، فضلاً عن أنه يتضمن أخطاء علمية كثيرة من جهة ثالثة ، الأمر الذى يجعلنا لانعول عليه كثيراً فى هذا المجال .

ومن ناحية أخرى ، يرى بعض المؤرخين الغربيين أن التطور الذى شهدته أوربا فى العصور الوسطى ، إنما كان نتاجاً للتفاعل بين عناصر أوربية خالصة ، وأن أوربا كفت نفسها بنفسها ، ومن ثم فإن فكرة الحرب المقدسة والدوافع الأولى للحروب الصليبية أمر يمكن تفسيره بمنأى عن المؤثرات الإسلامية .

وفيما يتعلق بالأصول الأولى لفكرة الحرب المقدسة أو الحروب الصليبية ، ينبغى علينا أن نبحث عن جذورها الأولى فى طيات الفكر والثقافة فى أوربا المسيحية . وهنا ينبغى أن نشير إلى حقيقة هامة مؤداها أن الديانة المسيحية ديانة تميل إلى السلم بشكل واضح ، فالتعاليم الواردة فى الأناجيل وفى أعمال الرسل تظهر ميلا قويا نحو السلم . والحرب تعنى الذبح والتدمير والخراب . وبالنسبة لآباء الكنيسة الأوائل كانت الحرب تعنى القتل الجماعى . ومن المؤكد أن الكنيسة الشرقية فى بيزنطة كانت تعتبر الحرب شرا يجب تحاشيه ، وعدم اللجوء إليه إلا بعد فشل الوسائل السلمية والدبلوماسية ، حتى لو كان الثمن هو دفع جزية باهظة . وبسبب تعاليم القديس باسيل St. Basil ، أعظم مشرعى الكنيسة البيزنطية ، لم يكن الجندى البيزنطى يعتبر شهيدا إذا قتل فى الحرب - ولو كانت دفاعاً عن بلاده - لأن الشهيد هو فقط من يموت متسلحا بالإيمان . ويكشف تاريخ بيزنطة العسكرى عن أن الحروب البيزنطية كانت فى حقيقتها حروبا دفاعية ، وهو ما يبدو فى أعين المؤرخين الغربيين ، الذين تستهويهم الروح العسكرية ، ضرباً من ضروب الجبن والتخاذل وهو فى الحقيقة تعبير عن هذه الايديولوجية التى ترى فى الحرب شرا لايليق بالمسيحى .

أما فى الغرب ، فقد كان الموقف جد مختلف ، ذلك أن الشعوب الجرمانية ، لم تكن لترضى بهذا المنطق الذى فرض نفسه على التصرفات البيزنطية ، فضلاً عن أن القديس أوغسطين نفسه قد صاغ نظرية عن الحرب العادلة يمكن قبولها ، ويمكن أن يحبذها الرب . بيد أنه أعلن أن الحاكم هو الذى يقرر هذه العدالة . وفى مجتمع له ظروف المجتمعات الإقطاعية فى أوربا العصور الوسطى كان لابد وأن تنهار نظرية أوغسطين عن الحرب العادلة ، ذلك أنه لم يكن يوجد فى ذلك المجتمع من لايحكم غيره سوى أقنان الأرض ، كما أنه لم يكن يوجد من لايحكمه غيره سوى الملك ، وكان التصرف الواقعى هو أن كل من كان ينال ضربة كان يردها بشكل مباشر دون أن يفكر فى موضوع الحرب المقدسة .

ومن ناحية أخرى كان التراث الجرمانى فى غرب أوربا يمجد صفات العسكرية والبطولة فى المجتمع ، وكان لابد لهذا المجتمع العسكرى أن يجد تبريراً لعاداته العسكرية التى ورثها عن

ماضيه . وقد تطور قانون الفروسية فى المجتمعات الإقطاعية الأوربية من خلال الحاجة إلى وضع القواعد والأصول التى تحكم وتوجه عمليات الحرب والقتال ، وبفضل الملاحم الشعبية المتداولة فى ذلك الحين Chansons de geste التى تتحدث عن بطولات شارلمان وورولان ورفاقهما تم تكريس قيم البطولة العسكرية . لقد كانت الروح العسكرية وقيم البطولة والاقدام محل تقدير فى الغرب الأوربى منذ زمن طويل ، اذ أنها كانت - بغض النظر عن رأى رجال الكنيسة - هى الفاصل الذى يميز النبلاء عن الأقنان .

ومن ناحية أخرى ، فإن المسلمين كانوا بالنسبة لمسيحيى الغرب بمثابة شبح رهيب يفرض نفسه على سلوكياتهم ، فقد كان المسلمون يحكمون الشطر الغربى من عالم البحر المتوسط ، من قطالونيا حتى تونس ، وكان الغرب يخشى أن يخرج المسلمون من مكامنهم الحصينة لكى يهاجموا الغرب مرة أخرى ، كما حدث من قبل عندما اوقفهم شارل مارتل عند تور - بواتييه فى فرنسا . إلا أن الخطر الإسلامى على أوربا الغربية قد زال تماماً بوفاة الخليفة عبد الرحمن الثالث ، فقد بدأت القوة الإسلامية فى الأندلس رحلة الغروب والأفول ، على حين كانت حرب الاسترداد الأسبانية Reconquista تؤتى ثمارها ، وأخذت البابوية تبارك أية محاولة لتوسيع نطاق الممتلكات المسيحية على حساب المسلمين فى الأندلس .

والواقع أن من يحاول أن يتصور الحياة الأوربية فى العصور الوسطى دون أن يضع نصب عينيه ملامح الصدام والوفاق بين المسلمين والمسيحيين ، إنما يشبه شخصا يغمض عينيه عن ضوء الشمس الذى يفرض نفسه عليه . ذلك أن من يتأمل سطور المراسيم البابوية فى تلك الفترة لابد وأن يتأكد من إحساس البابوية بجيرانها المسلمين الأقوياء ، وهو إحساس يشى بمزيج من القلق والخوف والكراهية .

والحقيقة أننا يجب أن نبحث عن أصول الفكرة الصليبية فى طيات الصراع بين المسلمين والمسيحيين فى شبه جزيرة أيبيريا التى كان المسلمون قد احتلوا الشطر الأكبر منها منذ سنة ٧١١ ميلادية بقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد . ويذهب المؤرخ الأسبانى المعاصر أميركو كاسترو فى كتابة "حقيقة أسبانيا التاريخية" إلى أن فكرة الحرب المقدسة عند المسيحيين كانت مستوحاة من مفهوم الجهاد الإسلامى ، إذ يقول : "الحقيقة عندى هى أن الحياة الأوربية عامة والحياة الاسبانية خاصة فيما بين القرن التاسع والقرن الحادى عشر للميلاد ، كانت نوعاً من التصادم والتعايش بين المسلمين والمسيحيين . وقد يكون هذا نوعاً من التمايز فى الرأى ، ولكنى أعتقد أنه الحقيقة وأدافع عنه بكل قوة . وهذا أمر ضرورى لأننى

أريد أن أوضح من هم الأسبان وكيف كانوا .. إن الحرب ضد المسلمين فى فلسطين وأسبانيا استلهمت من فكرة الجهاد أو الحرب المقدسة لدى المسلمين . ولايهمنا فى هذا المقام شكل هذا الاستيحاء ، بل يهمنا أن نؤكد على وجوده بصفة قاطعة .. وفى رأيه أنه لا يمكن أن نتصور أن البابا ليو الرابع فى سنة ٨٤٨م ، أو البابا اربان الثانى فى سنة ١٠٩٥ ، كانا يجهلان أن القادة المسلمين كثيرا ما كانوا يذكرون جنودهم - وهم يحثونهم على قتال الكفار- بأن الله قد وعد الشهداء الذين يقتلون فى سبيل الاسلام بجنات تتوفر فيها شتى صنوف المتع ، وكان هذا هو ما يدفع بالمسلمين ، المؤمنين بهذ الوعود إيمانا مطلقا ، إلى النضال بكل قوة وبسالة ، ولابد أن تأثير هذه الآيات هو الذى مكن المسلمين من السيطرة على رقعة هائلة الاتساع من أرض العالم، ولسنا نظن أن قادة المسيحية فى أوربا العصور الوسطى كانوا بحاجة إلى أن يكونوا مستشرقين أو حتى إلى معرفة اللغة العربية لكى يدركوا قيمة مبدأ الجهاد عند المسلمين ، ولا نتصور أيضا أن الجهاد فى الأندلس كان يستهدف الحصول على المغانم والأسلاب .

ويمضى المؤرخ الأسبانى ليوضح كيف تأثرت أسبانيا المسيحية بالمسلمين فى مجال الحرب المقدسة ، وهو التأثير الذى بدا واضحاً فى الرهبنات العسكرية الأسبانية التى تولت أمر حرب الاسترداد الأسبانية Reconquista التى بدأت من الجبال الشمالية فى القرن العاشر .

وفى تصورنا أن نجاح فكرة الحرب المقدسة فى أسبانيا قد استلفت نظر البابوية على نحو ما. ففى القرن الحادى أحرز الأسبان المسيحيون أول انتصاراتهم الكبيرة بفضل النزاع الذى أخذ ينهش الجسد الإسلامى فى الأندلس عقب وفاة عبد الرحمن الثالث . وما أن أهل عام ١١٠٠ حتى كان المسيحيون يسيطرون على مساحة تتراوح ما بين خمس وربع مساحة البلاد . وقد استمر مد حرب الاسترداد يزحف فى بطء - ودونما توقف - صوب الجنوب . وعلى الرغم من أن القضاء على الوجود الإسلامى بشكل نهائى لم يحدث فى سنة ١٤٩٢ ، فإن الملوك المسيحيين كانوا قد فرضوا سلطانهم على معظم أراضى شبه الجزيرة الأيبيرية منذ منتصف القرن الثالث عشر . وفى غمرة هذه الحرب الاستردادية ، كان المسيحيون قد استوعبوا تماما فكرة "الجهاد" الإسلامية وطوروها فى ثوب مسيحى خالص .

ومنذ البداية كانت البابوية ترقب الموقف فى شبه الجزيرة عن كثب . وفى سنة ١٠٦٤ قدم البابا إسكندر الثانى الغفران كمكافأة لكل من يقتل وهو يحارب المسلمين فى اسبانيا . كذلك حظيت جهود المسيحيين الاستردادية فى أسبانيا بالتعاطف والتأييد من جانب الأديرة الكلونية التى كانت تقوم بدور رائد فى الحياة الديرية آنذاك . وفى عصر البابا جريجورى السابع

(١٠٧٧-١٠٨٥) كان كثيرون من الفرسان في غرب أوربا ، وفي فرنسا على نحو خاص يتوجهون إلى أسبانيا للمشاركة في الحرب ضد المسلمين . وحتى نهاية القرن الحادى عشر ، كانت "الحرب المقدسة" في أسبانيا تجتذب الفرسان المسيحيين المغامرين من الشمال ، وهو ما يعنى أن نهاية هذا القرن قد جاءت لتشهد على أن فكرة الحرب المقدسة قد صارت حقيقة واقعة. وأخذت البابوية تنظر صوب الشرق البعيد حيث الأماكن المقدسة التى ترتبط بقصة المسيح لكى تكون ميدانا لحرب مقدسة أوسع مجالا ، وأبعد هدفا .

بيد أن الفكرة فى حد ذاتها لم تكن لتسبب حدوث الظاهرة التاريخية التى نحن بصددها ؛ أعنى الحروب الصليبية ، ما لم تكن قد جاءت متوافقة مع ظروف العصر . وفى تصورنا أن فكرة الحرب المقدسة قد جاءت فى ظروف ملائمة تماما فى الغرب الأوربى والشرق الإسلامى والبيزنطى على حد سواء .

فقد شهد القرن العاشر حركة إصلاح كنسية بزعامة الأديرة الكلونية . وكانت هذه الحركة الإحيائية الكبرى تستهدف إصلاح الاديرة ، والكنيسة ، وإصلاح العالم . وإصلاح العالم يعنى إخماد الحروب الإقطاعية التى كانت سمة من سمات المجتمع الذى اختفت فيه السلطة المركزية، وتعرض للكثير من الغارات الجرمانية . وقد كان الأساقفة ومقدمو الأديرة قد اندمجوا فى البناء الاقطاعى ككل . وظهر من بينهم من يقود فرسانه فى حرب إقطاعية . ولم يجد المصلحون وسيلة لمنع الحروب الإقطاعية تماما ، ولكنهم توصلوا إلى صيغة عملية لتحديد نطاقها . وجاءت "هدنة الله" لتمنع القتال فى نهاية الأسبوع ، وفى الأيام المقدسة ، وطوال فترة الصيام الكبير . وهكذا لم يعد أمام الحروب الإقطاعية سوى فصل الصيف فقط . ومن ناحية أخرى ، فإن حركة "سلام الله" قد شملت الأشخاص فى محاولة لزيادة عدد غير المحاربين. فقد كان محرما شن الحرب ومهاجمة رجال الكنيسة ، والحجاج ، والتجار ، والنساء، والمسنين ، والفلاحين وممتلكاتهم من الثيران والبغال ومستلزمات الزراعة عموما . وبعبارة أخرى ، كان "سلام الله" يحمى العناصر الكنسية والتجارية والزراعية والنسائية فى المجتمع من التعرض لهجوم المتحاربين . وقطع الأمراء على أنفسهم عهدا بالحفاظ على هذه القواعد . وعلى الرغم من ذلك ، فإن الكثيرين منهم قد حنثوا فى أيمانهم . ولم تكن حركة "هدنة الله" "وسلام الله" لتحظى بتأييد أحد الأمراء الأقوياء ما لم تكن هناك مصلحة خاصة له .

وحينذاك وجدت الكنيسة أنه لابد من تكوين قوة سلام يخدم رجال الاكليروس فى صفوفها فى كل من فرنسا وألمانيا لإقرار النظام والضرب على أيدى من يعتدون على "هدنة الله وسلام

الله" . وكانت هذه الخطوة بمثابة تغيير جذرى فى موقف الكنيسة من الحرب ، وتطور هام فى هذا السبيل . ورب قائل بأن الكنيسة لم تلعب دوراً فى الحرب ، بل كانت تقوم بمهمة بوليسية. ولكن الواقع أن الكنيسة قد رفعت السيف ، وأخذت تضطلع بالدور العادى للدولة . وقد حدث في ألمانيا ذات مرة أن أفلت زمام جيش السلام فنهب البلاد ، واضطر أحد الكونتات إلى أن يجرد جيشا مضادا ليعيد النظام إلى صفوف جيش السلام . وحين انقشع غبار المعركة التى دارت بين الجيشين كانت هناك سبعمائة جثة من رجال الكنيسة تغطى ساحة القتال .

وهكذا أدلت البابوية بدلوها فى حركة الإصلاح بشكل أدى فى النهاية إلى تأكيد مكانة البابوية وحكمها للعالم المسيحى الغربى . وقد تتابع على عرش القديس بطرس فى روما عدد من البابوات المصلحين ، إلا أن أكثرهم تأثيراً كان هو ليو التاسع الذى وصف بأنه "المؤسس الحقيقى للحكومة البابوية" . وقد عمل هذا البابا على جعل السلطة البابوية حقيقة ملموسة فى سائر أنحاء الغرب المسيحى ، وبذلك استطاع أن يستحوذ على ولاء الأديرة الكلونية ومساندتها . ولكن رغبة البابا فى توطيد سلطانه سرعان ما دفع به إلى الصدام الحاد والعنيف مع الامبراطور . هذا الصراع الذى تجسد كأوضح ما يكون بين البابا جريجورى السابع والامبراطور الألمانى هنرى الرابع .

وكان البابا جريجورى السابع رجلا ذا ميول عسكرية ، فقد أقنع البابا إسكندر الثانى ، وهو لايزال كاردينالا ، بتأييد العدوان النورمانى على انجلترا . وعندما اعتلى العرش البابوى كتب إلى الإمبراطور هنرى الرابع فى سنة ١٠٧٥ يقترح عليه تجريد حملة لاستعادة ممتلكات الإمبراطورية الشرقية التى فقدتها بعد معركة مانزكرت . وكان واضحا أنه ينوى أن يتولى قيادة الحملة المقترحة بنفسه ، ظنا منه أن هذه الحملة ربما تؤدى فى حالة نجاحها إلى إخضاع الكنيسة الشرقية وتوحيد العالم المسيحى تحت زعامته . كذلك كان هذا البابا الطموح يشجع حملات الاسترداد فى أسبانيا . ولاشك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن يجعل من ورطة الإمبراطور البيزنطى ، بعد هزيمته فى مانزكرت ، ميزة عاجلة تفيد منها البابوية . ولكن استمرار الصراع بين البابا والامبراطور حول مسألة التقليد العلمانى عطل تنظيم أية حملة أو إرسال أى جيش إبان بابوية جريجورى السابع ، وترك أمر تنفيذ ذلك إلى خليفته أوربان الثانى الذى كان أكثر اعتدالاً ، وأقل طموحاً من سلفه .

ونجد أنفسنا فى مواجهة سؤال يطرح نفسه فى إلحاح حول دوافع البابوية إلى الدعوة إلى شن حملة مقدسة لمحاربة المسلمين فى الشرق . وإذا ما أردنا البحث عن الإجابة المناسبة وجدنا

أنفسنا مقودين إلى استعراض خطاب أوربان الثانى فى مجمع كليرمونت فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ ، لعلنا نجد الإجابة فى طياته .

كانت خطبة البابا فى كليرمونت مثالا رائعا فى البلاغة. وعلى الرغم من أن هذه الخطبة قد وصلتنا فى عدة روايات مختلفة ، فالواضح أن هذا البابا قد استطاع أن يمس كل الدوافع التى كان يمكن أن توجد فى وجدان سامعيه . وإذا ما اعتمدنا على رواية روبرت الراهب الذى كتب فى الربع الأول من القرن الثانى عشر ، واعتمد على رواية أخرى أسبق زمنيا ، وجدنا أن البابا يخاطب "جنس الفرنجة" ويذكرهم بحسن عقيدتهم الكاثوليكية وشرف كنيستهم . ثم يحدثهم عن صنوف مرعبة من التعذيب الذى زعم بأن الأتراك المسلمين أنزلوه بالمسيحيين فى الشرق ، ثم يثير أوربان الثانى نخوة الفرسان الفرنجة" : دعوا مآثر أسلافكم تحفزكم إلى القيام بما يليق بالرجال من أعمال . اذكروا أمجاد شارل العظيم وعظمته ، وابنه لويس وغيره من ملوككم الذين دكوا ممالك الوثنيين ، ونشروا لواء المسيحية فى تلك البقاع . وليكن قبر سيدنا المخلص، الذى تسيطر عليه أمم غير طاهرة ، حافزا لكم . ولتثر الأماكن المقدسة ، التى تعانى من المهانة ، نخوتكم ..

ثم أخذ أوربان الثانى يذكر سامعيه بأن بلادهم التى يحدق بها البحر والجبال أضيق من أن تتسع لاعدادكم الكبيرة ، كما أنها لاتكاد تفى حاجة سكانها من الطعام ، ومن ثم فانهم يقتلون بعضهم بعضاً . ويدعو البابا فرسان الفرنجة إلى نبذ الكراهية ، ووقف الحروب المحلية ، وليسعوا جميعا على درب الضريح المقدس ليحرروه من نير المسلمين . وليحكموا هذه الأرض التى يذكر الكتاب المقدس أنها "تفيض باللبن والعسل" .

والمتأمل فى خطاب أوربان الثانى فى كليرمونت كما رواه روبرت الراهب - الذى يحتمل أنه كان واحدا من شهود المؤتمر - يستطيع أن يضع يده على بعض دوافع البابوية من ناحية ، والعلمانيين من ناحية أخرى ، ووراء الدعوة إلى شن حرب مقدسة والمشاركة فيها .

لقد كانت دوافع البابوية مزيجاً مختلطاً . فإن الحرب المقدسة ، كأداة من أدوات سياسة البابوية الخارجية كانت تستهدف عدة أغراض ، منها ما هو معلن ومنها ما يفهم من استقراء الظروف التاريخية ؛ ففى المحل الأول كانت الحملة المزمع القيام بها تنشد استرداد الأراضى المقدسة من المسلمين ، وحماية طرق الحجاج المسيحيين . ولاشك أن الرغبة فى نشر المسيحية كانت من عوامل دعوة البابوية إلى الحرب الصليبية ، بيد أنه كان من الواضح أن البابا رأى فى مثل تلك الحملة فرصة لتوحيد كنيستى الشرق والغرب - اللتين كانتا قد تباعدتا تماماً منذ الشقاق الكبير الذى حدث سنة ١٠٥٤ - تحت زعامته ، وتأكيد دوره كزعيم للعالم المسيحى .

كذلك كانت البابوية ترغب فى توظيف الميول الحربية لفرسان الغرب الذين لايكفون عن الاقتتال ، فى خدمة غرض عام يفيدهم ، لا سيما وأن حركة "سلام الله" "وهدنة الله" كانت قد لقيت تجاهلا تاما من بعض أهم مؤيديها . ويمكن أن نلاحظ أن سادة الأراضى التى تم استردادها فى أسبانيا فى غضون القرن الحادى عشر ، قد صاروا أفصالا إقطاعيين تابعين للبابا فى روما . وهو مايعنى أن البابوية كانت تسعى إلى أن تكون الأراضى المقدسة – بعد استعادتها من المسلمين – تابعة للبابا وخاضعة لسيطرته . ومن ثم فإن مثل هذه الحرب الصليبية سوف تكون تعبيراً عملياً عن زعامة البابا الروحية للعالم المسيحى ، وقد كانت هذه الزعامة تمثل ركنا جوهريا من أركان وجود البابوية نفسها .

ومن ناحية أخرى ، فقد رأت البابوية أن الحروب الصليبية يمكن أن تجتذب شعوب شمال أوربا إلى علاقات أكثر توطدا مع البابوية .

ولا شك أن البابا جريجورى السابع قد حاول أن يفيد من ورطة الإمبراطور البيزنطى ويحولها إلى ميزة عاجلة تفيد منها البابوية بإرسال جيش لاتينى يكون هدفه خدمة مصالح البابوية ، وليس حماية البيزنطيين من خطر المسلمين ، ولكن استمرار الصراع بين هذا البابا والإمبراطور هنرى الرابع عطّل تنظيم أية حملة أو إرسال جيش فى عهد جريجورى السابع . وترك أمر هذه الحملة إلى أوربان الثانى الذى كان واحداً من أكبر دبلوماسيى عصره .وقد نجح فى تضييق شقة الخلاف التى كانت تفصل بين كنيسة روما وكنيسة القسطنطينية ، وتقبل فكرة الحرب المقدسة فى لهفة وشغف . وفى دعوته التى وجهها إلى ذلك الجمع الحاشد من الناس فى الحقول خارج مدينة كليرمونت وعد الناس بالمكافأة الدنيوية ، كما قدم الغفران والخلاص لكل من يسقط فى حلبة الصراع ضد المسلمين .

وعلى الجانب الآخر ، كانت دوافع من قبلوا المشاركة فى هذه الحرب المقدسة مزيجاً غريباً ومثيراً من العوامل والأسباب . والحقيقة أننا لايمكن أن ننكر أن العامل الدينى كان موجودا بشكل ما ، ولكنه كان نابعاً من تدين عاطفى يقوم على التعصب المقيت ولم يكن نابعاً من تدين عقلانى حقيقى . ذلك أن الجو المحموم الذى أشاعته الدعاية المسعورة التى أذكت البابوية نيرانها ضد المسلمين ، جعلت نفوس بعض أولئك الفرسان تضطرم بالرغبة فى قتل المسلمين الذين شاعت عنهم قصص تدمير الكنائس وقتل المسيحيين وتعذيبهم . ولأن غرب اوربا كان يجهل الصورة الحقيقية للمسلمين ، فإن مقاتليه الذين ساهموا فى حرب الاسترداد الاسبانية كانوا يظهرون من دلائل القسوة والوحشية ضد المسلمين ما كان يتعارض بوضوح مع تصرفات

الأسبان المسيحيين أنفسهم والتى اتسمت بالاعتدال إلى حد ما . وعلى هذا ، فإن المقارنة بين مبدأ الجهاد الإسلامى ، وفكرة الحرب المقدسة التى روجت لها البابوية تكشف عن أن فكرة الحرب المقدسة ، على الرغم من اقتباسها لمفهوم الجهاد ، تفتقر تماما إلى الشرعية التى جعلت من الجهاد ركنا إضافيا من أركان الإسلام . فضلا عن أن فكرة الحرب المقدسة التى أشعلت نار الحروب الصليبية قد ألبست ثوبا دينيا على الرغم من جوهرها السياسى . ولعل من أكبر البراهين على ذلك ، أن كتب كبار رجال اللاهوت المعاصرين لها ، ومنهم "توماس الاكوينى" الذى شارك أخوه فى الحروب الصليبية وأسر أثناءها - لم تتعرض من قريب أو بعيد لفكرة الحرب المقدسة .

ولا شك فى أن البعض الآخر قد أخذوا شارة الصليب أملاً فى نيل الغفران والدخول فى رحمة الرب . ومع ذلك فإن الفرسان الذين لا أرض لهم ، والأبناء الصغار فى الأسر الاقطاعية ممن لايحق لهم وراثة الإقطاعات ، قد انضموا إلى الحملة الصليبية يحدوهم الأمل فى أن يحققوا لأنفسهم الأرض والمكانة التى لم يتمكنوا من تحقيقها فى أوطانهم . وقد لعب البابا أوربان الثانى على أوتار هذا الأمل بشكل صريح فى خطبته الشهيرة مشيراً إلى حالة الجوع إلى الأرض التى باتت أوربا الغربية تعانى منها عشية الحروب الصليبية . ذلك أن غروب شمس القرن الحادى عشر جاء متوافقاً مع تثبيت حدود الدوقيات والكونتيات الإقطاعية فى فرنسا ، وقيام نمط بدائى من التوازن السياسى فيما بينها . وهو ما كان يعنى بالضرورة أن فرصة الأمراء الإقطاعيين للغزو داخل أرض الوطن باتت ضئيلة بالفعل ، ومن ثم فإن اشتراكهم فى الحروب الصليبية كان فرصة مناسبة لتحقيق طموحاتهم .

لقد كان كثيرون من فرسان الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر يتوقون إلى المغامرة فى الخارج ، وجاءت الحرب الصليبية لتروى ظمأهم وتعطشهم إلى الحرب والمغامرة . وثمة أسماء كثيرة من الأسماء البارزة فى تاريخ الحملة الأولى تكشف عن مدى صدق هذه المقولة ، ومنهم ريمون أمير تولوز ، وجودفرى أمير اللورين . وكان من الواضح أن مثل أولئك الفرسان سوف يستجيبون لأية دعوة توجهها البابوية لشن حرب مقدسة ضد المسلمين من أجل استعادة الأراضى المقدسة ، إذ كان ذلك يكفل لهم الستار الدينى المناسب لإرضاء نزعاتهم العدوانية . ومن ناحية أخرى ، كان بعض الأمراء الذين شاركوا فى الحملة الصليبية يبحثون عن فرصة يحرزون فيها نصرا عسكرياً يعيد لهم الهيبة التى فقدوها فى أوطانهم .

وقد وجد البعض في الحروب الصليبية فرصة للهروب من العدالة ، ذلك أن اشتراكهم فى مثل هذه "الحرب المقدسة" كان سيعفيهم من العقوبة التى يستحقونها جزاء ما اقترفوه من جرائم .

أما النورمان فى إيطاليا فقد تحركوا للمشاركة فى الحملة الصليبية بدافع من كراهيتهم العميقة للإمبراطورية البيزنطية ، ورغبة فى انتزاع الممتلكات لأنفسهم على حسابها . فقد كان النورمان يرون فى الحرب الصليبية عملا عسكريا موجها ضد البيزنطيين أكثر منها حربا ضد المسلمين . وكان بوهيموند ، أبرز قادتهم ، قد قام فى وقت سابق بحملة ضد الدولة البيزنطية بالفعل ، وعلى الرغم من فشل مغامرته هذه ، فإنه رأى في الحملة فرصة لمعاودة الهجوم على بيزنطة بتشجيع من البابوية .

وكانت المدن التجارية الإيطالية ، والبندقية وعلى وجه الخصوص ، من أشد المتحمسين لفكرة الحرب المقدسة ضد المسلمين ، بيد أن سبب هذه الحماسة لم يكن دينيا وإنما كان اقتصادياً . ذلك أن هذه المدن التجارية رأت فى الحرب فرصة ذهبية لتدعيم وجودها التجارى فى عالم البحر المتوسط . بل إن البنادقة كانوا يأملون فى الحصول على موانىء على الشاطىء الشرقى للبحر المتوسط إذا ما نجحت الحملة . وقد حدث بالفعل أن نال البنادقة مكافأتهم حين عهد الصليبيون إليهم بنقل المؤن ، ومنحوهم الامتيازات الجمركية فى الأراضى التى استولوا عليها .

أما صدى الدعوة إلى الحرب المقدسة على الصعيد الشعبى ، فكان مثيراً حقاً . وفى تصورنا أنه فى مجتمع له ظروف الغرب الأوربى فى القرن الحادى عشر ، حيث تسود مظاهر الجهل وتتفشى الأمية ، وحيث تختلط المفاهيم الدينية بالخرافات والخزعبلات ، كان لابد أن تكون الاستجابة لمثل هذه الحرب قوية، بل وهستيرية ، وهو ما حدث بالفعل . وفى هذا الجو تشيع أنباء عديدة عن الرؤى والأحلام المقدسة ، ويكتسب المشعوذون والمبشرون الجوالون ، من أمثال بطرس الناسك ، مكانة هائلة فى نفوس بسطاء الناس . لقد كان بطرس وأمثاله تجسيداً لحالة الهلع التى حكمت المجتمع الغربى مع اقتراب الألف الأولى بعد المسيح من نهايتها ، وتوقع الناس ليوم القيامة وفقاً للمفاهيم التى أرساها أوغسطين وغيره عن عمرالعالم . فقد تفشت بين الناس آنذاك حركة تدعوهم إلى التكفير عن ذنوبهم ، والبعد عن الدنيا وزخارفها ، والتشبه بحال الزهد والتقشف التى عاشها الحواريون . وفى غمار هذه النوبة كان لابد للدعوة إلى الحرب المقدسة أن تلاقى مثل هذه الاستجابة المحمومة .

ويقول مؤرخ الحروب الصليبية الشهير ستيفن رنسيمان : إن النجاح الغريب الذى حظيت به الدعوة إلى الحروب الصليبية يمكن أن يفسر فى ضوء حياة الفلاحين فى شمال غرب أوربا التى كانت حياة عابسة وغير آمنة . فقد خربت مساحات كبيرة من الأرض الصالحة للزراعة أثناء الغزوات الجرمانية وغارات الفيكنج التى تلتها ، إذ تهدمت الجسور وفاضت مياه البحر ومياه الأنهار لتغطى الأراضى الزراعية . وغالبا ما كان السادة الإقطاعيون يعارضون محاولة إزالة الغابات والزراعة مكانها ، لأنهم كانوا يمارسون رياضة الصيد فى هذه الغابات كما أن القرية التى لم تكن تحت حماية أحد النبلاء الإقطاعيين غالبا ما كانت تتعرض للسلب والنهب ، أو حتى الحرق على أيدى عصابات الخارجين على القانون ، أو على أيدى المحاربين فى أثناء الحروب الإقطاعية . وعلى الرغم من أن الكنيسة حاولت أن تلعب دورا فى حماية الفلاحين المساكين ، فإن ما قدمته فى هذا المجال لم يكن على أية درجة من الفعالية والأهمية . ومن ناحية أخرى ساهمت الكوارث الطبيعية فى زيادة المساحات القاتمة الحزينة فى الصورة ، فالفيضانات التى حدثت سنة ١٠٩٤ ، والمجاعات التى أعقبتها جعلت الحياة شبه مستحيلة .

هكذا ، إذن ، لعبت الظروف الاجتماعية والاقتصادية دورها فى الاستجابة السريعة المذهلة للدعوة التى وجهها البابا إلى الجماهير الأوربية . لقد كانت جموع الفلاحين المطحونين فى مجتمع يستولى على نتاج عملهم فى الحقول ، ويتركهم فى مستوى معيشى أدنى من حيوانات الحقل هم أول من استجاب لدعوة أوربان الثانى فى كليرمونت . لقد كانت استجابة نبلاء الغرب لهذه الدعوة متوقعة إلى حد ما ، ولكن الذى لم يكن متوقعا هو الذى حدث على الصعيد الشعبى .

وعلى أية حال ، فإن البابوية سرعان ما أصدرت مرسوماً عاماً بالغفران لكل من يشارك في الحرب المقدسة ويحج إلى بيت المقدس . ثم أعلنت البابوية أنها سوف تتولى حماية أملاك المشاركين فى هذه الحملة .

وهكذا بدأت الحروب الصليبية . وهنا ينبغى أن نشير إلى أن هذه الحروب كانت تعبيراً عن موقف جديد تماماً للكنيسة من قضية الحرب . لقد كانت الحروب الصليبية حربا بدأتها الكنيسة لا الدولة . ولم يكن المشاركون فيها يأتمرون بأمر حاكم أو أمير علمانى ، وانما كانوا يتطوعون لحمل شارة الصليب . لقد كانت الحروب الصليبية علامة على عسكرة المسيحية ، وتجلى ذلك واضحاً فى حقيقة أنه كان يمكن لرجال الدين أن يحاربوا دون أن يتحملوا تبعات التوبة . حقيقة أن الحملات الصليبية التالية جاءت تحت قيادة الملوك والأمراء العلمانيين ،

ولكن الحملة الأولى كانت من عمل البابا ، على الرغم من أن الأمراء حملوا شارة الصليب استجابة لدعوته .

وهكذا ، خرجت فكرة الحرب المقدسة إلى حيز التنفيذ ، وكان الإصلاح الكنسى الذى قادته الأديرة الكلونية ، والسياسة البابوية ، ونظرية الحرب المقدسة التى تطورت ، منذ فكرة القديس أوغسطين عن الحرب العادلة ، حتى صارت أمراً يجلب مرضاة الرب ، هى الخلفية التى استندت اليها خطبة أوربان الثانى فى كليرمونت ١٠٩٥ . وهذه العناصر هى التى شكلت الروح التى دفعت الجهود الدعائية التى ساهمت فى تشكيل الجيوش التى توجهت إلى فلسطين، كما كانت الروح هى القوة الدافعة لحملة الفلاحين أو الحملة الشعبية . لقد كانت الفكرة الصليبية نتاجا لتفاعل القوى التى لبت نداء البابوية فى كليرمونت ، ثم خبرات أولئك الذين شاركوا فى الحملة الأولى بالفعل .

والحقيقة عندى أن فكرة الحملة الصليبية قد ولدت فى أذهان الذين عايشوا أحداثها بالفعل، ومن ثم فإننا يجب أن نتوخى الحذر ونحن نستخدم مصطلح "الحملة الصليبية الأولى". ذلك أن صياغة فكرة الحملة الصليبية ، كمثال ونموذج ، قد تمت من خلال تجربة الحملة الأولى وخرجت من طياتها لتخلق نموذجا ثابتا فى أذهان الدعاة إلى الحملات الصليبية التالية .

وعلى مدى قرنين تقريبا ، منذ ١٠٩٦ حتى ١٢٩١ ، توالت على شاطىء المتوسط الشرقى موجات عديدة من الأوربيين ، فقد جاءوا بعشرات الألوف ، زرافات ووحداناً ، من الحجاج والأفراد المسلحين ، والمجموعات العسكرية الصغيرة بقيادة الأمراء الاقطاعيين ، والجيوش الكبيرة التى يقودها أكبر حكام أوربا آنذاك . وهو مايعنى أن الحملات الصليبية السبع الشهيرات لاتعبر عن واقع الحال ، إذ كانت الحملات الصليبية فى حقيقة الأمر أكثر من مجرد هذه الموجات التى كانت تضرب من حين لآخر على شاطىء فلسطين ، وإنما كانت بمثابة تقاطر مستمر من الحجاج ، والمحاربين والقراصنة والنبلاء الجوعى للأرض ، الذين اتخذوا من الشرق العجيب مقصدا لهم .

إن "الحروب الصليبية" بمقدماتها ونتائجها ، تقدم لمن يهتم بدراسة التاريخ مثالاً فريداً عن مدى ما يمكن أن ينتج عن التغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية من استجابات . ففى أوربا الغربية كانت دعوة أوربان الثانى تطرح أمام المجتمع الذى مزقه الخلاف وأرهقته المشكلات هدفاً عاماً يمكن لهذا المجتمع أن يعبر عن نفسه من خلاله . أما فى الشرق ، الذى تعرض للعدوان ، فقد كانت الاستجابة لهذه الحركة مختلفة تماماً ، فمن مرحلة

التشتت والركود ، وعدم الوعى بحقيقة الغزوة الصليبية فى بداية الأمر ، مما مكن للانتصارات الأولى للصليبيين ، انتقل المجتمع الإسلامى من مرحلة التقهقر إلى المقاومة ، ثم الهجوم المضاد الذى انتهى بتدمير الجسم الغريب على تراب الأرض العربية بعد حوالى قرنين من الزمان ... وتلك قصة تستحق أن تروى وحدها .

وقد احتلت قصة الحروب الصليبية حيزا كبيرا من اهتمام المؤرخين والباحثين . وانكب منهم عشرات يفتشون بين غبار المعارك ، وأشلاء الضحايا وأنات الجرحى والمهزومين عن أجزاء الصورة التى يريدون استردادها من ذمة التاريخ . وأخرجت المطابع سيلا من البحوث والمؤلفات تدور جميعها حول موضوع واحد هو : "الحروب الصليبية" . لقد اهتم الغرب بقصة هذه الحروب التى اتخذت الصليب شعاراً ، والقدس هدفاً ، وفى ظل الشعار والهدف ارتكبت أبشع ما يمكن للبشر أن يتخيلوه ، حتى بمقاييس العصور الوسطى التى اشتهرت بالقسوة وقلة الاهتمام بالجوانب الإنسانية فى الحروب . وعلى الرغم من إدانة كثيرين من الباحثين الغربيين "للحروب الصليبية" فان هذه الادانة ، فى رأينا ، نابعة من حقيقة أن الحروب الصليبية قد فشلت فى أن تحقق شيئا وإن كانت فصولها الرئيسية قد دارت على مدى مايقرب من قرنين من الزمان . بل إن من هؤلاء الباحثين من يرى أن الحملات الصليبية قد خرجت لكى تسترد الأرض المقدسة من المسلمين أولا ، ثم تحاول الاحتفاظ بها هى والأراضى الأخرى المجاورة لها باعتبارها أراض مسيحية . بيد أن هذا لاينفى وجود بعض المؤرخين الذين جعلوا البحث العلمى والتعرف على الحقيقة أيا كانت هدفا ينبغى الوصول إليه .

أما فى الشرق وفى الوطن العربى بصفة خاصة ، فإن الدراسات الحقيقية لهذه الحركة ماتزال قليلة إلى حد الندرة . وعلى الرغم من أن كثيرا من الكتب والبحوث قد خرجت تتحدث عن "الحروب الصليبية" فإن معظمها للأسف توقف عند حد رواية الأحداث بطريقة قصصة سردية . أما الدراسات التى حاولت الغوص فى أعماق الظاهرة التاريخية وتحليلها بالطريقة التى تتفق مع كوننا الطرف الذى وقع عليه العدوان ، وكان عليه أن يتصدى للمعتدين على مدى قرنين من الزمان استنفذت كثيراً من موارده وجهوده المادية والحضارية ، فقد كانت دراسات قليلة بالفعل .

وإذا ما تأملنا حالنا اليوم ، ونحن نواجه الهجمة الصهيونية المدعومة من العالم الغربى على نحو خاص ، ادركنا مدى حاجتنا إلى المزيد من الدراسات التى تكشف لنا عن جوانب عدوان الأمس علنا نستهدى التجربة ونحن نواجه عدوان اليوم . وعلى الرغم من أننا نؤمن بشكل قاطع أن التاريخ لايعيد نفسه ، فإننا نرى أن ثمة من الحوادث التاريخية المتشابهة من

حيث الدوافع والنتائج ما يعيننا على تلمس الطريق السوى . ونحن نرى أن ثمة جوانب كثيرة متشابهة - وليست متطابقة - بين الحركة الصليبية والحركة الصهونية ، ومن ثم فانه يصبح واجبا علينا أن نتصدى بالدراسات المقارنة فى سبيل كشف الأبعاد الحقيقية لكل منهما . وعسى الله أن يوفقنا إلى عمل من هذا النمط .

على أية حال ، فإن الكتاب الذى نقدمه فى ترجمته العربية ، دليل على أن الاسرائيليين ينظرون إلى الحركة الصليبية نظرة تختلف تماما عن نظرة كل من الغرب المسيحى والشرق المسلم ، فهم يبحثون لأنفسهم عن دور فى هذه المواجهة الطويلة بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى محاولين تأكيد وجودهم التاريخى المستمر فى المنطقة من ناحية ، والتعرف على جوانب الفشل والإخفاق التى قضت على الوجود الصليبى فوق ذات الأرض التى زرعوا فيها الكيان الإسرائيلى من ناحية أخرى .

ولمؤلف هذا الكتاب كتاب آخر صدر باللغة العبرية وله ترجمة إنجليزية وأخرى فرنسية وترجمة عنوانه : "المملكة اللاتينية فى بيت المقدس" . ومن الطبيعى أن هذين الكتابين ليسا الوحيدين فى هذا الموضوع من أعمال المؤرخين والباحثين الإسرائيليين ، ونأمل أن نقدم فى المستقبل - إن شاء الله - دراسة بيبلوجرافية وهستوريوجرافية حول هذا الموضوع . أما المؤلف فهو الاستاذ يوشع براور أستاذ تاريخ العصور الوسطى فى الجامعة العبرية فى القدس . والكتاب الذى نقدمه للقارىء العربى ، والذى يحمل عنوان " عالم الصليبيين" لايتعرض لتفاصيل الحروب والمعارك وحالات الحصار ونصوص المعاهدات ، وإنما يهتم بدراسة الجوانب المختلفة للوجود الصليبى . وفى تصورنا أن هذا الكتاب تعبير صادق عن الرؤية الإسرائيلية للحروب الصليبية . وأن هذا هو ما يجعل الكتاب هاما بالنسبة للقارئ العربى لاسيما وأن هناك تشابها بين الكيان الصليبى والكيان الصهيونى مع تسليمنا بوجود الاختلافات أيضا . ولسنا نقصد فى هذه المقدمة أن نتعرض للكتاب بالنقد حتى لايقع القارئ فى شباك الفكرة المسبقة ، بل إننا نترك القارئ مع النص . كما أننا توخينا أن نقلل من تعليقاتنا على النص فى الهوامش قدر المستطاع على اعتبار أن التعقيب سوف يتضمنها .

وأخيرا فاننا لن نشير إلى مشاق الترجمة ، فذلك أمر نراه طبيعيا ، ولكننا نرجو أن نكون قد وفقنا فى نقل هذا النص الإنجليزى إلى العربية بشكل مفيد ويفى بالغرض ،

والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

ثلاث امبراطوريات وأربع دعاوى

"وقال الله ليعقوب أنا الله القدير أثمر وأكثر أمة وجماعة أمم تكون منك ، وملوك سيخرجون من صلبك ، والأرض التى أعطيت إبراهيم وإسحق لك أعطيها ولنسلك من بعدك أعطى الأرض" (سفر التكوين ٣٥ : ١١-١٢) .

لقد ظلت أقدار البلاد والأمم والأديان والإمبراطوريات على مدى ثلاثة آلاف سنة مرتبطة بالوعد العظيم المدون فى الكتب المقدسة ، إذ تأثرت ملايين لاتحصى من البشر بكلمات العناية الالهية التى تلقاها يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم ، الذين هم الآباء الإسرائيليون . وقد صار مفهوم الأرض الموعودة عقيدة أساسية فى ديانة اسرائيل ومحوراً لآمالها فى الزمن الغابر ، بل كان من المقدر لهذا المفهوم أن يصبح جزءاً أساسياً فى جميع الثقافات التى قبلت الكتب المقدسة لليهودية أو التى ارتبطت بالديانة الإسرائيلية برباط ما .

وقد حملت الديانة المسيحية ، التى شهدت تمام نبوات الخلاص بقيام عيسى المسيح ، هذه الكتب المقدسة وما سجلته عن الوحى عبر البحر المتوسط إلى روما عاصمة الإمبراطورية الوثنية . وسقطت الإمبراطورية ، ولكن الدين الجديد كان قد غزاها من الداخل ، وهو غزو أكثر ثباتاً من أى من الفتوحات العابرة التى قام بها زعماء الجرمان وغيرهم من البرابرة الذين طرقوا أبواب العاصمة الرومانية . وانتشرت المسيحية بين القبائل التى اتخذت من أطلال الإمبراطورية الكبيرة معسكرات لها .

لقد كانت المسيحية أكثر من مجرد ديانة ، إذ أنها كانت ثقافة وحضارة امتزجت فيها أثينا وروما مع أورشليم ، ولم يرث الإنسان المسيحى الفكر الكونى فقط وقصة الإله الذى أصبح إنسانا فى سبيل خلاص البشرية ، وإنما ورث أيضا تراث أمة مختارة كما ورث أحداث تاريخها وأنبيائها الذين هم أعظم المعلمين لأسمى أخلاق عرفتها البشرية . ومن خلال قصة العبريين - الشعب المختار الذى فقد امتيازه برفضه للمسيح المخلص - تعلم المسيحى كيف ينظر إلى نفسه باعتباره وريثا لدعاوى العبريين وامتيازاتهم ، إذ أن العهد الجديد قد صدر عن العهد القديم ، وصارت وصايا العهد القديم التى تعود إلى ذلك الزمان الذى كانت البشرية فيه تعيش فى ظل الناموس ، محطا للنسيان والإهمال .

أما روايات الكتاب المقدس التاريخية ، بواقعها الجغرافى المحسوس ، فقد تم تناسخها وتحولها إلى العالم الروحى المعنوى ، فأورشليم عاصمة المملكة القديمة تحولت إلى أورشليم السماء . وباتت مملكة داود رمزاً لعالم عصر الخلاص الذى سوف يأتى . وبينما ظلت بيت لحم

والناصرة أماكن البشارة والميلاد ، كانت أورشليم ذاتها بما تشمله من طريق الآلام، وجبل الزيتون ، وقبر المسيح أكثر من مجرد نقطة على خريطة عالم الله الهائل المنبسط . وهكذا أصبحت الأرض المقدسة ، والأماكن التى شهدت معجزات المسيح وآلامه أماكن حقيقية فى الوجدان المسيحى . ولم يكن هناك فى عالم المسيحية من لايعرف أسماء أقاليم يهوذا والجليل الثانية .

وكانت تعاليم المسيح واحدة ومشتركة فى جميع أنحاء العالم المسيحى ، بيد أنه نظرا لعدم وجود سلطة فى ممالك الغرب شبه البربرية تستطيع أن تترجم المزاعم المسيحية الخاصة بالأرض المقدسة إلى مفاهيم سياسية كان الموقف فى الشرق المسيحى مختلفا حيث كانت بيزنطة قد خلدت عظمة روما ، وجلال الامبراطورية المسيحية . ومع طلوع شمس القرن السابع بدأ الروم- كما كان يطلق عليهم جيرانهم المسلمون - حملة عظيمة ضد الفرس واستعادوا الصليب المقدس من الأسر الساسانى . وبعد جيل واحد (حوالى سنة ٦٠٠م) انتزع الفرسان العرب كل الشاطئ الجنوبى للبحر المتوسط بما فيه بلاد الشام وفلسطين . وظهر أن القسطنطينة نفسها الشرقى ستختفى فى طيات موجات الطوفان الإسلامى . ولكن بيزنطة نجت بنفسها واستمر الحكم البيزنطى على البلقان وآسيا الصغرى .

وكان إمبراطور بيزنطة مسئولا عن الدفاع عن العالم المسيحى والعمل على مد رقعته باعتباره زعيما للإمبراطورية المسيحية وحامى حمى المسيحية الأرثوذكسية . وكان هذا الدور الذى يلعبه الإمبراطور من لوازم لقبه ، كما كان جزءا من تراثه كخليفة للإمبراطور المسيحى الأول قنسطنطين الكبير ، والإمبراطور هرقل منقذ الصليب . وفى القرن العاشر شن الإمبراطور فوكاس (فوقس) Phacas ، وحنا الأول تزمسكيس (الشمشقيق) John I Zmisces حملات عسكرية ضد المسلمين فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين . وقد حدث هذا فى عامى ٩٦٤-٩٦٥ ، ٩٧٤-٩٧٥ على التوالى . وقد وصلت هذه الحملات إلى أعتاب القدس ، وأرسل الإمبراطور فوكاس (فوقس) رسالة يحذر فيها الخليفة العباسى بقوله : "أنت يا من تعيش فوق رمال الصحارى .. خذ حذرك وعد أدراجك إلى صنعاء ، إذ أننى سرعان ما أهزم مصر وتصبح ثرواتها أسلابا لى . ولسوف أتحرك إلى مكة على رأس جماهير المقاتلين الذين يشبهون فى كثرتهم جحافل الظلام ، ولسوف أستولى على هذه المدينة لكى أقيم بها عرش الرب ، ثم أتوجه إلى أورشليم لأقهر الشرق والغرب ، وأقيم رمز الصليب فى كل مكانٍ .

لقد كانت مزاعم خلفاء الأباطرة البيزنطيين قائمة على أساس من قوة التاريخ وحق الدين ، وإذ فشلت القوة العسكرية فى حسم الأمر ، تم تعديل المزاعم البيزنطية فى الأرض المقدسة

لكى تتناسب مع الظروف السياسية والدينية السائدة آنذاك ، صار إمبراطور الشرق هو المدافع الرسمى عن المواطنين المسيحيين فى الأراضى الخاضعة لسيادة المسلمين . وكان دوره فى الحقيقة قاصرا على حماية الكنيسة البيزنطية . وكانت تلك مصالحة مؤقتة قبلها الحكام المسلمون . وبينما كان المبدأ العملى هو السائد مما سهل عملية التوسع السياسى ، فإن مزاعم الإمبراطورية البيزنطية فى الأرض المقدسة ظلت طيلة تاريخ الإمبراطورية سلاحا مشرعا ضد المسلمين والصليبيين على السواء .

وفى الوقت نفسه كان العالم المسيحى الغربى يطور أطره الاجتماعية والسياسية الخاصة به، إذ بدأت تظهر كيانات سياسية جديدة نشأت عن الغزوات الجرمانية لأوربا الغربية ، وصار تراث روما جزءا لايتجزأ من الكنيسة حيث وجدت مفاخر العالم الكلاسيكى ملاذها الأخير ، ولم يكن هناك وريث لروما الإمبراطورية حتى عصر شارلمان (٨٠٠م) الذى وجد أقاليم الغال وألمانيا وإيطاليا تحت حكمه ، فقد أعادت قوته العسكرية وضرباته ضد السكسون الوثنيين ، وفى بوهيميا وبانونيا ، فضلا عن حروبه ضد أسبانيا المسلمة ، بناء الإمبراطورية الغربية ، كما أنها كانت فى الوقت نفسه حروباً ضد الكفار . وقد وسعت حروبه ضد الوثنيين والمسلمين والشماليين والسلاف والآفار حدود سيادته السياسية ، كما أنها وسعت من حدود الأمة المسيحية ، وأدت إلى انتشار الدين المسيحى . وقد استمر الشعور بهذا الجانب من حملات الإمبراطور الكبير على مدى عدة قرون ، وظلت انشودة رولان ، وهى ذات أساس تاريخى ، ورحلة شارلمان إلى الشرق - وهى من الروايات الخيالية التى شاعت فى القرن الحادى عشر وتحمل بصمات أسطورية - براهين أو شهادات شعبية تدل على المواجهة بين الإمبراطور والكفار المسلمين . وبعد ثلاثة قرون ، أى عندما كانت أوربا فى طريقها للاحتكاك بالمسلمين فى سوريا وفلسطين ، كانت صورة شارلمان العظيمة كرائد للحرب المقدسة لاتزال شامخة فى الوجدان الأوربى .

كانت مهمة الزعيم العلمانى للعالم المسيحى أن يدافع عن أمن بيت الله وأن يقوم بتوسيع حدود العالم المسيحى ، مع أن هذه المهمة لم تتخذ شكلاً رسمياً على الإطلاق . وهكذا كانت مزاعم الدفاع عن العالم المسيحى ، التى أنتجت المزاعم الصليبية فى نهاية الأمر ، مرتبطة بكل من الإمبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الرومانية المقدسة . ومع أفول شمس القرن الحادى عشر ، وفى ظل الاضطراب الناجم عن الصراع العلمانى حول تقليد رجال الدين وحين كانت الإمبراطورية والبابوية تتصارعان من أجل الزعامة تقدمت البابوية متعدية على امتيازات الإمبراطور وواجباته . والحقيقة أن البابا جريجورى السابع الكبير (هلدبراند) هو أول من أصدر الدعوة لمحاربة الكفار ، وكان ذلك قبل الحملة الصليبية الأولى بجيل كامل .

وكانت الدعوة البابوية معاصرة لحركات أخرى برزت فى أوربا الغربية . فقبل جريجورى السابع بجيلين ، أشرعت سفن جنوة وبيزا لقتال الكفار المتحصنين فى جزر البحر الأبيض المتوسط . وكان المسلمون قد استولوا فى القرن الثامن على جزر كورسيكا وسردينيا القريبة من القواعد الإسلامية . وقامت السفن الإيطالية التى كانت قد تمرست على القتال بهجومها على شواطئ البروفنسال وأسبانيا - بالهجوم على موانئ الجزر التى كانت قواعد للقرصنة ومراكز للسلطة . وصارت الجزيرتان مسيحيتين ، وبذلك كسبت المسيحية أول قواعدها البحرية خارج أرضها . ومن منتصف القرن الحادى عشر (حوالى ١٠٤٦م) مد الفرسان الفرنسيون يد المساعدة فى القتال ضد المسلمين فى شبه الجزيرة الأسبانية ، كما شن الكتلان القطالنيون والبروفنساليون هجومهم جنوبا وأحرزوا بعض التقدم حين استولوا على طليطلة سنة ١٠٨٥م . وسرعان ماتقدم الأسبان جنوباً منطلقين من الإمارات المسيحية الصغيرة فى جبال البرانس ، ونافارا وأرغونة ، وقشتالة ، وأخذوا يطردون المسلمين من أجزاء شبه الجزيرة الشمالية . وقد أطلق على هذه الحركة فى وقت لاحق اسم حركة الاسترداد Reconquista أى استرداد الأراضى التى كانت قد فقدت منذ أربعة قرون عندما دمر الغزاة المسلمون مملكة القوط الغربيين المسيحية . وهكذا كان العالم المسيحى الغربى يقاتل المسلمين لاستعادة الأراضى المفقودة ، وكان القتال يدور عبر البحر المتوسط من أسبانيا غربا إلى سردينيا وكورسيكا ثم إلى مالطة فى الوسط . وداخل هذا المنظور التاريخى كانت الحروب الصليبية فى الأرض المقدسة بمثابة الامتداد الشرقى لحروب الاسترداد المسيحية .

ومع الحرب الصليبية الأولى كانت المزاعم المسيحية سواء تلك التى كان يمثلها البابا أو الإمبراطور فى الشرق أو فى الغرب ، تقابلها على الناحية الأخرى المطالب الإسلامية بل والحكم الإسلامى . ففى أقل من خمسة عشر عاما بعد هجرة محمد من مكة إلى المدينة (٦٢٢م) دخل المقاتلون المسلمون القادمون من الجزيرة العربية فلسطين وسوريا وآسيا الوسطى فى الشمال ، كما فتحوا مصر وشمال أفريقيا فى الغرب . وفى أول هجوم كبير صوب الشمال سقطت فلسطين وسوريا ، وصارت دمشق عاصمة الدولة الأموية بعد ذلك بفترة . وقد ورثت الديانة الإسلامية - التى اعتبرت نفسها آخر وحى إلهى - اليهودية والمسيحية . وهو الأمر الذى أنقذ الأماكن المقدسة فى فلسطين من الدمار الشامل . وصار المسيحيون واليهود - باعتبارهم أهل كتاب - مميزين عن الوثنيين والزراد شتيين ، مواطنين فى الدولة الإسلامية ، أو أهل ذمة حسب المصطلح الشرعى الإسلامى . وثمة رواية تحكى أن الخليفة عمر بن

الخطاب- الذى سلمت له القدس على يد بطريركها البيزنطى وفق شروط متفق عليها - لم يؤد الصلاة عند قبر المسيح فى محاولة واعية لتجنب خلق سابقة ربما تضر بالمسيحيين فيما بعد . واتخذ عمر من المسجد المجاور لقبر المسيح مكانا للصلاة (العمرية) . ولكن الفاتح المسلم لم يقنع بترك الأمر عند هذا الحد .ويروى القرآن كيف أن محمدا بعد رحلة ليلية إعجازية وصل على البراق ، المطية الخرافية ، إلى المسجد الأقصى ، وهو المعبد الخارجى مما أضفى قداسة على المدينة . وعندما وصل عمر بن الخطاب إلى القدس طلب أن يرى هيكل الملك العظيم سليمان ، وانتابه الفزع عندما وجد أن المنطقة التى كانت هى المعبد اليهودى الكبير ليست سوى مقلب أتربة ، وهذا شاهد أثرى يرتبط ببيزنطة ويكشف عن انتصار المسيحية على اليهودية . فأصدر أوامره فى الحال بتنظيف المنطقة وشيد أول مسجد فى المنطقة هو المسجد الأقصى وكان عبارة عن بناء خشبى متواضع . وبعد مائة وخمسين سنة ، وفى قلب المنطقة المقدسة شيد الخليفة عبد الملك الحرم الشريف ، وقبة الصخرة الجميلة التى كانت تواجه المسجد الأقصى عند الساحة .

ولقرنين من الزمان بعد الفتح الإسلامى لم تلعب القدس سوى دور ثانوى فى المنظور الدينى للإسلام . فالحج ، وهو فرض على كل مسلم ، كان موجها إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة[١] ، ولكن مكانة القدس كانت آخذة فى الارتقاء. ففى القرن الثامن ، وعندما بات الطريق إلى مكة صعباً بسبب المشكلات السياسية اعتبرت زيارة بيت المقدس بمثابة الحج ، وبلغت مكانة تقرب من الحج إلى مدن الحجاز المقدسة . وقد سعى الخلفاء وولاتهم المحليون إلى تحويل أورشليم البيزنطية إلى مركز إسلامى. وبدأ التسامح تجاه غير المسلمين يقل فى ظل حكم الخليفة هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) ، وتأرجحت السياسة الرسمية بعد ذلك بين التسامح والضغط من أجل اعتناق الاسلام . وبلغت المراسيم التى فرضت على غير المسلمين زيا مميزا وعلامات مهينة كالصلبان الخشبية الضخمة للمسيحيين والأجراس لليهود ، فى تطورها إلى حد تدمير الكنائس والمعابد[٢]. ففى سنة ١٠١٢ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله ، حاكم مصر

---

(١) الحج من أركان الإسلام ، ولكن لمن استطاع إليه سبيلا . فقد جاء فى القرآن الكريم (ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا) . والحج مفروض إلى مكة فقط ، ولكن زيارة المدينة إنما تتم لزيارة قبر الرسول عليه الصلاة والسلام . (المترجمان)

(٢) الحقيقة أن هذا التعميم فيه قدر كبير من المبالغة والمغالطة ، فإن الحالة الفردية الشاذة التى شهدها عصر الحاكم بأمر الله الذى شملت أفعاله المسلمين السنيين ، كما عانى الناس العاديون من شذوذ أوامره ، =

الفاطمى شبه المجنون بتدمير الأماكن المقدسة المسيحية واليهودية . ومع ذلك فإن القدس لم تصبح مسلمة تماما . ففى الربع الأخير من القرن العاشر ، أشار المقدسى الجغرافى الذى ولد فى القدس إلى أن اليد العليا فى موطنه للمسيحيين واليهود . وربما كان هذا هو الوضع السائد فى بيت لحم والناصرة . وفيما عدا هذه المدن الثلاث ، تحولت سوريا وفلسطين ، بعد أربعة قرون من السيادة الإسلامية إلى بلاد إسلامية تتحدث العربية . وبهذا أضاف الإسلام مطالبه فى الأرض المقدسة وأماكنها القدسية إلى قائمة المطالبين بها . وكان حق الإسلام يقوم على أساس السيادة والملكية الفعلية ، بيد أن هذا الحق سرعان ما أصبح يقدم على أساس من العقيدة والتفسير الدينى .

ولم يزل هناك مطالب آخر بالأرض المقدسة ، وهو مطالب لايملك قوات عسكرية ولا موارد إمبراطورية . ومع ذلك فهو أكثر المطالبين إصرارا وثباتا فى دعواه ، ألا وهو اليهودى الذى يعبر ثلاث مرات يوميا عن حنينه إلى الأرض المقدسة وعاصمتها وعن أمله فى العودة والخلاص .

ولم تكن دعواه حقا مكتسبا بالتقادم ، كما لم تكن دعوى قابلة للتحويل أو النقل . فقد ربط الدين الذى صان الأمة المشتتة على مدى أكثر من ألف سنة تحقيق نبوءة نهاية العالم ، بالنبوءة القائلة بجمع الشتات والعودة إلى الوطن . وعلى هذا الأساس نظر إلى كل حادثة كبيرة فى التاريخ وإلى كل اضطراب أو ثورة على أنها بشير بالخلاص القومى . وفى فلسفة الحشر اليهودية التى شاعت فى العصور الوسطى كانت بيزنطة تشبه بآدوم الشريرة ، كما كان سقوط بيزنطة فى أعين اليهود بمثابة بشائر التحرر . وعندما خرجت بيزنطة سالمة من صراعها مع الفرس . كان ظهور الإسلام (٦٢١) ثم ثورة العباسيين (٧٥٠) ، وانتصارات الأتراك السلاجقة (١٠٧١) مؤشرات على قرب الخلاص . ولكن كل أمل براق كان ينتهى إلى آمال محطمة وقلوب جريحة. ومع ذلك كان هناك شعور بأن العناية الآلهية ستحقق وعدها لإسرائيل فى أية لحظة قريبة .

وفى ظل الحكم البيزنطى ، فيما بين أواخر القرن الرابع وبداية القرن السابع ، صارت فلسطين غير يهودية فى أساسها ، إما نتيجة اعتناق المسيحية ، وإما بسبب هجرة اليهود إلى

= لايمكن التدليل بها على أن هذه هى الروح التى سادت فى العالم الإسلامى ضد غير المسلمين . بل إن الثابت أن العصر الفاطمى كان هو العصر الذهبى بالنسبة لليهود والمسيحيين .

انظر قاسم عبده قاسم ، أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى ، ص٢٣ – ص٦٢. (المترجم)

أراضى الشتات . واحتفلت بيزنطة بانتصار دينها بإصدار تشريعات معادية لليهود والتحريم الرسمى ضد اليهود القاطنين فى المدينة المقدسة . ومن ثم لم يكن أمام الحاج اليهودى المتدين إلا أن يتأمل المدينة وأكداس القمامة فى ساحة الهيكل . وهكذا كان اليهودي يردد صلواته فوق جبل الزيتون ويمزق ثيابه (كما يفعل الإنسان تدليلا على حزنه) ، كما كان يأمل فى أن يأتى زمان أفضل . وكان الغزو الفارسى لفلسطين سنة ٦١٤ هو ساعة الانتقام ، وشارك اليهود الثائرون فى الهجوم الذى خلف أورشليم حطاما . ولكن بيزنطة أعادت تثبيت أركان حكمها لمدة جيل آخر . وحرم على اليهودى دخول المدينة . وقد تمثل التعبير عن مدى كراهية اليهود عندما أصر صفرونيوس آخر بطريرك بيزنطى لأورشليم على أن يستمر المسلمون فى سياسة التحامل ويمنعوا اليهود من الاستقرار فى الأرض المقدسة .

وبصرف النظر من التحريم . فقد استقر بعض اليهود بالقرب من المسجد الأقصى كخدام لبيت المسلمين المقدس . وعندما ثبت وجودهم بدأ حى يهودى ينمو بقرب القصر الأموى . ومع زيادة عددهم نما حى آخر أكثر اتساعا فيما بين بوابة دمشق وبوابة يهوشفاط ، وسرعان ما انتقلت الأكاديمية الفلسطينية ، وهى المقر المبجل لحكماء اليهود ، من طبرية إلى القدس على الرغم من أن المركز الديموجرافى للحياة اليهودية كان فى العاصمة الإسلامية الجديدة فى الرحلة على ساحل البحر ، وظل كذلك حتى قدوم الصليبيين .

وهكذا ، ظلت الأرض المقدسة ، الأرض الموعودة لثلاثة أديان ، هى أرض المطالب الدائمة . وكان الحكم الفعلى للأقاليم فى وقت بعينه خاضعا لظروف تاريخية معينة ، ولكن مكانها فى قلوب البشر كان نتيجة لعواطفهم السامية ، ومع نهاية القرن الحادى عشر اجتمعت مجموعة فريدة من العوامل السياسية والثقافية والدينية لكى تحرك أحد المطالبين ، وهو العالم المسيحى الغربى ، لكى يترجم رابطته العاطفية بالأرض المقدسة إلى سيطرة سياسية . وكانت وسيلة تحقيق هذه الغاية غير المتوقعة هى أجرأ الحملات العسكرية فى التاريخ . وقد تبعتها حروب متتالية استمرت قرنين من الزمان ، وعرفت باسم الحروب الصليبية .

الحملة الصليبية

كليرمونت فى السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥

أوشكت زيارة البابا للمدينة الواقعة فى إقليم برجنديا بمملكة فرنسا على الانتهاء . وكان البابا أوربان الثانى Urban قد دعا إلى عقد مجمع كنسى لمناقشة سبل إصلاح الكنيسة الفرنسية التى قد تأثرت ، كغيرها ، بالتدخل العلمانى فى شئون الكنيسة وبالسيمونية أو المتاجرة فى الرتب الكهنوتية . أما الموضوع الثانى ، والذى لم يكن ليقل أهمية ، فهو أن فيليب الثانى ملك فرنسا من آل كابيه كان يعيش حياة الخطيئة مع امرأة رجل آخر- على الرغم من تحريم الكنيسة - مما اعتبر بمثابة فضيحة من أكبر فضائح العالم المسيحى آنذاك . وخلف الكواليس كانت تداعب البابا فكرة جديدة فى حملة صليبية لتحرير قبر المسيح من نير الإسلام.

هذه الفكرة كانت قد ظهرت منذ جيل مضى على يد البابا جريجورى السابع . إذ كان الضغط الإسلامى فى شبه جزيرة أيبيرا ، والغزوات الخطيرة التى قام بها الأتراك السلاجقة - الذين كانوا قد استولوا على بغداد سنة ١٠٥٥ - على املاك المسلمين فى سوريا وفلسطين ، وعلى أملاك البيزنطيين فى آسيا الصغرى .. كان كل هذا قد أدى إلى إدراك البابا للخطر الإسلامى الداهم ، فطلب مساعدة مسيحية لأسبانيا كما طالب بحملة صليبية لصد الأتراك الذين كانوا يهددون القسطنطينية . وفى سرحة من سرحات الخيال رأي جريجورى السابع نفسه قائدا لجيوش التحرير المتجهة صوب الشرق . وكان يرى أنه يمكن - فى حالة قيادة زعيم العالم المسيحى الغربى لجيش مسيحى ينقذ القسطنطينية من الكفار - أن تعلن البابوية سيادتها على أوربا الغربية المسيحية ، كما تتجسد مكانة البابا كمدافع عن العقيدة ، بدلا من الإمبراطور الذى كان هو المسئول عن هذا الدور دائما . وعلى الرغم من أن هذه الإشارة المدوية كانت حجة ظاهرية ، فإن مضمونها كان أكبر بكثير من مظهرها . فقد كان البابا يطمع فى أن تقوم الكنيسة الشرقية بالترضية المناسبة للبابا إذا ما قام بقيادة جيش ينقذ عاصمتها من الخطر الإسلامى ، وتعود علاقة كنيسة القسطنطينية بالبابوية إلى ما كانت عليه قبل أن تقطع كل منهما علاقتها الأخرى سنة ١٠٥٤ . وبدا وكأن التئام الشمل بعد الشقاق الدينى الكبير قد بات وشيكاً ، لاسيما وأن الاختلافات العقائدية بين الشرق والغرب لم تكن كبيرة . بيد أن هذه الخطة قد ذهبت أدراج رياح العاصفة التى صحبت المواجهة بين البابوية والإمبراطورية .

ومع ذلك وصلت فرقة من فرسان الغرب المدرعين إلى القسطنطينية . وفى سنة ١٠٩٤ أرسل الإمبراطور البيزنطى اليكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus سفارة مثلت أمام البابا فى پياتشنزا (فى إيطاليا) Piacenza عشية رحيله إلى كليرمون . وأثناء رحلة البابا إلى كليومون عبر جنوب فرنسا ، وهى المنطقة التى خبرت الحرب ضد الإسلام فى شبه جزيرة أيبيريا ، نضجت فكرة إنقاذ الشرق المسيحى ولكنها تأخرت فى تطورها . ومن فكرة انقاذ الشرق المسيحى ، الذى لم يكن يتهدده خطر حقيقى آنذاك ، نبتت فكرة تحرير القبر المقدس من نير الإسلام . وتضمنت الخطة الجديدة عناصر قديمة ، وإذ تحدد هذا الهدف تحول النداء البابوى إلى دعوة لشن حرب صليبية . لقد حلت القدس محل القسطنطينية ولكن العدو ظل كما هو : الأتراك الذين كانوا يحكمون آسيا الصغرى ويهددون القسطنطينية فضلا عن سيادتهم على المدينة المقدسة .

كان التحول إلى القدس يعنى ماهو أكثر من مجرد تغيير المقصد الجغرافى للحملة الصليبية بل إنه غير شكل هذه الحملة من مجرد فرقة من الفرسان المدرعين ترسل إلى الشرق إلى حملة جماهيرية صارت هى المحور الرئيسى الذى يدور حوله تاريخ أوربا والشرق الأدنى على مدى قرنين من الزمان . ولم يكن اسم القسطنطينية . وانما أسماء بيت المقدس ، والناصرة وبيت لحم هى التى خلقت حنينا مسيحانيا تفجر فى شكل حماسة دينية . ولم تكن أهداف البابوية الرئيسية - أى العلاقات مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، والإمبراطورية البيزنطية والكنيسة الشرقية المنشقة - تعنى شيئا بالنسبة للأفكار والعواطف التى كانت تجيش فى رؤوس الفرسان والفلاحين وفى صدورهم حين انضموا إلى الحملة الصليبية . لقد كانت استجابة أوربا الغربية حماسية قوية للأفكار والشعارات التى طرحت فى ذلك الحين ، مثل تحرير القدس، وتخليص قبر المخلص الذى تخيل البعض أنه رهين الأسر الإسلامى . وقدم البابا وعده بالغفران لكل من يشارك فى الحملة الصليبية ، وهكذا لحقت مفاهيم الحج والتوبة بمشروع جديد: حملة صليبية ذات هدف دينى . وكانت التوبة وأخطار الطريق هى الكفارة التى تفرضها الكنيسة على الآثم التائب . وقد اعتبر أوربان الثانى أن الحملة الصليبية تتساوى مع الحج فى طلب الغفران والتكفير عن الذنوب . وهكذا صار الاشتراك فى الحملة الصليبية بمثابة رحلة حج تكفيرية واستشهادية فى آن واحد . وقد صار مقصدها هو بيت المقدس ، وهدفها الصلاة عند مقبرة المخلص المحررة . ولم يكن أحد يتنبأ بنتاج الدعوة الصادرة من كليرمونت بما فى ذلك أوربان الثانى نفسه . ومن ثم فقد بات من المتوقع والمتصور أن يتم تنظيم حملة من الفرسان المدربين جيدا . ولكن ما حدث بالفعل فاق أقصى ما كان يمكن لإنسان أن يتصوره . فعلى

مدى عامين بدا وكأن أوربا بأسرها تتحرك فى خروج ثان عظيم إلى الأرض المقدسة . وليس بوسع المرء أن يحدد دافعا واحدا فى أمر يخص مئات الألوف من البشر ، ومع ذلك فانه لا يمكن أن يتطرق الشك إلى أن الدافع الدينى كان هو الدافع الرئيسى وراء الحركة الصليبية[1] ، فقد انضم الفرسان والأمراء إلى الحركة وفاء بالتزاماتهم فى حكومة العالم المسيحى ، كما بحث سكان المدن والفلاحون عن خلاصهم فى هذه الحركة . ومع ذلك لم يكن أحد منهم بغافل عن سحر الشرق وأعاجيبه ، وهو ما يعنى أن القدس السماوية قد اختلطت بالأرضية ، كما امتزجت المطامح الروحية والمادية للناس . فبعد صدور النداء بشهور قليلة وصل المد إلى كل ركن فى العالم المسيحى . وكانت القلة المشاركة فى مجمع كليرمونت هم أول من نقل الخبر . وفى وقت وجيز صار التنظيم الكنسي - الذى كان أعظم هيئات عصره من حيث الكفاءة والدقة - هو الوسيلة الدعائية للهدف الجديد . فقد انتشرت دعوة كليرمونت من خلال الكنيسة والدين لتصل إلى كل قلعة وقرية ، فأثارت الخيال وباتت موضوعا للحديث وخلقت مناخا للرأى العام تحول فيما بعد إلى عامل رئيسى فى تاريخ الحركة الصليبية . وأخذ النقاش يدور بين أرباب القلاع وأفصالهم وأتباعهم . وبدأ الأمراء يفتشون عن وسائل تمويل الحملة . ومن قمم المجتمع هذه تسربت الأنباء إلى مساكن الفلاحين المتواضعة ، وإلى المساكن المزدحمة فى المدن النامية . لقد داعبت خيال التابع الإقطاعى الشاب والعازب أحلام عن أعاجيب الشرق والثراء والقصور وجمال الحريم . ويتطلع أبناء الأسر النبيلة من الشباب ، الذين يمثلون الدماء الجديدة إلى الشرق باعتباره الأرض الموعودة التى يلتقون على ترابها مع أقدارهم . ومع ذلك كانت نزوة المغامرة ، والأمل فى المكافأة المادية تحتل مكانة ثانوية لدى النبلاء والأشراف، فقد كان رجال العصور الوسطى رجالا متدينين أساسا ، وكثيرا ما كانوا من السذاجة بحيث يعتقدون فى الخرافات . وكانت الرواية المقدسة تشكل جزءا لايتجزأ من تربيتهم بصرف النظر عن معرفتهم الخاصة بعقائد الدين . ولم يكن العشاء الربانى والاعتراف والقديسون ومآثرهم والأعياد الكبيرة المبجلة فى التقويم المسيحى مجرد طقوس دينية، وإنما كانت جزءا من أسلوب

---

(١) الحقيقة أننا لانستطيع أن نوافق المؤلف على رأيه هذا ، حقيقة أنه يبدو للوهلة الأولى أن الدافع الدينى كان هو العامل الأساسى ولكن البحث المتأنى فى أحوال الغرب الأوربى آنذاك يكشف عن الخلفية الحقيقية للحركة الصليبية والتى كانت مزيجا من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والفكرية ، والدوافع الشخصية . وفى تصورنا أنه يكون من الأوفق أن نقول إن هذه العوامل والدوافع قد عبرت عن نفسها تحت رداء الدين الذى تسربل به ذلك العصر - انظر مقدمتنا لهذه الترجمة . (المترجمان)

حياتهم . ولم تكن الاستجابة لنداء تحرير قبر المخلص - والذى دعمته القصص المتداولة ، والتى لا أساس لها من الصحة ، عن تدنيس الأماكن المقدسة - تعتبر فقط واجبا على المسيحى النبيل ، بل كانت أيضا جزءا من التزاماته الفروسية وواجب التابع الاقطاعى فى الدفاع عن سيده وتحريره من أسره الفظيع فى نير الكافر الدنس . وهكذا امتزجت التقوى التى تشكل أساس ذلك العصر الدينى ، بالأفكار النامية للفروسية ، وهو ما أدى إلى استجابة نبلاء الغرب لتوسلات البابا من أجل شن حملة صليبية .

لقد كانت استجابة نبلاء الغرب متوقعة إلى حد ما ، ولكن أحدا لم يكن ليتنبأ برد فعل الجماهير . فقد اجتمع مؤتمر كليرمونت فى نهاية نوفمبر ، وحين كان الفلاحون يستعدون لفصل الشتاء . ومع ربيع سنة ١٠٩٦ كان الريف فى حال من الهيجان فلم يحصد الفلاحون محصولهم لكى يعولهم فى العام التالى ، ولكنهم جمعوا محاصيلهم من أجل الرحلة إلى الشرق . وبعد شهور قلائل حملت أسر الفلاحين التى تفوق الحصر فى آلاف الضياع ممتلكاتها الحقيرة ، ومعها النساء والأطفال ، على عربات ثقيلة تجرها الثيران أو الخيول وشقوا طريقهم صوب الشرق . وربما كانت القصة القائلة بأن الآلاف استجابوا لنداء أوربان الثانى بقولهم "إنها ارادة الرب" قصة غير حقيقية ، ولكن الأمر بالنسبة لفلاحى أوربا كان أشبه بأمر الهى مباشر ، ورأوا فيه المعجزة الأولى فى سلسلة الأحداث الدالة على قدوم المسيح الثانى . ولم يكن فى استطاعة كتاب الحوليات الكنسية العارفين بالشعب أن ينسبوا هذه الحال الدينية المفاجئة إلى شىء سوى معجزة ، والا فما الذى حرك الجماهير المادية البليدة الجاهلة ؟

وليس ثمة شك فى أن كثيرا من الفلاحين الذين حملوا عائلاتهم على عربات قد فكروا فى تحرير أنفسهم من رق الأرض والعبودية إلى جانب تحرير قبر المخلص ، فقد كان من المقبول ضمنا أن صاحب الضيعة الإقطاعية لايستطيع أن يمنع أقنانه من ترك الأرض ، إذ بات من المقرر كقاعدة ثابتة أن جيش التحرير سيكون نفرا من الرجال الأحرار . ولم تكن كلمة فرنجة Franci تعنى الفرنسيين فقط ، أو الأوربيين عامة فيما بعد ، ولكنها كانت تدل أيضا على الرجال الأحرار . وفى الأرض سوف يبقى المحاربون أحرارا بعد أن يفتحوا البلاد ، وسوف يمتلك المهاجر مزرعة خاصة وربما يمتلك اقطاعية كاملة يعمل فيها الفلاحون المسلمون عبيدا له . ومع ذلك ، وعلى الرغم من أنه كان لكل فرد أمله الصغير وأطماعه الانسانية ، فإنه كان يهتم أيضًا بخلاصه وبحياته فى الخلود ، ولذا كانت الحركة إلى الشرق تجاه المذبح والشمس المشرقة التى هى الرموز الخالدة للأمل والخلاص .

وهكذا دخلت أوربا مع مطلع القرن الحادى عشر مرحلة إحياء ويقظة دينية . وقد أثار الألف الأخير المتوقع مع بداية الألف الثانية وبعد أربعة وثلاثين عاما (١٠٣٤) أى بعد ألف سنة من صلب المسيح ، موجة من التوبة فى وسط أوربا وغربها . وتعمق الشعور بالخطيئة والإحساس بالذنب . وقد أضفت الحركة الإصلاحية التى تزعمها ديركلونى والأديرة التابعة له. والتى شملت الكنيسة نفسها – بعدا جديدا على المناخ الدينى السائد ، فالحركات التى تستلهم الدين صارت واقعا محسوسا فى حياة الغرب السياسية مثل حركة "سلام الرب" و"هدنة الرب" التى كانت تمنع إراقة الدماء ، وتحصر القتال فى نطاق أيام معدودة من الأسبوع تحت تهديد التحريم والمقاومة الجماعية . وقد دعمت معاناة جماهير العامة حركة السلام ضد البارونات التواقين للنهب والمغامرة . وفى الوقت نفسه أدت التجربة الأليمة مع بداية القرن إلى أن يبحث الناس عن وسائل يتحررون فيها من عبء الخطيئة ، ومن هنا كثرت زيارات الأماكن المقدسة ، كما اكتسبت حياة الرهبنة جاذبية كبرى . وتم إحياء الرهبنة مع بداية القرن الحادى عشر حين ظهرت أعداد كبيرة من نظم الرهبنة فى ايطاليا وانتشرت عبر جبال الألب . وكان أكثر هذه الظواهر وضوحا هى الحركات الباكرة التى أخذت تدعو إلى العودة لحياة الفقر التى عاشها المجتمع المسيحى الباكر . وكانت هذه الحركات تشكل خطرا على نظم الحكم التى كانت قائمة آنذاك ، وأدانتها الكنيسة باعتبارها حركات هرطقية منشقة . إلا أن الإدانة لم تشمل الجميع ، فقد كان الوعاظ الجوالون ينادون هنا وهناك بالحياة الرسولية ، أى بالعودة إلى احتذاء خطى الرسل. وحظى الفقر الذى عاشه الحواريون بالمديح ، بل واعتبر من الفضيلة ، كما كان تقليد حياة الحواريين فى أسلوب حياتهم البسيط بمثابة تكفير عن الماضى وحماية للمستقبل .

وسرعان ما تحولت الدعوة إلى حركة صليبية (والتى أدت اليها أسباب عديدة) ، أى إلى فعل تكفيرى جماعى ، وكفارة عن رغبات وويلات ذلك الجيل . وتكشف الطريق إلى الشرق بفعل عوامل كثيرة منها : التحرر من ربقة الشعور القاهر بالإثم والخوف من عقاب الجحيم فى الآخرة ،وفرصة القتال برفقة الاخوة وموافقتهم ومباركة الكنيسة ، وفرصة الوفاء بالتزامات الفرد كمسيحى وكفارس ، فضلا عن الوصول إلى مدينة القدس الأرضية التى كانت تبدو وكأنها تنادى أبناءها الحقيقيين ليخلصوها من الكفرة .. لقد كان هذا دنيوياً صحبه وعد بالثواب السماوى .

وماذا بعد الغزو ؟ من الغريب أن أحداً لم يطرح هذا السؤال . وإذا كانت هناك أفكار واضحة لدى أوربان الثانى أو ادهمار أسقف لى بوى Le Puy الذى عينه قائدا للحملة

الصليبية ، فهذه الأفكار لم يعلن عنها شيء حتى وصلت الجيوش الصليبية إلى آسيا الصغرى. أما بالنسبة للجماهير الغفيرة من الفلاحين وسكان المدن ورجال الدين والرهبان والفرسان ، فان هدفهم اقتصر على مجرد الوصول إلى بيت المقدس . ولم تكن مجرد صدفة أن العامة المشتركين فى الحملة الصليبية أظهروا علامات الثقة فى النفس ، وربما الكبرياء . فلو أن يوم الحساب قريب ، ألن يكون الفقراء هم أول من يدخل القدس السماوية حسب تعاليم الكتاب المقدس ؟ ومن ثم صار الفقراء طبقة متميزة ، وقد ارتبطوا ببعضهم فى شركة غريبة تضم الذين لايملكون ، وهم جماعة أحسوا على الفور أنهم جماعة مختارة للخلاص .

وهكذا تحركت فى ربيع سنة ١٠٩٦ - أى بعد نصف عام فقط من خطبة كليرمونت صانعة التاريخ - طلائع الفلاحين التى سبقت حملة الفرسان الصليبية الكبرى . فانضمت أسر الفلاحين الى بعضها البعض ، وتزايدت أعداد الجماعات المتجهة صوب حوض الراين بحيث صارت فرقا وجيوشا . واختار البعض لأنفسهم قادة من بين نظرائهم ، على حين انضوى البعض الآخر تحت لواء أحد الفرسان أو أحد أبناء العائلات النبيلة ، وتحرك البعض دونما قيادة . وقد حدث أن سارت بعض المجموعات وراء أوزة أو ماعز ، شك فى أن الحركة المقدسة تلهمها قوى غيبية . أما الذين ساورتهم الشكوك حول ذلك ، فقد تعين عليهم أن يسمعوا الحكايات التى كانت تروى عن الأصوات والرؤى التى تجلت للمختارين والمتنبئين الذين عاشوا لحظات مجدهم فى تلك الفترة .

وسرعان ماتعرضت مسيرة الكنيسة المقاتلة التى تصاحبها التراتيل المقدسة ، والتى بدأت كتعبير عن شعور دينى ، إلى الأحداث التى شوهت صورتها . إذ ارتكبت واحدة من أكبر الفظائع فى التاريخ : تلك المذابح الدموية التى أجهزت تماما على الجماعات اليهودية فى حوض الراين ، وهى جماعات يعود تاريخ بعضها إلى عصر الإمبراطورية الرومانية ، أى قبل أن تطأ قدم أى جرمانى همجى هذه الأرض الكلتية . وكان البعض الآخر أحدث فى الوجود على حين كانت بعض هذه الجماعات اليهودية قد قامت بناء على طلب ودعوة الأساقفة المحليين الذين أرادوا تعمير المدن الناشئة وتحويلها إلى مراكز للتجارة والدخل . وفى إطار هذه الجماعات ازدهرت مدرسة حكماء فرنسا واللورين التى أنجزت أول المؤلفات الكبيرة فى تفسير الكتاب المقدس والتلمود فى شمال أوربا فى القرن الحادى عشر . ثم حدثت الكارثة التى توازى الهولوكست فى عصرنا الحالى . ذلك أن جماهير الصليبيين العامة ، التى انتابتها حالة مجنونة من الحماسة المسيحانية ، أخذت تخير اليهود بين الردة أو الموت . واختارت الجماعات اليهودية الاستشهاد . ولايمكن قراءة تفاصيل المذابح دون أن يشعر المرء باشمئزاز ، حتى

بالنسبة لذلك العصر الذى اتسم بالفظاظة . وقد عبرت كراهية اليهود الدفينة فى كل البلاد المسيحية عن نفسها فى المذابح التى أصبحت ظاهرة ترتبط ارتباطا عضويا بكل حملة صليبية على طول مائتى سنة هى عمر الحركة الصليبية . وقد تلاشت مجتمعات يهودية بأسرها ، كما لقى آلاف اليهود حتفهم لأنهم رفضوا التعميد المسيحى . وبعد جيلين ، أى خلال الحملة الصليبية الثانية ظهر طقس جديد مثير للرعب والرهبة هو طقس الاستشهاد . فبدلا من قبول التعميد الإجبارى كان الرجال يقطعون رقاب زوجاتهم وأطفالهم وهم يتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ، ثم ينتحرون . وقد وجد الصليبيون الذين تغلغلوا إلى مخابىء اليهود الساحات الصامتة التى اكتظت بجثث أولئك الذين استشهدوا مزدهرة ، كما دمرت مراكز التعليم والثقافة فى سباير وورس وكولونيا ، وبراين . فضلا عن تعرض أحوال هذه الجماعات الاجتماعية للخطر . ودخل اليهود فى قرون الظلمة والاضطهاد الطويلة التى استمرت فى بعض المناطق حتى بداية القرن العشرين .

وقد حاول بعض الأساقفة ، فى أماكن متفرقة ، إنقاذ اليهود . فقد كانت سياسة الكنيسة الرسمية تحرم التعميد الجبرى وارتكاب المذابح ضد اليهود الذين كان من الضرورى الاحتفاظ بهم كدليل وشهادة على الايمان المسيحى ، وكانت حجة الكنيسة أنه يجب أن يستمر احتقار اليهود وإذلالهم كدليل قائم على انتصار الكنيسة المظفرة . بيد أن تدخل الأساقفة لم يكن ذا تأثير يذكر ، إذ كانت الجماهير الثائرة تجد مخابىء اليهود (التى كانت حصونا فى أغلب الأحوال) وتعصف بها وتقتل اليهود . وقد أعلن أنه يجب تطهير البيت من الداخل قبل قتال الكفار بالخارج . وهكذا أضيفت أسماء قادة من أمثال فولكمار Volkmar ، وجوتشوك Gottschalk واميخو Emicho إلى قائمة العار الطويلة فى تاريخ أمة الشهداء ، لأن هذه الأسماء ليس لها ذكر فى تاريخ الغرب[1] .

---

(١) لاشك أن المذابح التى تعرض لها يهود أوربا أثناء الحركة الصليبية دليل على مدى وحشية مرتكبيها ، ولكن يبدو أن المؤلف يتجاهل حقيقة أن اليهود يتحملون جزءا من مسئولية ما حدث لهم . فقد كانت الجماعات اليهودية تسيطر على شئون المال والتجار فى أوربا العصور الوسطى . وكان طبيعيا أن يلجأ إليهم كثيرون من أجل الحصول على القروض . وفى أثناء فترة الاستعداد للحروب الصليبية لجأ فرسان الغرب إلى المرابين اليهود للحصول على الأموال اللازمة .وقد كان المرابون اليهود يقرضون المال لأبناء الطبقة الإقطاعية بفوائد باهظة ويدفعون رشاوى للأمراء والأساقفة وبلاط الإمبراطور لضمان حمايتهم من غضب أبناء الطبقة الإقطاعية . وكان للديون الثقيلة التى كبلوهم بها أثرها فى إذكاء نار العداوة الكامنة فى نفوس=

واتجهت الجماهير التى عبرت الراين جنوبا صوب نهر الدانوب ، ثم واصلت سيرها نحو الشرق . وإذا كانت هذه الجماهير تفتقر إلى التنظيم وتسيطر عليها مشاعر الثورة ، ولأنها كانت نهبا لمشاعر الخوف والشكوك ، فإن المؤن التى كان الأفراد والجماعات يحملونها سرعان مانفدت ، وبدأت أعمال النهب . ففى فرنسا وألمانيا وبوهيميا أيضا كان السكان المحليون يمدون جماهير الحملة الشعبية بالمؤن والأغذية . ولكن الجماعات فى مسيرها عبر أراضى المجر والبلقان بدأت تسلك سلوك الجيوش الغازية التى تخترق أرض الأعداء . ونظم أهل المجر المقاومة المسلحة ، وخاضوا المعارك ضد الجماعات الصليبية التى تحولت إلى السلب والنهب . وساء الموقف عندما دخلت هذه الجحافل الفوضوية أراضى البلقان الخاضعة للامبراطورية البيزنطية . وكان للغة المجهولة والكنيسة المختلفة والعادات الغربية أثرها فى تحويل لقاء الشرق والغرب الى موقعة عسكرية . ولقمع هذه العصابات أرسل البيزنطيون القوات التى غالبا ما كانت من الأتراك العاملين فى خدمة بيزنطة لمنع النهب ، وكثيرا ماكانوا يمدون الجموع الصليبية بالمؤن والأغذية ليتجنبوا السلب والنهب . بيد أن الطريق إلى القسطنطينية بات مرصعا بالقرى المحترقة والمدن المسلوبة وأكوام الجثث . لقد عانت بيزنطة من تطرف الجموع القادمة من الغرب المسيحى ، وهى الجموع التى كان من المفروض أنها قدمت لنجدتها .

وتضافر الجوع والمرض مع المقاومة المحلية للقضاء على أعداد كبيرة من الجموع الصليبية الشعبية ، ولم تصل إلى القسطنطينية من هذه الجموع الغفيرة التى تحركت من أوربا سوى شراذم هزيلة . وكانت مجموعة منها تحت قيادة بطرس الناسك أو بطرس الامييانى Peter d' Amiens الذى جعلت منه الأساطير المتأخرة بطلا صليبيًا كبيراً ، وعلى الرغم من تأثيره الفائق على جماهير الصليبيين العنيدة ، فإنه لم يستطع أن يبقيهم فى العاصمة فإن أليكسيوس الأول كومنينوس وأتباعه لم يتحملوهم ، فنقلهم الإمبراطور بسرعة عبر

= المسيحيين ضد اليهود . ومن ناحية أخرى ، اتخذ يهود أوربا موقفاً معادياً من الحركة الصليبية منذ البداية مما زاد من مشاعر السخط والكراهية ضدهم .

انظر : Runciman, A History of the Crusades, Harper Torchbook New York 1964, vol. I, pp. 134 - 141 .

وكذلك : سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٧١ ، جـ١ ، ص١٤١-ص١٤٤ .

(المترجم)

البسفور حيث واجهوا المسلمين فى نهاية المطاف . ولأنهم غير منظمين وينقصهم الاستعداد ، فقد بدد الأتراك شملهم ومزقوهم شر ممزق حول نيقية القديمة وألحقوا بهم الخسائر الفادحة . ولم ينقذهم سوى تدخل الإمبراطور الذى أنقذ بقاياهم وأعادهم سالمين إلى العاصمة . ومع خريف سنة ١٠٩٦ كانت حملة الفلاحين الصليبية قد لاقت نهايتها المحتومة .

وبينما كانت الحملة الصليبية الشعبية تتخبط فى ممرات البلقان لتنتهى نهاية مزرية خارج أسوار القسطنطينية ، كانت حملة الفرسان الصليبية الكبيرة تحشد قواتها الضارية . وبدأت جيوش أوربا الغربية المنظمة جيدا والمدربة تماما تتحرك فى منتصف صيف سنة ١٠٩٦ . وانضم حكام انجلترا الفرنسيون إلى إخوتهم وأقاربهم عبر القنال الإنجليزى فى فرنسا ، على حين لحق فرسان إقليم الفلاندرز بالجيوش القادمة من شمال ووسط فرنسا . واستعد فرسان شمال إيطاليا للانضمام للحملة الصليبية . أما فى جنوب شبه الجزيرة الايطالية فقد كان النورمان مايزالون مشتبكين فى صراع ضد المسلمين والبيزنطيين ليقيموا لأنفسهم إمارة على جانبى مضيق مسينا . وقد ربطوا مصيرهم بالصليبيين ، إلا أن أسبانيا المشغولة بقتال مسلمى الأندلس ، وألمانيا التى استغرقها النزاع على التقليد العلمانى (بين البابا والامبراطور الألمانى) لم تستجيبا لنداء البابا . وقد تحرك الاسكندنافيون بعد فترة وجيزة واشتركت جماعات صغيرة من السلاف فى بوهيميا وبولندا والمجر فى الحملات الصليبية التالية .

وهكذا تم تكوين أربعة جيوش كبيرة اعتمد تنظيمها على التقسيمات الجغرافية والولاء المحلى والجنسى واللغوى للمشاركين فيها . فقاد روبرت دوق نورماندى جيوش شمال وغرب فرنسا التى انضم إليها أتباع أخيه هنرى الأول ملك انجلترا ، وقاد جودفرى البولونى جيش الفلاندرز واللورين وشمال غرب فرنسا ، على حين قاد هوف الفيرموندوى ، أخو ملك فرنسا فيليب الأول فرسان وسط فرنسا ، موطن آل كابيه ، وتولى ريموند دى سان جيل كونت تولوز وماركيز البروفنسال قيادة جيوش جنوب فرنسا والبروفنسال ولانجدك . وأخيرا تولى بوهيموند الأورنتى وابن أخيه الشهير تنكرد قيادة النورمان الإيطاليين .

وتم تعيين أدهمار دى مونتيل Adhemar de Monteuid أسقف لو بى Le Puy كممثل أو مندوب بابوى . وباعتباره صاحب أعلى درجة كهنوتية ، فقد صار هو الوسيط والمنظم بين قادة الجيوش الصليبية . وقد لحق بالجيوش الكبيرة التى تكونت أساسا من الفلاحين الذين كانت حركاتهم تتم عادة تحت قيادة رؤسائهم المحليين التقليديين (أى سادتهم من النبلاء) . وحدثت بعض التجاوزات هنا وهناك ، ولكن تحرك الجيوش بشكل عام تم على درجة مقبولة

نسبيا من النظام . وسارت الفيالق الفرنسية على الطريق البرى صوب الشرق عبر أراضى وحوض الدانوب ، على حين عبرت قوات النورمان الإيطاليين وبعض القوات الفرنسية البحر الأرياتى وتحركت عبر طريق فيا أجناتيا Via Egnatia الرومانى القديم والذى مر عبر البلقان.

كانت القسطنطينية هى نقطة التجمع حيث التقت الجيوش الصليبية معًا فى ربيع سنة ١٠٩٧ . وكان هذا هو لقاؤهم الأول مع الشرق : فها هى الإمبراطورية المسيحية الشرقية على البوسفور ، ولم يكن بمقدور أحد منهم أن يصل بخياله إلى تصور منظر العاصمة العظيمة . ونظرا لأن الصليبيين قدموا من أوربا الخالية من المدن ، حيث كان عدد التجمعات السكانية الكبرى يتراوح بين خمسة آلاف وعشرة آلاف نسمة ، فقد اندهش الصليبيون لجمال القسطنطينية بأسوارها التى تبلغ الميل طولا ، وقبابها الذهبية التى تسمو وسط السحب ، فضلاً عن قصورها وكنائسها وأسواقها وميناءها المزدحم إلى جانب الآثار التى تحكى قصة مجدها الكلاسيكى ، على أن أكثر ما أثار دهشتهم هى جماهير السكان الغفيرة . فقد كانت القسطنطينية بوابة الشرق ومدخلاً عظيمًا إلى هذا الشرق الساحر الغامض . وكانت تلك أيضا هى لحظة الصدام الأول مع دعاوى بيزنطة .

وقد أخذ الإمبراطور اليكسيوس الأول كومنينوس بوصول منقذيه . لقد كان حاكمًا قويا وحاول قدر جهده أن يمنع هزيمة الجيش البيزنطى على يد الأتراك السلاجقة فى منزيكرت منذ جيل مضى (١٠٧٠) . ولكن منقذيه لم يكونوا من فرق الفرسان فقط كما كان يتوقع ، وإنما كانوا شراذم الفلاحين الصليبيين المشاغبين . وهو ماجعله يتوقع ماهو أسوأ . وهكذا كان على اليكسيوس أن يواجه احتمال رؤية إمبراطورية ترزح تحت وطأة الجيوش الأوربية القوية الضخمة. ومن ثم حاول الإمبراطور التوصل إلى نوع من الاتفاق مع القادة الصليبيين ، فقد كان من المستحيل أن يعاملهم كمرتزقة يدفع لهم الرواتب لقاء عملهم فى خدمته . كما كان من الصعب أن يعتبرهم حلفاء . ومن حسن الطالع أن الجيوش الصليبية لم تصل معا فى وقت واحد ، مما أتاح للإمبراطور فرصة التعامل مع القادة ، كل على حدة . فضلا عن أن ريموند السانجيلى وبوهيموند الأترانتى (وهو حليف جبار كان قد غزا الأملاك البيزنطية فى البلقان منذ سنوات قليلة) كانا يتطلعان الى نوع من التفويض الإمبراطورى لتدعيم موقف كل منهما بين القادة الصليبيين . وقد نجح الإمبراطور فى أن ينتزع من كليهما وعدا بالحفاظ على حقوق إمبراطوريته فى غزواتها التالية التى تتم فى المقاطعات البيزنطية السابقة مستخدما الحيل

والتهديدات والرشوة للوصول إلى هدفه . وفى النهاية قطع معظم القادة الصليبيين على أنفسهم عهوداً أمام الإمبراطور ، مقابل امداداهم بالأدلاء والأموال والمؤن . ثم قام الإمبراطور بنقلهم على وجه السرعة عبر المضايق إلى الأراضى الآسيوية .

وهناك ، خارج القسطنطينية بعدة أميال ألفى الصليبيون أنفسهم فى أرض العدو للمرة الأولى . ذلك أنه بعد انتصار الأتراك السلاجقة فى مانزكرت أصبحت آسيا الصغرى بأسرها فى قبضتهم . إلا أن السيادة التركية الجديدة على هذه المناطق لم تغير التركيب السكانى الذى ظل بيزنطيا فى غالبيته ، على حين ظلت الحامية السلجوقية فى الحصون وقلاع المدن فقط . وإذا كان ثمة شعار للتحرير قد طرح من قبل ، فإن الطريق إلى تحقيقه على يد الصليبيين كان يبدأ من هذه المنطقة .

وفى البداية بدا وكأن الأمور سوف تسير على هوى الجيوش الصليبية . فقد تم حصار مدينة نيقية وتسليمها إلى بيزنطة وفقا لما طلبه أهلها . ثم تحركت الجيوش الصليبية تجاه الجنوب ، وأحرزت انتصاراً فى معركة ضوروليوم الخالدة سنة ١٠٩٧ . وتوقفت كل المقاومة المنظمة عبر آسيا الصغرى . ومع ذلك كانت الجيوش تتعرض للهجمات الخاطفة من جانب الأتراك بشكل متواصل ، إذ كانت وحدات الفرسان رماة السهام تظهر فجأة وكأنما انشقت عنها الأرض ، ويمطرون الصليبيين بوابل من سهامهم ، ثم يختفون فجأة كما ظهروا . وكم كانت هذه الهجمات المفاجئة مؤلمة وموجعة بالنسبة للصليبيين ، ولكنها لم توقف تقدم الجيوش . أما المناخ ، فقد كان هو عدو الصليبيين الرئيسى ، حيث كانوا يعانون من حرارة الجو التى اشتهرت بها مناطق وسط آسيا . كما عانوا من نقص الطعام والماء عندما كانت تنفد المؤن التى أمدهم بها الإمبراطور البيزنطى بصورة كريمة . ولكن الجيوش أخذت تناضل وهى تشق طريقها باتجاه قلب آسيا الصغرى . ثم واصلت السير صوب الجنوب حتى ممرات جبال طوروس الضخمة . واحتل الصليبيون ، فى طريقهم ، قونية عاصمة الأتراك فى آسيا الصغرى .

وبعد وصول الصليبيين إلى جبال طوروس قابلهم المسيحيون فى المنطقة التى عرفت باسم أرمينيا الصغرى التى هاجر سكانها إليها من أرمينيا الكبرى حول بحيرة فان Van ، وخلقوا كيانا سياسيًا جديداً فى هذه المنطقة . وهناك تلقى الصليبيون النداء الأول من السكان المسيحيين لمساعدتهم . فقد خلقت تقلبات الحرب والغزو منطقة من المقاطعات الصغيرة تبدأ من البحر فى الغرب حتى أعالى النهرين فى الشرق . وكان غالبية سكان هذه المنطقة من المسيحيين الأرمن ، وكان بعضهم يخضع لحكم القادة البيزنطيين ، على حين كان البعض الآخر

يدين بالطاعة للبيزنطيين الخائنين ، أو الأرمن الذين أعلنوا ولاءهم أو طاعتهم أو كليهما للزعماء الأتراك ، أو لحكام مقاطعاتهم . ومن هذه الجماعات المسيحية فى الرها وما حولها جاء النداء بطلب مساعدة الصليبيين وتحرك لنجدتهم بلدوين شقيق جودفرى . وقد رحب به حاكم الرها وتبناه ، ولكن بلدوين دبر تمردا ضد الشخص الذى أحسن اليه ثم استولى على المدينة ، وأقام أول مقاطعة صليبية فى الشرق ، وهى إمارة الرها . وهكذا أقيم شعار بيت دوق اللورين بين نهرى دجلة والفرات ، وبذلك أسست أوربا أولى مستعمراتها فيما وراء البحار .

وفى الوقت نفسه عبر الجيش الصليبى ممرات جبال طوروس ودخل شمال سوريا . وكانت مراكز الحكم الإسلامى فى أنطاكية ودمشق . فمنذ أن قام الأتراك السلاجقة بغزو أنطاكية سنة ١٠٨٥ انقسمت سوريا إلى إمارات صغيرة كانت تدين بالتبعية الإسمية للخلافة العباسية فى بغداد ، وسلطة السلطان السلجوقى القابع بعيدا فى فارس . وفى الحقيقة إن القتال والتحارب كان هو النغمة السائدة فى العلاقات بين الأمراء .

فرض الصليبيون أول حصار طويل منظم تمارسة الحملة الصليبية الأولى فى ١٠٩٧-١٠٩٨. وعلى الرغم من بساطة الدفاع عن المدينة ، فإنها سقطت بسبب خيانة الأرمن. وكان سقوط أنطاكية بمثابة طوق النجاة الذى أنقذ الصليبيين ، إذ كان هناك جيش سلجوقى ضخم قد تحرك من الموصل لنجدة المدينة ، وكان على بعد مسيرة أيام منها . فلو أن المدينة لم تكن قد سقطت بعد ، لشهدت جبال المنطقة نهاية الجيوش الصليبية المرهقة الجائعة ، وتلقفتها سيوف سكان المدينة المسلمة وقوات الإنقاذ .

وحين فشل قربوغا فى إنقاذ أنطاكية استقر الجيش لحصار المدينة التى اكتظت بالجثث وعضها الجوع بعد أن تحصن الصليبيون بها . وبدا أنهم فى حاجة إلى معجزة تفتح أمامهم سبيل النجاة ، وقد حدثت المعجزة . فقد خرج أحد رجال الدين البروفنساليين المغمورين بحكاية عن رؤيا مقدسة ، وأعلن أن الحربة التى كانت قد اخترقت جسد المسيح منذ أحد عشر قرنا مخبوءة فى أنطاكية . وتم العثور على الحربة بسهولة لأن الرؤيا حددت موقعها بالضبط . وقد أدت هذه الآية السماوية إلى رفع معنويات الجيش الذى عبر عن شجاعته وإقدامه فى هجوم استمر يوما كاملاً ضد قوات الحصار الإسلامية . وتفرق الجيش التركى المهزوم واختفى . ولم يكن هناك جيش إسلامى آخر يمكنه سد الطريق إلى القدس ، وقد تكفل الطمع الإنسانى بهذه المهمة .

فقد تسبب عناء الطريق الطويل والأمراض والحاجة ، ومتاعب فترة الحصار الثنائى لمدينة أنطاكية ، فى الفساد الأخلاقى ، و مايمكن أن نصفه بالإفلاس الأيديولوجى الأول فى أنطاكية للحركة الصليبية . فقد انطلق الطمع والجشع المكبوت من أغلال الايديولوجية والواقع المر الذى كان يخفف من حدته ، واختار لحظة انطلاقه حين توقفت الحرب ، وتجسد فى بؤرة شريرة من الدسائس والصراعات والمؤامرات التى امتدت خيوطها بين القادة الصليبيين . فقد تحدى ريموند السانجيلى ، بوهيموند النورمانى صانع النصر فى أنطاكية وادعى أن المدينة من حقه . ولكن قادة الجيوش الصليبية قرروا ترك أنطاكية للنورمانى وتجاهل الاتفاق المعقود مع الإمبراطور البيزنطى الذى كان يطالب بالعاصمة لنفسه . وفى خضم هذا الصراع تفرق الجيش الصليبى ، وأخذ القادة والرؤساء والفرسان ذوو الرتب الأدنى يغيرون على المناطق الريفية المجاورة لأنطاكية ، كل منهم يحاول أن يحصل لنفسه على بعض الأملاك . ولما كانت المقاومة المحلية ضعيفة ، فإن القرى والمدن والقلاع لم تلبث أن خضعت للصليبيين . ووجد الغربيون المساكن السورية مريحة والطعام لذيذا ، وبدا أن إقامتهم فى شمال سوريا سوف تدوم . ويغلب على المرء انطباع بأن أنطاكية حلت محل القدس ، وأن نهر العاصى (الأورونط) حل محل الأردن . وعند هذه المرحلة تفجرت ثورة غير متوقعة وتحدث الزعماء . فقد طالب الفقراء الذين كانوا مايزالون يحملون شعلة الحركة . بعودة الزعماء إلى الالتزام ، وأعلن متحدثهم فى جرأة أن هدف الحملة الصليبية لم يكن الحصول على أملاك للقادة ، وأن مقصدها لم يكن أنطاكية وانما بيت المقدس . هذه الثورة قوبلت بالسخرية والدهشة فى بداية الأمر ، ولكن هذه الدهشة لم تلبث أن تحولت إلى صدمة عندما هدد زعماء التمرد بحرق أنطاكية ، وهدم أسوارها اذا لم يتحرك القادة إلى القدس فى التو .

وفى هذه المرة كان رد الفعل مساويا للتهديد ، إذ أقسم القادة الصليبيون قسما جادا بألا ينسوا القدس . وبعد التفكير والتوبة تحرك الجيش الصليبى إلى جنوب سوريا ولبنان ولم تبذل المراكز الاسلامية شرقى نهر العاصى وحلب وحماة وحمص أى جهد لوقف تقدم الجيوش الصليبية. بل إن أمراء المدن سهلوا حركة الجيش وأمدوه بالمؤن حتى يتخلصوا من الغزاة . والحقيقة أن الصليبيين فى طريقهم إلى القدس لم يتوقفوا لكى يستولوا على المدن والقلاع ، بإستثناء مدينة طرابلس اللبنانية التى فرض عليها حصار فاشل وتركت تحت رقابة حامية صغيرة . وفى ربيع سنة ١٠٩٩ مر الجيش ببعض المدن المشهورة ذات الأسماء التى تذكر بالعالم القديم والعالم الهيلينستى ، وهى مدن بيروت ، وصيدا ، وصور ، ثم وصل أخيراً إلى فلسطين ، ثم سار الجيش بحذاء ساحل الجليل حتى وصل إلى خليج عكا ، ودخل سهل شارون

الخصيب المشهور فى الكتاب المقدس ، مواصلاً السير إلى قيصرية . وقبل الوصول إلى ميناء يافا اتجه إلى الداخل تجاه الرملة واللد المجاورة حيث استراح الجيش أياما قليلة ، وهناك رسم أول أسقف فى الأرض المقدسة ، وهو أسقف سان جورج (اللد) كنوع من التقرب ببواكير الثمار إلى اله الجيوش فى أرضه الموعودة .

وكان على الصليبيين أن يكونوا أكثر امتنانًا لما حققوه ، فقد هجر المسلمون الذين أخذتهم المفاجأة ميناء يافا والرملة دون قتال . وبعد احتلال القدس ضمن الصليبيون لأنفسهم ملجأ وملاذا فى هاتين المدينتين الواقعتين فى منتصف الطريق ، كما ضمنوا منفذا مباشرا إلى البحر. فقد اعتمد مستقبل الصليبيين تماما على التعزيزات والإمدادات التى قدمت إليهم من أوربا عبر البحار .

وبعد ثلاثة أيام من الراحة ترك الجيش حامية فى الرملة ، ثم اشتبك فى القتال فى منطقة جبال يهوذا . وفى ٧ يونيو ١٠٩٩ وصل الصليبيون إلى قمة تل يشرف على القدس . وهو المدفن المتعارف عليه للنبى صموئيل . وأخيراً صافحت عيونهم المدينة المقدسة . وتم تعميد التل باسم "تل الفرح" وركع أفراد الجيش فى صلاة تأملية خاشعة وهم يشاهدون المدينة بقبابها ومآذنها ومنازلها ذات الأسقف المسطحة وأسواقها ذات الأسقف الدائرية . وكان من الصعب تمييز قبة كنيسة القيامة . وعلى خط الأفق خلف المدينة يقع جبل الزيتون والموضع الذى شهد صعود المسيح . كانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ووصل وفد مسيحى من بيت لحم ليطلب الحماية للمسيحيين الذين بات وجودهم تحت تهديد مشاعر التعصب والرغبة فى الانتقام التى تملكت المسلمين . وحين أسدل الليل ستاره امتطى تنكرد صهوة جواده باتجاه المدينة ، وفى صباح اليوم التالى كان هناك علم نورمانى يرفرف فوق كنيسة الميلاد قبل أن تطأ قدم أى غربى تراب مدينة القدس المباركة .

كان الفصل الأخير فى قصة الحملة الصليبية هو حصار القدس الذى استمر طوال خمسة أسابيع (٧ يونيو ١٥ - يوليو١٠٩٩) . وكانت المدينة قد هيأت نفسها لحصار طويل نظراً لأن الوديان العميقة تحيط بها من كل جانب ، ماعدا الجانب الشمالى . وأقام الصليبيون معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ، ولكنهم فشلوا فى إغلاق المدينة من جهة الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل الزيتون) وتصوروا أن الحصار سوف يكون عاديًا ، ولكنهم سرعان ما اكتشفوا أن قواتهم لن تتمكن من تنفيذ مهمتها بسهولة .

ولم يكن هناك ما يلائم هذا الفصل الأخير فى ملحمة الحملة الأولى أكثر من إشاعة حدوث بعض الرؤى المقدسة ، واشتراك القديس جورج فى المعارك . وهنا كان قادة الحملة الصليبية الذين كانوا أبطالا فى مئات المعارك ، ورفاقهم من المقاتلين المحنكين ، يبحثون عن النصيحة والمشورة لدى راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على المدينة . فلم يكن هناك جدوى من الغارات الفاشلة على الأسوار ، ومواكب المشاة المحيطة بها ، أو توقع سقوطها على نحو ما سقطت أسوار أريحا . لقد انقضت الأسابيع الخمسة قبل أن تكون آلات الحصار جاهزة للعمل ولشن هجوم شامل يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩ ، ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصلب فى التراث المسيحى نجح برج المحاصرة بقيادة جودفرى فى الاقتراب من الطرف الشرقى للسور الشمالى ، وتم مد جسر على شرفات الحصن ، ودخل الجيش المدينة من الحى اليهودى . وفى الوقت نفسه دخل ريموند السانجيلى المدينة من الركن الجنوبى الغربى (جبل صهيون) ، وتلقى شروط استسلام قائد القلعة المصرى ، بينما تحرك تنكرد صوب صخرة القبة مباشرة .

وأعقب سقوط القدس مذبحة فظيعة راح ضحيتها المدافعون عن المدينة وسكانها من المسلمين واليهود . وأبيحت المدينة لأعمال السلب والنهب على مدى ثلاثة أيام متوالية . وفاض الدم فى الشوارع ، وظلت أكوام الجثث مصدر إزعاج فى الشوارع فترة طويلة . وفى هذا الجو الموحش الذى يلفه الصمت الرهيب وتغلفه الروائح الكريهة الصادرة عن المنازل المحترقة والأجساد العفنة اجتمع الصليبيون فى كنيسة القيامة ، وترددت عبارة Te Deum Laudamus أى "نحمدك يا الله" فى الكنيسة القديمة ، وهكذا انتهت الحملة الصليبية الأولى، وتأسست المملكة الصليبية .

الصليب والهلال

كانت القدس مدينة مسيحية . وبعد أن ظلت خاضعة للسيادة الإسلامية طوال أربعة قرون حل الصليب محل الهلال . وتحولت المساجد والمعابد إلى كنائس وأزيل المحراب ، وأقيم المذبح باتجاه شروق الشمس . ومنع المسلمون واليهود من الإقامة فى المدينة المقدسة . اذ أن الغزاة المنتصرين اعتبروا أن سكنى أولئك الذين رفضوا المسيح ، فى المكان الذى شهد معاناته وصلبه، تدنيس للمدينة المقدسة وانتهاك لحرمتها .

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر قامت فى الأرض المقدسة عاصمة مسيحية كما أقيمت عدة مستعمرات فرنجية صغيرة فى الرها وبلاد النهرين وانطاكية وسوريا فضلا عن بعض مدن الشاطىء اللبنانى . وكان من الضرورى أن يتم ربط هذه المراكز القليلة المتباعدة ببعضها البعض حتى يمكن بناء دولة محكمة البنيان تتميز بوحدة أراضيها . وكانت المهمة تبدو شاقة وعسيرة ورهيبة ، بيد أننا إذا ما رجعنا بذاكرتنا إلى الماضى القريب ، إبان الحملة الصليبية الأولى ، والدروب الشاقة التى كان عليها أن تسير فيها صوب نصرها النهائى ، بدت هذه المهمة هينة وسهلة . لقد كانت عبارة Dieu le Vent "إنها ارادة الرب" ، هى صيحة القتال لدى الصليبيين ، وكان الصليبيون يؤمنون بأن الرب قد أظهر رغبته فى تطهير معقله ، وأن القديسين قد ساهموا فى المعركة ، وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين ، ومن ثم كان هناك أمل فى المستقبل .

أما قيام المملكة الصليبية لكى تبقى على تراب الأرض المقدسة ، فقد كان بمثابة حقيقة مرة غير متوقعة كان على المسلمين أن يواجهوها مع أفول القرن الحادى عشر . وفى بطء عنيد تحولت حيازة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة المتناثرة إلى سيادة على أقاليم متصلة، أخذت فى التوسع والامتداد دون أدنى مقاومة . لقد تلقى العالم الإسلامى ضربة مفاجئة أثارت الذعر فى جنباته ، وتسببت فى شلل الإمارات السورية التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة فى حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وغيرها من الممالك الإقليمية التى كانت جميعها تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد . وكانت الحروب التى جرت فى العقد السابق على الحروب الصليبية ميراثًا من المرارة والحقد والشك بين هذه الإمارات الإسلامية . كما كانت الهوة الفاصلة بشكل مستمر بين إمارات الشمال المتحاربة ، والجنوب الإسلامى ، عميقة لدرجة امتنع معها العمل المشترك بينها لفترة من الزمان . وكانت مصر القوة العظمى فى العالم

الإسلامى تحت حكم الخليفة الفاطمى الشيعى هى المنافس القوى لسوريا وبغداد على المستوى الدينى والاقتصادى والسياسى . ولم يكن الانشقاق الكائن بين أهل السنة فى بغداد والشيعة فى مصر مجرد اختلاف فى المبادئ الدينية . ذلك أن كل خلافة منهما كانت تدعى لنفسها الشرعية الكاملة ، على حين اتهم كل فريق الآخر باغتصاب السلطة والخروج على الدين . فضلا عن أن المصالح المتعارضة فى كل من سوريا والعراق وفارس ، حيث يحكم السلطان السلجوقى، كانت تمنع تعبئة موارد العالم الإسلامى الهائلة فى المجال الاقتصادى والبشرى لصالح الحرب ضد الصليبيين .

هذه الفوضى السياسية هى التى شجعت الصليبيين على المضى قدمًا ، ومكنتهم من الوصول إلى بيت المقدس . وظل الحال على ماهو عليه طوال جيلين تمكن الصليبيون أثناءهما من تدعيم فتوحاتهم . وهكذا شاد الصليبيون دولة عاشت قرنين من الزمان فى مواجهة القوى الإسلامية .

كانت الغزوات الأولى بعد الاستيلاء على بيت المقدس تستهدف شاطئ البحر المتوسط ذا الأهمية الحيوية ، إذ لم يكن الشاطئ مجرد جبهة أخرى للتوسع ، وانما كان ضرورة لايمكن الاستغناء عنها لأستمرار المنشآت الصليبية التى لم تكن قد انجزت بعد ، والتى اعتمد وجودها على فيض الإمدادات القادمة من أوربا لتجلب موجات جديدة من المقاتلين والمهاجرين المستعدين للسير على درب الحملة الصليبية الأولى المظفرة .

وفى الفترة مابين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٢ تمت عدة محاولات فاشلة لاستخدام الطريق البرى الذى استخدمته الحملة الأولى . ثم هجر هذا الطريق حتى قدوم الحملة الثانية ، ثم هجر ثانية حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة . وإذ أغلق سلاجقة الروم طريق آسيا الصغرى البرى لم يتبق للصليبيين سوى الطريق البحرى . وفى بداية الأمر لم يكن بأيدى الصليبيين سوى مينائين هما : سان سيمون ميناء أنطاكية ، وميناء يافا الزلق الذى كان المسلمون قد هجروه عندما أخذ الصليبيون يشقون طريقهم صوب الرملة والقدس ، إلا أن الطريق الساحلى كان يمتد على مدى خمسمائة ميل فيما بين الإسكندرية وغزة ، ومن ثم كانت الصعوبات التى تجشمها الصليبيون هائلة وعديدة . كما أنهم لم يكونوا بقادرين على قطع الإمدادات عن المدن التى كانت تتلقى مؤنها بشكل مستمر عن طريق ميناء صور ، أو أساطيل مصر التى كانت هذه المدن تدين لها بالولاء الإسمى ، فضلاً عن أن الصليبيين لم يكونوا يمتلكون أسطولا ، كما لم تكن لديهم أية خبرة بحرية . وهو ماجعل من أساطيل الجمهوريات الإيطالية الفتية القوية

عاملاً مساعداً فى غزو سوريا وفلسطين . وبدأت جنوا ، وتلتها بيزا والبندقية فى توجيه أساطيلها إلى الأرض المقدسة . وعلى مدى عقد كامل من الزمان شهد البحر الأدرياتى والبحر الليجورى رحيل الأساطيل الإيطالية صوب الشرق قرب عيد القيامة حيث كانت تصل إلى مياه الشرق فى أبريل أو مايو . وأخذت البحريات الايطالية - دونما تخطيط فى البداية ، ثم بالتنسيق مع الصليبيين فيما بعد - فى حصار المدن البحرية الإسلامية من البحر على حين يداهمها الصليبيون من البر ، وكان مصير المدن الساحلية واحداً ، سواء منها ما أخذت على حين غرة أو التى استسلمت بسهولة . فقد تعرضت جميع هذه المدن للغزو واستولى عليها ونهبت وقضى على سكانها ، وبشكل يتناقض أحيانا مع المعاهدات التى نظمت الاستسلام . وعلى مدى عقد كامل ظل الصليبيون يكيلون ضربات موجعة وعنيفة للساحل الحصين ، وفى نهاية هذه الفترة (سنة ١١١١) كان الساحل السورى اللبنانى الفلسطينى بأسره قد وقع بأيدى الصليبيين فيما عدا ميناء صور المحصن الذى ظل يقاوم حتى سنة ١١٢٣ ، ومدينة عسقلان التى ظلت خاضعة لمصر حتى سنة ١١٥٤ . لقد ثبت غزو الساحل الحدود الغربية الطبيعية للملكة الصليبية [١] .

وعلى الرغم من أن فتح المدن الساحلية قد تم فى زمن وجيز ، فإنه استلزم جهدا خارقا من القوات الصليبية الضعيفة نسبيا . ومع هذا كان غزو المناطق الداخلية أيسر نسبيا ، إذ أن هذه المناطق لم تكن ذات تحصين قوى ، وقليل من مدنها كان لها أسوار . كذلك كانت القلاع محدودة لأن الحكام الدمشقيين لم يكونوا يعتبرون المنطقة أرض حدود . وهكذا اتجه الصليبيون بعد فتح بيت المقدس مباشرة صوب شمال يهوذا والسامرة[٢] حيث استولوا عليها دون مقاومة تذكر ، ثم اتجهوا شمالا حيث استولى تنكرد Tancred على جبل طابور والناصرة وطبرية وفرض الحكم والسيادة الصليبية على الجليل . وبالاستيلاء على طبرية استمرت الغزوات الصليبية عبر بحر الجليل ونهر الأردن خلال مرتفعات الجولان ، ومنها تجاه دمشق

---

(١) هنا يتحدث مؤلف الكتاب عن فكرة الحدود الطبيعية على نحو يذكرنا بقضية الحدود الطبيعية ومفهوم الأمن الاسرائيلى ، وهو الأمر الذى يدعو إلى دراسة مدى التشابه بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية (المترجمان) .

(٢) يستخدم المؤلف الأسماء العبرية الواردة فى الكتاب المقدس للدلالة على المناطق التى شهدت أحداث الحروب الصليبية دونما مبرر معقول ، لاسيما وأن أسماء هذه المناطق فى تلك الفترة التاريخية كانت هى الأسماء المعروفة حالياً . وعلى أية حال فإن هذا الأمر متكرر فى الكتاب (المترجمان) .

عاصمة سوريا . وكانت القوات الصليبية من القلة بحيث لاتمثل خطرا حقيقيا على مدينة كبرى. لقد كانت هذه القوات قليلة بشكل يدعو إلى السخرية . وبحيث لايمكنها أن تفرض حصاراً . ففى عدد من الغزوات الرئيسية كانت القوة لاتزيد عن ثمانين فارسا . ومع ذلك فان الغارات المتواصلة على المناطق الريفية غير الحصينة ، والاستيلاء على المواشى ومناطق الرعى، فضلاً عن تدمير المحاصيل وهروب السكان ، قد حمل العاصمة بأعباء ثقيلة منها عبء اللاجئين ، ونقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار .

وهكذا بدأت هذه الجماعات الغازية تحفر بغاراتها المتواصلة على الساحل الجنوبى خريطة المستقبل للمملكة الصليبية . ومع بداية العقد الثانى بلور الصليبيون استراتيجية أمن عسكرية وسياسية يمكن تلخيصها فى عبارة "الحدود الطبيعية" فقد كان الحد الشمالى المسالم يمتد فيما بين بيروت التى سقطت سنة ١١١٠ وجبلة (بيبلوس Byblos القديمة) فى مقاطعة طرابلس (لبنان الحديث تقريبًا) . وفى الشمال الشرقى كان الصليبيون يسيطرون على منابع نهر الأردن، وعلى مدينة بانياس وقلعتها التى كانت هى الحصن الوحيد فى المنطقة . أما الحدود الشرقية فكانت تمثل أكثر من مشكلة ، ففى الشمال كانت الحدود الشرقية تجابه دمشق ولم يتمكن الصليبيون من تعبئة القوة الكافية للاستيلاء على المدينة أو حتى توطيد أنفسهم فى تحصينات على الجولان . كما أن الدمشقيين من ناحيتهم كانوا يشاهدون التدمير المنظم لمزارعهم ومراعيهم دون أن يتمكنوا من منعه أو حتى مقاومته على نحو فعال ، إذ كان من المستحيل عمليا بناء الحصون نظرا لقرب قواعد الصليبيين .

وكانت نتيجة هذا المأزق أمراً غير متوقع . فمنذ عام ١١٠٨ تقريبا اتفق الصليبيون والدمشقيون على نوع من الحكم المشترك لمرتفعات الجولان ، ولم تقم هناك حدود فعلية ، بيد أن الفريقين اتفقا على نزع سلاح المنطقة بأسرها ، وعدم بناء التحصينات ، كما اتفقوا على قسمة عائدها فيما بينهم ، بحيث تأخذ سوريا ثلث عائد الأراضى الزراعية ، ويأخذ الصليبيون الثلث الثانى ، على حين يكون الثلث الأخير من نصيب الفلاحين القائمين بالعمل الفعلى فى الحقول . وكانت هذه المقاطعة تمتد جنوباً حتى قرب نهر اليرموك ، أو إلى الحد الجنوبى الذى كانت سوريا تستطيع أن تتدخل عنده بشكل مؤثر وفعال . وعبر اليرموك استولى الصليبيون على الأراضى التى كانت تحت السيادة الإسمية لدمشق . ومع بداية سنة ١١١٥ كان الصليبيون قد تغلغلوا فى أرض جلعاد وعمون القديمة (شرق الأردن) ، وعلى الرغم من جدب هذه المنطقة الآهلة بالسكان ، وخلوها من المراعى ، فقد لعبت دوراً هامًا فى استراتيجية الشرق

الأدنى واقتصاده . ذلك أن موقعها الجغرافى السياسى ، عند مفترق الطريق المؤدية إلى العراق وسوريا والحجاز ونهاية طريق سيناء المصرية جعل من الطريق الصحراوى فى المنطقة طريقًا رئيسيًا وعامًا .

وسرعان ما أعلنت الحصون الإسلامية المتناثرة ، والبعيدة عن القدرة الفعالة لكل من سوريا ومصر ، خضوعها . وهنا أقام الصليبيون حدودهم ولم يقيموها عند مياه نهر الأردن الضحلة . ذلك أنهم أقاموا خطا من التحصينات يبدأ من وادى نهر اليرموك فيما بين عمان والعقبة ، وصارت القلعتان الضخمتان ، الكرك والشوبك (التى سميت مونتريال) وعدد من القلاع الصغيرة ، مقار الحاميات الصليبية . وعلى الرغم من أن عشر قلاع لايمكن أن تؤمن مساحة من الأرض تمتد على طول حوالى مائتين وخمسين ميلا ، فإن مواقع هذه القلاع عوضتها من حيث الكيف عما كانت تفتقر إليه من حيث الكم . فقد كانت قلاع منطقة شرق الأردن والتى كانت تقام عادة على أطلال القلاع القديمة ، قد نسقت على طول الممر الوحيد الممتد من الشمال إلى الجنوب فى منطقة شرق الأردن . وكانت الجيوش أو القوافل المتجهة من دمشق أو مصر أو بغداد إلى الحجاز تضطر إلى اتخاذ هذا الطريق الرئيسى ، فضلاً عن أن المواقع الحصينة كانت تستخدم كأماكن للتزود بالمياه . وكان هذا الطريق بعينه هو طريق الحج المؤدى إلى مكة والمدينة ، وكان يعرف باسم "درب الحج" . وقد أدى توطد الوجود الصليبى فى منطقة شرق الأردن إلى سيطرتهم على واحد من أهم الشرايين التجارية والعسكرية بالنسبة للمسلمين . فضلا عن أن الأهمية الاستراتيجية لهذا الدرب قد تزايدت حين توحدت مصر وسوريا ، وانقطعت حلقة الوصل بين أراضيهما بسبب وجود الإسفين الصليبى فى شرق الأردن .

ولقد صارت سياسة اختيار الحدود الطبيعية (الصحراء) للفصل بين أراضى الصليب وأراضى الهلال موضوعًا رئيسيا فى حياة الجزء الغربى من المملكة الصليبية . وكانت السيادة الصليبية الفعالة تمتد حتى يافا على الساحل حيث الميناء الطبيعى الذى يخدم مدينة بيت المقدس ، وعند مدينة عسقلان كانت تتوقف هذه السيادة . وقد سقطت هذه المدينة القديمة الشهيرة (يافا) بعد احتلال القدس مباشرة ، ولكن الصليبيين أهدروا الفرصة المتاحة لهم ، فلم تسقط عسقلان إلا بعد خمسة وخمسين عاما ، وبعد جيلين من المحاولات المستميتة . فقد كانت هناك حامية مصرية تتولى الدفاع عن المدينة التى لم يكن القادة المصريون أو الصليبيون بغافلين عن أهميتها . فبالنسبة للقيادة المصرية كانت عسقلان نقطة عسكرية أمامية ، ومركزاً متقدماً يسمح بتركيز الإمدادات والقوات فى قاعدة ممتازة عبر الصحراء ، ومن هناك يسهل

الهجوم على حبرون (الخليل) وبيت لحم والرملة ويافا ، كما يسهل فصل القدس عن الساحل. والحقيقة أنه خلال العقد الأول من حكم الصليبيين هاجم المصريون المواقع الصليبية عدة مرات وتقدموا داخل سهل الرملة واللد ، ولكنهم لم يحرزوا نجاحًا كاملاً ، كما أن هجومهم على يافا باء بالفشل نظراً للقصور فى التعاون والتوقيت بين حامية عسقلان والبحرية المصرية . وفى سبيل الحفاظ على عسقلان ، وضمان وصول القوات الجديدة المقاتلة كان المصريون يغيرون على حامية المدينة أربع مرات سنويا . وعندما خرب الصليبيون الريف الزراعى اضطر المصريون إلى تقييد كل مولود فى المدينة فى بيان الرواتب العسكرية الخاصة بهم .

وحتى قبل أن تسقط عسقلان كان الصليبيون يتغلغلون فى أعماق الصحراء ودمروا واحة العريش أكثر من مرة ، بل وتقدمت بعض الحملات حتى الفرع الشرقى لنهر النيل ، ولكنها لم تحقق نتائج ملموسة . وحتى الآن يطلق اسم بلدوين الأول الملك الصليبى الباسل والذى حاول السيطرة على الطريق الصحراوى إلى مصر ، على سيخة البردويل والبحيرة التى تحمل إسمه محرفا . وعند بداية القرن العشرين كان بدو شمال سيناء مايزالون يروون القصص عن العملاق الأشقر بردويل .

وعندما وصلت المملكة الصليبية إلى قمة اتساعها ، وبلغت حدودها الطبيعية ، بدأ المسلمون يجابهون التحدى الصليبى . وقد أثبتت السنوات الخمسون التى تلت قيام المملكة الصليبية أن الإمارات الصليبية كانت عاجزة تماماً عن التعاون فى خلق جبهة موحدة . كما أثبتت هذه السنوات أن مصر بكل مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية لم تكن ندا للأوربيين . ومن وقت لآخر كانت الإمارات السورية تعقد بعض الاتفاقيات مع مصر رغبة فى العمل المشترك ، ولكن هذا التحالف سرعان ما كان ينفصم بنفس السرعة التى تم بها . والحقيقة أن الأمراء كانوا يشكون فى بعضهم البعض ، وقد منعهم هذا الشك من الاتحاد فى جبهة عامة ضد الصليبيين وبمجرد أن أقيمت الحدود بين الهلال والصليب حول المنخفض الكبير الممتد من جبال طرسوس حتى البحر الميت تقريبا (باستثناء مملكة بيت المقدس التى ضمت شرق الأردن) برز إلى الوجود نوع من توازن القوى .

ولم يبدأ رد الفعل الإسلامى من سوريا أو مصر ، وإنما من الموصل ، وكان حكام الموصل يدينون بالولاء للسلطان السلجوقى فى فارس ، إذ أنهم كانوا نوابه فى الشطر الغربى من الإمبراطورية . وبهذه الصفة كانوا يسيطرون على الإمارات السوريتوالعراقية ، بل وعلى الخليفة العباسى نفسه فى بغداد . وحاولوا باسم الخليفة والسلطان أن يحصلوا على تعاون

حكام سوريا المسلمين ، كما شنوا عدة حملات عسكرية ضد جيرانهم الصليبيين المباشرين فى الرها وفى أنطاكية . بيد أن نتائج هذه الحملات لم تكن مرضية . وكان السبب فى ذلك أن الأمراء المسلمين انتابتهم الشكوك والوساوس ، عن حق ، فى تدابير حكام الموصل وأتباعهم فى ممتلكات الأمراء واستقلالهم . ومع ذلك تمكن قادة جيش الموصل بفضل تحالف عسكرى كبير سنة ١١١٣ أن يكسبوا معركة ضد الصليبيين قرب بحر الجليل وتمكن المسلمون من حصار القوة العسكرية الكاملة للملكة الصليبية ، بيد أن عدم القدرة على الاحتفاظ بجيش غير متجانس لفترة أطول من ذلك ، حرم المسلمين من إحراز نصر ساحق . ومما زاد فى وطأة هذا الفشل أن السكان حين رأوا جيشا مسلما ضخما فى الأرض المقدسة ، ثاروا على الصليبيين ليقدموا مساعدتهم لما كان يمكن تسميته آنذاك جيش التحرير الإسلامى .

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فإن شيئا ما أخذ يتغير داخل المعسكر الإسلامى فمن ناحية آثار تدفق اللاجئين إلى المقاطعات الإسلامية فى أعقاب الغزو الصليبى مشاعر الاستياء ضد القيادة الإسلامية . وفى البداية علت أصوات الاستياء على منابر المساجد فى صلاة الجمعة ، وسرعان ما حظيت الحركة بتأييد شعبى قوى لتصبح فكرة الجهاد ضد الكفار بمثابة صرخة التجمع للقوات الإسلامية . لقد تقبل المسلمون فكرة وجود بيزنطة المسيحية والتعايش معها كحقيقة واقعة على حين ظلت فكرة الجهاد المتواصل لإقامة الدين الحق رهينة الكتب فقط ، وهو أمر أشبه بالفكرة الحديثة عن الثورة الدائمة لإقامة النظام السياسى الوحيد العادل والصحيح . والآن انقشع الغبار عن فكرة الجهاد ، وسطرت الكتب التى تتناول واجب الجهاد ، كما دبجت الرسائل التى تداولها الجميع عن قدسية بيت المقدس .

وقد استغل زنكى ، وهو أحد الحكام المسلمين الموهوبين ، هذا البعث الأيديولوجى . فقد قامت المدارس والعلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخ للرأى العام كان من المتعذر فى ظله أن يتجنب الأمراء السوريون المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضته المملكة الصليبية . وقد نجح زنكى تدريجيا فى التغلب على القوات المنعزلة فى كل من سوريا والعراق . وفى سنة ١١٤٤ شن زنكى هجوما ناجحا على الرها واستولى على عاصمة أول دولة صليبية قامت على تراب الشرق .

وكان سقوط الرها نذير شؤم وصدمة نفسية مؤلمة ، إذ أنه كان يعنى أن مقاطعة أنطاكية الواقعة إلى الشمال الغربى من الرها ستكون محطا للضغط المتواصل من جانب المسلمين على حدودها ، كما بات من المتوقع أن تزداد الغارات الإسلامية عليها بعد زوال خطر القوات

الصليبية فى الرها . وفى سنة ١١٤٦ جرت محاولة فاشلة من جانب الصليبيين لاسترداد المدينة ، اذ تمكن واحد من النجوم الطالعة فى سماء السياسة الإسلامية من إعادة احتلال الرها ، وهو نور الدين محمود خليفة زنكى ووريثه . ولكن على الرغم من انتصاره الباهر ، لم يكن فى قدرة نور الدين محمود أن يشن هجوما شاملا على المملكة الصليبية . ذلك أن سيطرته على الإمارات السورية والعراقية لم تكن قد استقرت بعد ، بل إن الأمر ازداد سوءا بسبب المعارضة السورية الشرسة . فقد كانت العاصمة السورية قد وصلت إلى حال من التعايش السلمى مع جيرانها الصليبيين ، مما أكد استقلالها السياسى ومركزها الاقتصادى . وبمرور الوقت وجدت دمشق فى الصليبيين جارا يوثق به وحليفا فى بعض المناسبات يعتمد عليه أكثر من الجيران المسلمين . وعلى هذا لم تكن المملكة الحاكمة فى دمشق ، والتى ربطت نفسها بمصالح إقليمية أكثر من ارتباطها بالسياسة السلجوقية ، راغبة فى أن تتحرر على أيدى قوات زنكى . أو نور الدين لتجد نفسها وقد انضمت إلى أملاك أسرة زنكى . لقد فضلت دمشق أن تحتفظ باستقلالها . وعلى مدى جيلين وجدت الأسرة الحاكمة فى دمشق تأييداً من المواطنين لسياستها . وكان من الطبيعى إذن أن تصير دمشق بؤرة المعارضة المضادة لزنكى . وفى هذه الظروف مد الصليبيون يد العون أكثر من مرة لدمشق عندما كان يهددها زنكى أو نور الدين . ولم يكن الأخير بقادر على أن يغزو المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره دمشق التى لا يثق بها ، كما أن قرب الصليبيين كان يحول دون فرض أى حصار على العاصمة السورية .

ومن الغريب أن الصليبيين هم الذين قاموا بتقويض هذا الترتيب الذى كان يناسبهم تماما ، فقد كان سقوط الرها يمثل التحدى الأكبر لأوربا المسيحية . وكان من الغريب ، بل ومن الظلم، أن تهزم دولة مسيحية على أيدى الكفار ، وأن يضيع الإيمان الحقيقى (المسيحية) فى المواجهة. وانطلاقا من هذه الرؤية تحركت أوربا يدفعها شعور بالعار ، والرغبة فى الانتقام وتصحيح الخطأ . وكان بطل هذه القضية هو البابا إيوجنيس الثالث Eugenius III . ولكن الرجل الذى وضع الجيوش على الطريق إلى الشرق حقا كان هو برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux فقد تجمعت الجيوش فى فرنسا وألمانيا تحت قيادة ملكيهما لويس السابع وكونراد الثالث استجابة لدعوته . وفى سنة ١١٤٨ وصلت الحملة الصليبية الثانية إلى الأرض المقدسة وكان الجميع يتوقعون أن يقوم الفرسان الأوربيون والجيوش الصليبية بشن هجومهم على الرها بغية استردادها عاصمة وإقليما . ولو أن الهجوم كان قد بدأ من أنطاكية فعلا لتوقف تيار نور الدين الصاعد .

ولكن ما حدث بالفعل كان أسوأ ما يمكن للمرء أن يتوقعه ، فقد قرر الملوك الأوربيون والصليبيون الهجوم .. ولكن على دمشق ! وكانت هذه الخطوة من الغرابه لدرجة أن المؤرخين حتى يومنا هذا يناقشون الأسباب التى أتت بجيوش الحملة الصليبية الثانية إلى أسوار دمشق؟ وعند هذا باتت الأحداث أكثر اضطراباً وغموضاً ، ذلك أن الجيوش المحاصرة قد أجبرت على التقهقر بشكل مخز وانسحبت بعد أربعة أيام من القتال كانت قد أحرزت أثناءها نصراً أولياً . واتهم القادة الأوربيون الصليبيين صراحة بقبول رشوة دمشق لإحباط الحصار، وانتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل على حين بقيت الرها مدينة إسلامية . هذا التخبط السياسى هو الذى دفع بدمشق إلى الارتماء بين ذراعى نور الدين محمود المفتوحتين فى سنة ١١٥٤ . وزاد من حرج الفشل الصليبى ووطأته موجة النقد الأوربية التى حالت دون شن هجوم صليبى جديد على الرغم من جهود برنار الكليرفوى وسوجير السان دونى Suger de St. Denis .

وفى الشمال الإسلامى كان الصليبيون يواجهون قوة متحدة متماسكة أكثر من ذى قبل . وقد دفعهم هذا إلى عقد علاقة مباشرة مع بيزنطة التى كانت تبدو حتى ذلك الحين كمنافس أكثر من كونها حليفاً . وكان الطرفان على استعداد للإتفاق واعترف الصليبيون بالسيادة البيزنطية على أنطاكية ، وقبلوا لفترة قصيرة وجود بطريرك بيزنطى للمدينة . كما جدد الامبراطور مانويل كومنينوس الأول Manuel I Comnenus الأبنية الكنسية فى المملكة وقام على زخرفتها وتزيينها . ولم تكن الأديرة البيزنطية هى الوحيدة التى تم تزيينها وتجديدها ، إذ غطى صحن وجناح كنيسة الميلاد فى بيت لحم بالفسيفساء اللامع البراق ، كما امتد اهتمام الامبراطور إلى داخل كنيسة القيامة ، وبدت الكتابات اليونانية واللاتينية المنقوشة وكأنها تدخل بنا فى روح تحالف مسكونى بين أكثر الممالك أرثوذكسية وأشدها كاثوليكية .

وفى الشمال أجبرت الجبهة الإسلامية الصامدة الفرنجة على الاتجاه جنوبا . وكان الوقت مناسبًا لذلك . فقد كانت مصر آنذاك بمثابة الرجل المريض على ضفاف النيل ، إذ كانت الخلافة الفاطمية عارية إلا من بعض ظلال قوتها السابقة ، فقد توالى تغير الوزراء الحاكمين لمصر فى إيقاع سريع من الانقلابات والفتن وارتقاء كرسى الحكم عن طريق الاغتيال ، وكان تقدم الصليبيين فى سنة ١١٥٠ الى غزة الواقعة على طرف الصحراء يشير الى الاتجاه الصليبى إلى مصر . ثم حدث أيضًا الهجوم الصليبى على العريش سنة ١١٦١ وبدأت مصر فى أعقابه تدفع إتاوة سنوية للصليبيين ، وأخيراً حانت فرصة التدخل فى سنة ١١٦٣ عندما لجأ أحد الوزيرين

المتنافسين فى القاهرة إلى أماليك Amalric (أمورى) ملك بيت المقدس طالبا مساعدته . وخلال السنوات الست التالية غزا الصليبيون مصر خمس مرات . وكانت هناك فرصة طيبة لوقف الخطر المصرى كما حدث مع دمشق من سنوات قليلة مضت ، وإذا لم يقبل الجار الجنوبى للصليبيين (أى مصر) أن يكون حليفا لهم ، فإن حياده على الأقل سيؤدى إلى موازنة الخطر الشمالى . وعلاوة على هذا كانت بيزنطة على استعداد للتعاون مع الصليبيين ، كما كان أسطولها على أهبة الاستعداد للتحرك صوب مصر . بيد أن هذا التحالف المسيحى لم يدم طويلاً ، إذ كان الصليبيون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يحرزوا النصر وحدهم وأن ينفردوا بثماره .

وقد أدى التدخل الصليبى لصالح أحد الوزيرين المتنافسين فى مصر بالوزير الآخر إلى البحث عمن يحميه ، فأرسل البعثات الدبلوماسية العاجلة إلى نور الدين محمود الذى لم يكن راغبا فى التدخل ، ولكن مساعده شيركوه قائد فرق الجيش السورية والعراقية اجتاز القلاع الصليبية فى شرق الأردن من طريق جانبى وشق طريقه إلى مصر . ودار القتال على الأرض المصرية بين جيوش نور الدين محمود الإسلامية والصليبيين . بيد أن النصر النهائى لم يكن من نصيب أى من الجانبين . وقد رفرفت أعلام الصليبيين فوق القاهرة ، كما شوهدت تحت أسوار الاسكندرية ، ولكن القصة التى دارت على أرض مصر انتهت بفشل ذريع للصليبيين الذين أساءوا التصرف وازدادت مطالبهم المالية، بل وفكروا أيضا فى ضم مصر إلى أملاكهم . وهو أمر لم تكن الجماهير المصرية لتقبله . وفى الوقت الذى كان فيه القتال دائرا بين القادة على السلطة كانت جماهير المصريين فى شغل عن القتال . وانتهى الوجود المسيحى فى مصر ولقى شيركوه تأييدا شعبيا متزايدا ، واضطر الصليبيون إلى الانسحاب وإن ظل حكم مصر سرابا يجذبهم نحوه بين الحين والحين .

ولم تؤد هذه الحملات المجازفة إلى تقلص الموارد العسكرية والمالية للمملكة اللاتينية فحسب ، وإنما أدى فشلها إلى تغيير خريطة الشرق الأوسط . إذ أن شيركوه صار وزيرا لمصر . وبعد موته سنة ١١٦٩ خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذائع الصيت . وبعد عامين عندما توفى الخليفة العاضد انتهت الخلافة الفاطمية عام (١١٧١) ، وتم فى مصر الاعتراف رسميًا بالخليفة العباسى فى بغداد . وعلى العكس من جميع التوقعات لم تتحد مصر وسوريا ضد الصليبيين. فخلال السنوات الأخيرة من حكم نور الدين محمود الذى توفى سنة ١١٧٤ كان التوتر قد تصاعد بين الحاكم السورى وصلاح الدين مساعده الذى يحكم مصر . وكان على هذه

الوحدة بين مصر وسوريا أن تنتظر حتى يتم خضوع سوريا والعراق للجيش المصرى تحت قيادة صلاح الدين .

كان صلاح الدين بطل التاريخ الإسلامى زعيمًا وقائداً عسكريا متوسط القيمة ، كما كان رجل دولة موهوبا ، كريما مع الصديق والعدو محبا للغير يبعث على الثقة . وكان صلاح الدين يجسد الأخلاق الإسلامية فى عيون المسلمين ، فهو الزعيم المثالى للحرب المقدسة ضد الكفار . ولكنه قبل أن يبدأ الهجوم على المملكة الصليبية وبعد أن نالته هزيمة مؤلمة فى إحدى المعارك سنة ١١٧٧ ، بدأ صلاح الدين فى غزو سوريا الإسلامية واحتل دمشق فى سهولة . ولم يعترف حاكم سوريا بالحاكم الجديد إلا بعد عشر سنوات . وظلت حلب بمعاونة الصليبيين فى أنطاكية بعيدة عن متناول صلاح الدين حتى سنة ١١٨٣ . وعندئذ ، وبعد أن دعم صلاح الدين قوته بدأ استعداداته للمواجهة الشاملة مع الصليبيين.

وحاول الصليبيون مع القوى المعارضة فى مصر أن يحيكوا خيوط مؤامرة تطيح بصلاح الدين ولكنهم باءوا بفشل ذريع . كما أنهم قاموا بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء ووصلوا إلى بحيرات السويس ، على حين قاموا بشن غارات أخرى على تيماء فى شمال الحجاز . وكانت أجرأ حملة هى تلك التى نظمها رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon زوج الملكة السابقة لانطاكية ، والذى كان أسيراً لمدة سبع عشرة سنة ، وصار زوجًا للملكة الحاكمة أنذاك على شرق الأردن ، وهى السيدة إيشيف Eschive . وفى شرق الأردن راودته فكرة خطة جريئة لاقتحام البحر الأحمر وربما غزو مكة والمدينة على الرغم من أن هدفه النهائى كان هو التحكم فى حركة المرور الدولية بين آسيا ومصر عن طريق باب المندب . وفى سنة ١١٨٢ بنى أسطولا فى قلعة الكرك الصحراوية ونقله مفككا لمسافة تقرب من مائة وخمسة وعشرين ميلا عبر الطريق الصحراوى إلى خليج العقبة حيث تم تركيبه وإنزاله إلى مياه البحر الأحمر . وتم احتلال جزيرة فرعون الصغيرة المواجهة للعقبة ، ثم أعقبت ذلك غارة متعرجة نهب الصليبيون أثناءها بعض الموانئ المصرية والحجازية . ومضت أسابيع قبل أن ترد مصر المباغتة ، عندما تمكن الأسطول المصرى من رصد موقع الصليبيين فى صحراء الحجاز ، وكان الصليبيون قد توغلوا إلى مسافة تقرب من المدينة .

وفى الوقت الذى كان فيه أحد بارونات الصليبيين ينظم سياسته الخارجية ، كانت الخلافات الداخلية تنهش بمخالبها المملكة الصليبية ، إذ تمزقت المملكة بين ريمون أمير طرابلس الذى كان يمثل طبقة النبلاء الصليبيين الأوائل وبين جاى دى لوزينان Guy de Luisignan الذى كان

واحدا من القادمين الجدد ، واعتلى عرش المملكة باعتباره زوجا لسيبيل Sybille وريثة العرش، ونظرا لمعارضة الأرستقراطية الصليبية لم يجد ملك بيت المقدس الشجاع ، وربما غير الحكيم ، الوقت اللازم لفرض سيادته قبل أن يخترق صلاح الدين مرتفعات الجولان عند طبرية عاصمة الجليل . وعلى الرغم من الخلاف التف الصليبيون حول مليكهم . ولكنهم بدلا من أن ينتظروا لملاقاه المسلمين فى موقعهم الاستراتيجى الممتاز فى الجليل اتبعوا نصيحة متهافتة وتحركوا باتجاه بحر الجليل لنجدة المدينة المحاصرة . وفى يوم ملتهب من أيام الصيف ، ٤ يوليو سنة ١١٨٧م وقع الصليبيون فى كمين فى سهل صغير مغلق فى قرون حطين . وتبدد الجيش الصليبى عن بكرة أبيه بين قتيل وأسير . وكان عدد مقاتليه حوالى ألف ومائتى فارس بما فى ذلك فرسان الرهبنات العسكرية ، وحوالى ألف من المشاة . وكانت هذه هى كل القوة العسكرية المتاحة للمملكة . وماتلا هزيمة الصليبيين فى حطين كان شيئًا أشبه باستعراض عسكرى أكثر منه حملة عسكرية . فقد أخذت المدن الصليبية تفتح أبوابها الواحدة بعد الأخرى، كما سلمت القلاع والحصون تباعا استجابة لدعوة صلاح الدين الذى خير قاطنيها بين الرحيل أو التوجه إلى ماتبقى من أراضى المسيحية . وفى الثانى من أكتوبر سنة ١١٨٧ ، أى بعد ثمانية وثمانين عاما من السيادة المسيحية فتحت بيت المقدس أبوابها لصلاح الدين . وبعد شهور قليلة لم يكن قد تبقى بأيدى الصليبيين سوى صور وأنطاكية وطرابلس فى الشمال وبعض القلاع المتناثرة . وبدا واضحا أن الساعة الأخيرة فى عمر المملكة الصليبية قد بدأت دقاتها .

وجاء رد الفعل الأوربى . فلم يكن ضياع القدس مجرد فقدان عاصمة ، وإنما كان فقدانًا لأكبر رمز محسوس للدين وهو الضريح المقدس . لقد صار قبر المسيح فى أيدى الكفار مرة أخرى . ومن ثم انطلقت الدعوة إلى خروج صليبى جديد فى شتى أرجاء الغرب الأوربى ، وتزعم هذه الدعوة ملوك العالم المسيحى الغربى حيث تولى الامبراطور فردريك الأول بربروسا قيادة القوات الألمانية وهو فى السبعين من عمره . كما قاد ريتشارد قلب الأسد ، ملك انجلترا ، الفرسان الأنجلو - نورمان والأكويتانيين ، على حين كان فيليب أوغسطس زعيم آل كابيه يقود قوات فرنسا . وتحرك أيضًا إلى الشرق عدد كبير من ألمع نبلاء أوربا . ومضى عامان قبل أن تصل بعض قوات هذه الحملة الصليبية إلى شواطئ الأرض المقدسة من عدة طرق مختلفة . فقد اتخذت الحملة الألمانية الطريق البرى بمقتضى بعض المعاهدات مع حكام المجر وبيزنطة وقد تكبدت الحملة خسائر جسيمة عند عبورها إلى آسيا الصغرى ، وإن غرق الإمبراطور المسن فى مياه نهر كاليكاندوس Calycandus فى أرمينيا الصغرى أكبر خسارة

لحقت بهذه الحملة قبل وصولها إلى شمال سوريا ، وهكذا تدهورت معنويات الجيش الألمانى بشكل تعذر معه على دوق سوابيا أن يصل ببقية الجيش الألمانى إلى الأرض المقدسة . أما ريتشارد وفيليب أوغسطس فقد سلكا طريقين بحريين مختلفين وتقابلا فى صقلية حيث أمضيا شتاء سنة ١١٩٠-١١٩١ وهناك اختلفا سوياً حول الصراعات المحلية ، وتبادل الإثنان المنافسة التى كانا قد طرحاها جانبا بشكل رسمى يوم أن قررا المشاركة فى الحملة الصليبية ، ثم أبحرا سوياً سنة ١١٩١ . وكان ريتشارد هو الثانى فى الوصول ، لأنه استولى على جزيرة قبرص من حاكمها البيزنطى وهو فى الطريق إلى عكا . وربما تكون السنتان ونصف السنة التى مضت فيما بين سقوط بيت المقدس ووصول فرق الحملة الصليبية الثالثة قد قضت على كل أمل فى استرداد القدس ، إلا أن كونراد مونتفرى Conrad of Montferrat ، الذى أبحر من القسطنطينية ، ونجا من الوقوع أسيرا فى عكا بأعجوبة ، ثم دخل ميناء صور التى كانت المدينة الوحيدة الباقية بأيدى الصليبيين .. هذا الرجل وجد فى صور أولئك الذين نجوا من سيف صلاح الدين وأولئك الذين سمح لهم القائد المسلم بالعودة إلى الأراضى المسيحية كشرط من شروط معاهدة التسليم . كانت مدينة صور بلا قائد ، فقام كونراد فى الحال بإعادة تنظيم سبل الدفاع عن المدينة ، وقاوم فى شجاعة تهديدات صلاح الدين والحصار الذى فرضه على المدينة . وفى الوقت نفسه بدأ جاى دى لوزينان ملك القدس التعس ، والذى كان قد أسر فى حطين ثم فك أسره مقابل وعد شرف ، ينظم فلول القوات الصليبية الهزيلة ناكثًا عهده مع صلاح الدين . وأغلقت أبواب صور فى وجهه وفقًا لأوامر مونتفرى ، ولكن فرقته الصغيرة تحركت فى جساره إلى سهل عكا حيث اتخذت مواقعها فى مواجهة المدينة فى سنة ١١٨٩ . وهكذا باتت صور وخليج عكا بمثابة رأس الجسر للحملة الثالثة .

ومع وصول دوق سوابيا فى خريف سنة ١١٩٠ بدأت أعداد الجيوش الصليبية تتزايد . وتضخم عددها بوصول القوات الفرنسية فى ربيع سنة ١١٩١ ، ثم تلتها القوات الأنجلو نورماندية بعد شهرين . وهكذا أصبحت عكا التى ضيق الصليبيون الخناق عليها على مدى عامين هى محور تاريخ الشرق الأدنى والتاريخ الأوربى . لقد حوصرت المدينة من البحر كما أحاط بها الصليبيون من جهة البر . وضيق عليهم صلاح الدين الحصار بجيوشه التى كان يعسكر بها من شاطئ إلى شاطئ فيما يشبه نصف الدائرة الضخمة . وعلى الرغم من جهود صلاح الدين للدخول إلى المدينة المحاصرة بقوات جديدة وإمدادات ، فإن المدافعين عنها لم يتمكنوا من الصمود أمام الهجمات الصليبية . واستسلمت المدينة فى يوليو ١١٩١ وصارت عكا هى الانتصار الأول للحملة الصليبية الثالثة ، أو حملة الاسترداد . ومن سوء الحظ أن

فتح المدينة أعقبه فى التو رحيل الجزء الأعظم من الجيش إلى الوطن . ولم يبق من القادة سوى ريتشارد الذى ظل عاماً كاملاً أحرز فيه انتصارا باهرا على صلاح الدين فى أرسوف واستعاد المدن الساحلية حتى يافا فى الجنوب . كما وصل إلى منطقة قريبة من أسوار بيت المقدس بيد أنه لم يستطع أن يسترد المدينة ذاتها .

وعندها بدأ المعسكران الإسلامى والصليبى يحسان بوطأة النفقات الهائلة من ناحية القوى البشرية والموارد المالية إبان الحملة الصليبية الثالثة . كما أن ريتشارد لم يتمكن من البقاء فى الأرض المقدسة تحت ضغوط الأخبار القادمة من انجلترا . كذلك كانت موارد صلاح الدين المالية والبشرية آخذة فى الضعف ، كما تململت فرق الجيش من طول فترة الحرب . وعلى هذا وقع الطرفان ، فى سبتمبر ١١٩٢ معاهدة سلام ثبتت الحدود تقريبا على ماهى عليه . وهكذا ولدت مملكة القدس الثانية كقطاع ضيق من الأرض يلتصق بالساحل ويمتد من بيروت حتى يافا. وبقيت القدس ، هدف الحملة الصليبية الثالثة ، مدينة مسلمة . وكانت المنطقة الوحيدة التى اتسعت فيها المملكة عرضا فيما بين يافا والرملة على طول الطريق الرئيسى إلى المدينة المقدسة البعيدة المنال .

وسرعان ماتحولت التوقعات الكبيرة التى كانت منتظرة من الحملة الصليبية الثالثة إلى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية . ذلك أن العامين اللذين استغرقتهما الجهود الأوربية لم تكن لتقارن بالإنجازات الهزيلة التى حققتها الحملة . وعندئذ تحول النقد الانتقامى إلى تحليل جاد ، وبدأت الشكوك تساور البعض حول الإلهام الإلهى الذى يزعمه الصليبيون ويدعونه . وعلى الرغم من هذه الأزمة الايديولوجية ، فقد تم تنظيم عدد من الحملات الصغيرة قرب نهاية القرن الثانى عشر من أجل تدعيم موقف المملكة الصليبية وفى محاولة فاشلة لمد السلطة السياسية فوق أراضى الشرق . وفى أثناء إحدى هذه المحاولات تم ضم بيروت إلى المملكة . ومن الناحية الموضوعية بدا الموقف مناسبا ، ذلك أن وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٥ أدت إلى تفسخ امبراطوريته فى الحال . لقد كان هو الرجل الذى يحفظها من التفسخ ، ولم يكن ثمة مبدأ متوارث أو تناسق داخلى يجمع أطراف هذه الإمبراطورية . وانتهج الأيوبيون فى كل من سوريا والعراق واليمن سياسات مستقلة ، على حين اعترفوا بالسيادة الاسمية لحاكم القاهرة . ومزقت الأحقاد والمنازعات القديمة الوحدة التى كان تحقيقها قد تم فى مشقة . وفى هذه الظروف بدأت أوربا استعدادها لحملة جديدة بتحريض من البابوية والصليبيين وكانت الحملة الرابعة الشهيرة .

لقد استترت تقلبات أحداث الحملة الصليبية الرابعة منذ بدايتها حتى نهايتها المأساوية خلف ضباب كثيف من الحيرة والشك ، وكان الأب الروحى للحملة هو إنوسنت الثانى الذى يعتبر أعظم بابوات العصور ، كما كان قادة هذه الحملة ينتمون إلى أكبر الأسرات الحاكمة فى أوربا ، مثل ثيوبولد الشمبانى Theobold of Champagne وفيليب حاكم سوابيا وبونيفيس مونتفرى . وكان هدف هذه الحملة هو الغزو المباشر لمصر ، وفى سنة ١٢٠١ ، وبعد عدة سنوات من الاستعداد ، تجمع الصليبيون فى ميناء البندقية . وبعد عام كان الصليبيون يفرضون حصارهم على .. القسطنطينية العاصمة المسيحية !! وقد استمرت الاتهامات والاتهامات المضادة بعد احتلال القسطنطينية ، ولم تخمد حتى يومنا هذا . ويلقى المؤرخون باللوم على فظاظة الألمان ، وأطماع بارونات الشمال ، وعلى أحد المطالبين بعرش بيزنطة . ولكنهم أيضا يلقون باللوم على البندقية أولا وقبل كل شىء .

والأحداث الرئيسية واضحة ، بيد أن الدوافع تترك مشكلة المسئولية دونما حل . فقد تم التخطيط للحملة على أساس أنها سوف تسلك الطريق البحرى تجنبا للصعوبات التى واجهتها الحملات السابقة عند عبور آسيا الصغرى . وتم النقل على متن أسطول بندقى بنته جمهورية البندقية وتكفل الصليبيون بنفقات إنشائه . وعندما توجهت مختلف الفرق الصليبية إلى البندقية فى خريف سنة ١٢٠١ ، بات واضحا أن تكاليف الانتقال تفوق طاقة الصليبيين . ومع ذلك نفذ البنادقة ما عرضوه من خدمات ، بيد أن المكافأة اختلفت فى ماهيتها : فقد طلبوا الاستيلاء على مدينة زارا Zara المجرية على البحر الأدرياتى (وكانت هذه شوكة فى حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتى) ووافق الصليبيون وتم الاستيلاء على زارا التى كانت مدينة مسيحية فى مملكة مسيحية . وتلا هذا التحرك قرار مصيرى آخر . فمنذ سنوات كان إسحق الجلوس الثانى امبراطور بيزنطة قد عزل عن عرشه على يد اليكسيوس الثالث ، وحاول اليكسيوس الرابع الجلوس ابن الامبراطور المخلوع الحصول على مساعدة البلاط الإلمانى فقابل الجيوش الصليبية فى زارا ، وأقنع قادتها بغزو القسطنطينية ، وإعادته إلى السلطة واعدا الصليبيين بأن يضع موارد بيزنطة تحت تصرفهم إذا ما استعاد العرش الإمبراطور ، فضلا عن المكافأة السخية التى وعد بها الجيوش المحررة . وقد وجدت البندقية فى هذه الفكرة فرصة عظيمة لتوطيد نفوذها فى بيزنطة ، وبذلك تتم لها السيطرة على أعظم المراكز التجارية الرئيسية فى العالم . وقد وجد هذا المدعى البيزنطى تأييداً بين الألمان حيث كانت زوجته ايرين أخت فيليب ملك سوابيا . ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل هذه المصالح المكتسبة ، لم يكن ممكناً اتخاذ هذا القرار المعادى لبيزنطة لولا حالة العداء الدائم بين الغرب والإمبراطورية

البيزنطية . وبدأ دخان هذه الكراهية فى الظهور خلال الحملة الصليبية الأولى ، وسرعان ما تأججت نيرانها فى عداوة صريحة إبان الحملة الصليبية الثالثة ، عندما وجه الصليبيون اتهامهم لبيزنطة ، بصراحة ، بمساعدة صلاح الدين .

وعلى الرغم من أن الفكرة الأساسية ربما كانت أولاً إجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمساعدة المملكة الصليبية ، فإن الحملة نفسها غيرت من هدفها . فما أن حل الصليبيون بالقسطنطينية حتى تم إبعاد مغتصب العرش ، وصار اليكسيوس الرابع أنجلوس صنيعة الصليبيين حاكما على الإمبراطورية فى يوليو سنة ١٢٠٣ ، وعندما تهرب من وعوده بالمكافأة عصف الصليبيون بالمدينة فى ابريل سنة ١٢٠٤ واقتحموها ، وصار بلدوين أمير الفلاندرز هو أول امبراطور للإمبراطورية الجديدة : الإمبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية . وأصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى لها . وتم تقسيم الإمبراطورية مثل سائر الأسلاب والغنائم فيما بين المنتصرين ، وأسست البندقية امبراطوريتها البحرية فى بحر ايجه .

وهكذا وجد البناء الصليبى فى القسطنطينية ، وحكم آل لوزينان مملكة قبرص المستقلة التى اعترفت بسيادة الإمبراطورية الرومانية ، كما فعلت أرمينيا الصغرى (الذى تلقى حاكمها تاجه من سفراء الإمبراطور) . ومن الناحية النظرية كان بوسع هذه الممالك أن تعمل كقواعد لمساعدة مملكة بيت المقدس المزعزعة الأركان . ولكن الأمور كانت تختلف تمامًا على المستوى العملى ، إذ كان لكل مملكة مشاكلها الخاصة بها . وافتضح أمر أوربا لهجومها على إمبراطورية مسيحية . وأخذ الراغبون فى الرحيل يفضلون التوجه إلى قبرص أو القسطنطينية الأكثر ثراء وأقل خطرا من الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة .

وفى الوقت نفسه تمتعت المملكة اللاتينية بالسلام على مدى ما يقرب من عشرات سنوات . ويرجع هذا أساسا إلى التوتر الذى ساد معسكر الحاكم الأيوبى لمصر ، وكانت هذه المهلة قصيرة من حيث أنه كان من الواضح أن قوات المملكة لم تكن ندا للمسلمين . وانعقد أمل المملكة الصليبية على مجئ حملة كبرى جديدة ، وكان من الواضح أن تنظيم مثل هذه الحملة أمر صعب المنال .

وعلى الرغم من بعض النكبات ظلت فكرة الحملة الصليبية قائمة. فقد أخذ إنوسنت الثالث يحرض على شن حملة جديدة غير عابئ بالفشل الذى حاق بالحملة الأخيرة . وعلى الرغم من النقد والاستياء توهجت شرارة مسيحانية هنا وهناك ، وكان شاهداً عليها أغرب ظاهرة فى العصور الوسطى : تلك هى حملة الأطفال الصليبية سنة ١٢١٢ . فقد عبرت فرق الصبيان

بلادهم تحت قيادة شابين أحدهما ألمانى والآخر فرنسى إلى شواطئ البحر المتوسط ، وفى ظنهم أنهم سيجدون أرضًا يابسة يعبرون البحر من فوقها كما حدث قديما مع بنى اسرائيل عبر البحر الأحمر. وقد نشأت الفكرة وتغذت على أساس أن ما منعته العناية الإلهية عن الكبار الأثمين سوف تمنحه للاطفال رمز البراءة . وشق الأطفال طريقهم إلى بلاد الإسلام حقا ، ولكن على متن سفن تجار الرقيق المسيحيين وتم بيعهم فى أسواق النخاسة فى شمال أفريقيا .

أخيراً قامت الحملة الصليبية التى دعا إليها إنوسنت الثالث ، وأعلن عنها سنة ١٢١٥ فى مجمع اللاتيوان الرابع بعد سنتين من موت البابا . وهذه الحملة الصليبية اليتيمة بعد إنوست الثالث - والتى تعرف عادة باسم الحملة الخامسة - تفتح فصلا جديدا فى التاريخ الصليبى . ذلك أن أهم ما كان يميزها أن هدفها كان هو مصر . وكانت ثمة أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط فى دلتا النيل بدلا من نهر الأردن القريب ، أهمها سببان : الأول هو اهتمام المدن التجارية الإيطالية بالسيطرة على السوق الرئيسية فى حوض البحر المتوسط ، والثانى هو المذهب السياسى والعسكرى الجديد للصليبيين . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقصد فيها الصليبيون غزو مصر . ولكن بينما كانت حملات أماليك فى القرن الثانى عشر تهدف إلى تحويل مصر إلى تابع ، أو حتى ضمها إلى أملاك المملكة اللاتينية ، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد شرف وهيبة المملكة اللذين فقدتهما على تراب حطين .

كانت إحدى النتائج الهامة للحملة الثالثة هى تلك السياسة التى اقتضت تدمير التحصينات أو "الإزالة والمساواة بالأرض" ، وهى السياسة التى بدأها صلاح الدين واتبعها من بعده حكام دمشق . فقد أدرك صلاح الدين بحق أهمية التحصينات فى المدن والقلاع بالنسبة لسيطرة الصليبيين على الأراضى المقدسة ، إذ أن هذه الحصونات كانت ركيزة لأمن المملكة ، فضلاً عن تدعيمها لقدرة الصليبيين على حكم الإقليم وقت السلم ، وكان الحكم الصليبى الفعال يمتد حتى نقطة الإمداد المباشر المتمركز داخل التحصينات الصليبية فإذا حدث أن اختفت هذه الاستحكامات أو المعاقل الصليبية ، لم تعد هناك وسيلة لإعادة الحكم الصليبى سوى عن طريق الاسترداد الشامل الذى كان يعنى انفاقا مالياً ضخما وإمدادا هائلا من القوى البشرية . وبالإضافة إلى هذا وبعد الحملة الثالثة صار مثل هذا العمل عرضة للاحباط والإجهاض بواسطة الحاميات الإسلامية المجاوره منذ أن صارت أقاليم المملكة ملاصقة للشريط الساحلى الضيق . وبالتالى بدأ صلاح الدين سياسة التدمير المنظم لكل القلاع الصليبية وتحصينات المدن التى وقعت فى يديه . وحتى معاهدة الصلح التى وقعت مع ريتشارد

اشترطت تدمير عدد من التحصيات الصليبية . وكان التدمير شاملاً ، وقد أجهز حاكم دمشق على القلاع التى لم يدمرها صلاح الدين .

واستنتج الصليبيون من هذا النتيجة المنطقية التالية :وضوح استحالة الاسترداد الشامل نظرا لعدم وجود المال اللازم والقوى البشرية المناسبة ، بل والحماسة المطلوبة لبداية الغزو الشامل مرة أخرى ، وفى ظروف أصعب من تلك التى كانت متوفرة قبل مائة سنة . وكانت النتيجة هى توجيه الحملة إلى مصر . ذلك أن الانتصار الكبير على مصر سوف يحقق خضوعها وإجبارها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط ترك المملكة عند حدودها القديمة . وكان تصور الصليبيين أنه بواسطة التحكم فى المملكة التى سوف تسحب حامياتها من الأرض المقدسة يمكن استعادة المملكة وإعادة تحصينها بفضل الجهود الموحدة للعالم المسيحى . ويمكن تمويل هذه التحصينات من التعويضات التى سوف تدفعها مصر .

كانت هذه هى خطة الحملة الصليبية الخامسة التى استغرقت حوالى أربع سنوات . وكانت هذه الحملة ألمانية من أكثر من وجه بالاشتراك مع دوق النمسا وملك المجر . واجتمع الكل فى عكا سنة ١٢١٧ ، ورسا الأسطول الصليبى فى دمياط وحاصرها سنة ١٢١٨ . وكان قائد الجيوش الصليبية هو حنا برين ملك القدس بالزواج ، وإن كان الكاردينال بلاجيوس ، نائب البابا ، قد تولى القيادة أثناء الحصار . وتم احتلال دمياط فى سنة ١٢١٩ . وصار القائد الجديد هو الذى يصدر الأوامر . وكان من الأمور المصيرية للحملة أنها انتظرت فى دمياط مدة عام كامل لتقسيم الغنائم والأسلاب ، وأيضًا فى انتظار الإمبراطور فردريك الثانى الذى أجل رحيله إلى الشرق أكثر من مرة . وعندما تحركت الجيوش الصليبية أخيراً صوب القاهرة وجدت نفسها قبالة الحصن الجديد الذى أطلق عليه فيما بعد إسم المنصورة ، ومن هذه المدينة قدم السلطان عرضه المتكرر باقرار السلام : ومؤداه أن يسترد الصليبيون المملكة باستثناء الأردن ، ودفع تعويضات مقابل الجلاء عن مصر ، وكانت شروطه كريمة ومع ذلك رفضها بلاجيوس على الرغم من موافقة حنا برين . وفرضت الحرب نفسها . وقطع الجيش الإسلامى الذى تلقى التعزيزات من سوريا الطريق بين الجيش الصليبى ومؤخرته فى دمياط وأوقف تقدمه إلى القاهرة فى الجنوب . ووقعت فصائل الجيش الصليبى فى الشراك ، واضطر الصليبيون الى التخلى عن أحلامهم فى مصر ثمناً لحريتهم . وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة . وجاء هذا الفشل الجديد إضافة إلى خيبة الأمل العامة ، وثارت الاتهامات حول الإهمال فى المسئولية. وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم محطا لسخرية الرأى العام الأوربى . وكانت

النتائج القليلة الملموسة لهذه الحملة هى تحصين بعض المدن والقلاع ومن بينها قلعة الحج الضخمة التى كان الداوية يملكونها وقلعة مونتفورت التى كان التيوتون يحكمونها . وكانت هذه التحصينات قد بدأت على أيدى الحملة الخامسة قبل التحرك إلى مصر .

وعلى الرغم من كل شىء تجمعت حملة جديدة ، فقد كان الإمبراطور فردريك الثانى قد قطع على نفسه القسم الصليبى منذ سنة ١٢١٥ . وكان يؤجل حملته عاما بعد عام بدعوى وجود بعض المشاكل فى مملكة صقلية وداخل الإمبراطورية فضلا عن بعض المشكلات الصحية.. وأخيرا قرر فى سنة ١٢٢٨ أن يبدأ حملته . ذلك أن القسم الصليبى الذى كان قد قطعه على نفسه ، ووضعه كإمبراطور فى العالم المسيحى ، ولقبه كملك لبيت المقدس بعد زواجه من إيزابيلا ابنة حنا برين ، جعلت من حملته أمراً حتمياً . كما أن الظروف السياسية جعلت من هذه الحملة أقوى الحملات الصليبية . فالبابا جريجورى التاسع كان قد أصدر قرار الحرمان ضد الإمبراطور نظرا لمماطلته ومراوغته الواضحة بشكل أغضب البابا . وكان ذلك هو المنظر الأول فى مشهد غريب : فها هو الزعيم العلمانى المحروم من الكنيسة يقود حرباً صليبية. وأعقبت ذلك أحداث غريبة أخرى . فقد كان فردريك الثانى صقليا أكثر منه أى شىء آخر ، ولم يكن الإسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق ، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار الذين يستحقون الفناء فى نظره . ولذا أخذ فردريك يتفاوض مع الملك الكامل حاكم مصر مستغلا مشاكل السلطان فى كل من مصر وسوريا . ونجح فردريك الثانى الذى أثار جيشه الصغير سخرية معارضيه ، وجلب عليه قسوة الأصدقاء ، فى أن يحصل فى فبراير سنة ١٢٩٩ على موافقة السلطان على اتفاقية مشجعة : أولا تترك القدس للصليبيين دون ساحة معبدها ومساجدها ، كما يتخلى المسلمون لهم عن بيت لحم والناصرة . ومنح الصليبيون ممرين، أحدهما بين الرملة وبيت المقدس ، والثانى من عكا إلى الناصرة عبر الجليل . وربما توقع البعض أن هذه الاتفاق سوف يؤدى إلى رأب صدع الخصومات القديمة ، أو إنهائها إلى الأبد ولكن العكس هو الذى حدث فقد أثار هذا النجاح غضب البابوية . ونظمت حملة الامبراطور المحروم إلى القدس بحيث لاتتصل به الجيوش والنظم العسكرية الصليبية . وعندما دخل الإمبراطور المدينة فى نهاية المطاف سكتت أجراس القدس بمجرد أن خضعت المدينة للتحريم البابوى .

ودخل الإمبراطور كنيسة القيامة ، وتناول تاج بيت المقدس من فوق المذبح ووضعه على رأسه ، ولم يشترك فى هذا الاحتفال سوى الفرسان التيوتون المخلصين . وعلى الرغم من

التحريم والمنع لم يستطع الصليبيون فى الأرض المقدسة ، سواء منهم المقيمون بها أو القادمون من أعالى البحار ، كبح جماح فرحهم بتحرير القدس .

وقد أدانت المعارضة عودة فردريك الثانى إلى أوربا باعتبارها تخليا عن المملكة التى لن تكون قادرة على الدفاع عن مكتسباتها الجديدة . وعلى الرغم من أن البابا قد ألغى الحرمان السابق (والذى أعاد فرضه بعد عدة سنوات) ، فإن المملكة قد تمزقت بسبب الحرب بين نواب الامبراطور فى الشرق ، وأبناء الارستقراطية الصّليبية حيث تم الاستيلاء على التحصينات الامبراطورية فى قبرص وفى أرجاء المملكة الصليبية بعد عشر سنوات من الصراع الداخلى ، وقد أدى خلق حكومة ثورية حاكمة إلى ظهور طبقة إقطاعية . وبذلك دخلت المملكة الصليبية فى طور التحلل والانهيار .

وكان من حسن طالع الصليبيين ، أن العالم الإسلامى المجاور لم يحرز تقدمًا . فقد صارت دمشق هى محور المعارضة فى مصر ، كما أن إمارة شرق الأردن كانت آخذة فى تغيير حلفائها. وكان الجميع على استعداد لقبول الصليبيين كحلفاء . ومن سوء الحظ أن المملكة اللاتينية كانت تفتقر إلى الزعيم . فقد انشق الداوية والاسبتارية على أنفسهم وأخذ فريق منهم يؤيد التحالف الدمشقى ، على حين كان الآخر يؤيد التحالف المصرى . وقد نجحت حملة تيوبوُلد الشحبانى (١٢٣٩-١٢٤٠) والتى أعقبتها حملة ريتشارد الكورنلى Richaraed of Cornell (١٢٤٠-١٢٤١) فى توسيع حدود المملكة وضم الجليل فى ظل ظروف الانقسام السائدة فى المعسكر الاسلامى . وكانت هناك بعض محاولات لتدعيم المملكة منها تشييد قلعة للداوية فى صفد ، وتحصين عسقلان . بيد أن الأخطار الجديدة فى الداخل والخارج لم تلبث أن أجهزت على النجاح الدبلوماسى الذى كان قد تم إحرازه من قبل .

لقد بدا التوتر والاستعداد للحرب بين مصر ودمشق وشرق الأردن من ناحية والمملكة الصليبية من ناحية أخرى فى الشريط الخصب المحدود حول شرقى البحر المتوسط كما لو كان نوعا من المراوغة التافهة إذا ما قورن بذلك الاضطراب المهول الذى غير وجه آسيا وحسم مصير شرق أوربا على مدى أجيال ، على الرغم من أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لمصائر المشاركين فيها . ففى قراقورم فى آسيا الوسطى ظهر نجم جديد هو جنكيزخان حاكم المغول . فبعد أن سيطرت هذه القوة الجديدة على القبائل المغولية اندفع المغول بخيولهم السريعة الصغيرة القوية ليقهروا الصين فى أقل من جيل ، ثم اندفعوا كجلمود صخر حطه السيل من عل يدمر كل شىء فى طريقه ، فأخضعوا مناطق السهول الروسية فى الغرب حتى سنة ١٢٤١ إلى الحدود

الألمانية البولندية . وفى الجنوب استولوا على فارس والعراق . وشيدوا إمبراطورية أوربية آسيوية أكبر من أية إمبراطورية سابقة فى التاريخ ، ولكن هذه الإمبراطورية قامت على انقاض حضارات أخرى سابقة . وكانت موجات الغزو المغولى صوب شواطئ البحر المتوسط ، وكانت الدويلات الصليبية فى ذلك الحين على أطراف إمبراطورية المغول .

كانت قعقعة الحوافر المغولية تتصاعد وتقترب حين انضم الصليبيون إلى تحالف دمشقى ضد مصر التى أحست بخطر هذا التآلف القوى فطلبت مساعدة الخوارزميين الذين كانوا قد تحولوا إلى مرتزقة يجوبون أنحاء الشرق الأدنى بعد أن كانت لهم دولة قضى عليها الغزو المغولى واستولى على أملاكها بالقرب من البحر الأسود . وقد أوقع المصريون والخوارزميون هزيمة مريرة بالصليبيين فى معركة غزة . وكان السوريون قد نقضوا تحالفهم مع الصليبيين فى اللحظة الأخيرة . وبعد ذلك مباشرة هاجم الخوارزمية مدينة القدس فى سنة ١٢٤٤ . ولم تعد المدينة إلى حوزة المسيحيين بعد ذلك ، كما أنها لم تشهد جيشا مسيحيا إلا بعد سبعة قرون حين احتل الإنجليز المدينة المقدسة وانتزعوها من الأتراك العثمانيين بقيادة اللنبى .

وقد أثار الخطر المغولى الزاحف مخاوف أوربا ، فأخذت تسعى للبحث عن حلفاء جدد . ومنذ عام ١٢٤٥ ، أى عندما أرسل البابا انوسنت الرابع مبعوثه جيوفانى بيانو كاربينى Jiovani of Piano Carpini إلى البلاط المغولى ، وأعقبه بسفارة وليم روبروكيس Wil-lianm of Rubruquis (١٢٤٨-١٢٤٩) ، بدأت الشائعات تروج حول وجود مسيحيين بين القبائل المغولية . وكان لهذه الإشاعات ظل من الحقيقة حيث تمكنت الدعاية النسطورية فى آسيا الصغرى أن تحول عددا من أبناء القبائل المغولية إلى المسيحية . وكان من نتائج سقوط القدس والخطر المغولى الماثل أن بدأ التفكير فى حملة صليبية جديدة. وكانت آخر حرب صليبية كبرى هى تلك التى تولى قيادتها سان لويس أو لويس التاسع ملك فرنسا . وكانت قبرص هى نقطة التجمع والتمركز للحملة الصليبية الجديدة حيث أمدت الحملة بالكثير من المؤن والذخائر. وفى ربيع سنة ١٢٤٨ أبحرت الجيوش صوب مصر ، واحتلت دمياط مرة أخرى ، ثم تحرك الجيش باتجاه القاهرة . ولكن حدث ما سبق أن تعرضت له الحملة الخامسة ، إذ وقع الجيش الصليبى فى الفخ عند المنصورة حيث انتهت هجمة طائشة قام بها شقيق الملك إلى كارثة ، فقد تم أسر الملك ، وجميع أفراد الجيش الصليبى . وفى مقابل الإفراج عنهم اضطر الصليبيون إلى الرحيل عن مصر ودفع فدية ضخمة تصل إلى حوالى مليون قطعة ذهبية .

انتهت الحملة الصليبية . وقضى أولئك الذين عادوا إلى عكا (مايو - ١٢٥٠) السنوات الأربع التالية فى تحصين المدن لصليبية الساحلية وتقوية حصونها . فأضافت كل من صيدا

وعكا وقيصرية ويافا قلعة وبرجًا وسورا إلى ما هو قائم بالفعل . إلا أن أوربا صمت آذانها أمام كل النداءات بالمساعدة . ولم يتحرك جنوبا سوى حركة قام بها الشباب تدعى البوستورو Peter of Amiens ، إلا أنها سرعان ما انتهت على أيدى السلطات العلمانية والكهنوتية ، لأنها اتخذت من الحرب الصليبية شعارا لها كما دأبت على مهاجمة رجال الدين .

وضمنت التحصينات الساحلية وجود المملكة لفترة من الزمن ، على الرغم من أن منطق الصليبيين كان يفترض أن تقوم حملة صليبية جديدة لمساعدتهم فى الأرض المقدسة .وفى الوقت نفسه جرت حادثتان غيرتا من إطار وتركيبة الشرق الأدنى ، فقد حدث إبان حملة لويس التاسع أن قامت ثورة فى مصر سنة ١٢٤٩ استولت على عرش الإيوبيين الذى أسسه صلاح الدين[١]، وأتت بطبقة المماليك العسكرية إلى السلطة بادئة بذلك اغرب نظام حكم فى التاريخ. فقد كان المماليك عبيدا جلبوا عبر البحر الاسود ، واعتنقوا الإسلام ، وتمت تنشئتهم كمقاتلين محترفين لاينضم إلى صفوفهم إلا من كان مثلهم من الرقيق ، ولكن بمجرد قبوله فى صفوف المماليك تصبح أمامه الفرصة لكى يصل إلى أعلى مناصب الدولة والجيش .

وفى سنة ١٢٦٠ كان المملوك بيبرس هو الرجل الحاكم فى مصر ، وهو قائد ممتاز ورجل دولة هائل القدرة ،.وهو من أعظم حكام العالم الإسلامى . فقد استطاع أن يغير مصير الشرق الأدنى فى أكثر من اتجاه ، فسرعان ما وضع يده على موارد مصر المالية واستبدل الايوبيين الكسالى برجال عصاميين يتدفقون نشاطا وحمية . وكان لاستيلاء المماليك على الحكم

---

(١) الحقيقة أن وصف استيلاء المماليك على الحكم فى مصر يشبه الانقلاب الصامت للاستيلاء على السلطة ، أو ثورة ، يجافى الواقع إلى حد كبير . ففى تصورنا أن وثوب أولئك العبيد السابقين على عرش البلاد انما جاء استجابة للتطورات السياسية التى ألمت بالعالم الإسلامى فى منتصف القرن الثالث : فها هى مساحة الأراضى الإسلامية على أرض الأندلس تتقلص بفعل ضربات الاسترداد الأسبانية على حين سقطت الخلافة العباسية فى بغداد ، فى الوقت الذى كان فيه الأيوبيون غارقين فى منازعاتهم وحروبهم الداخلية . وقد أدى انتصار المماليك فى المنصورة ، ثم فى عين جالوت ، إلى تأكيد صورتهم باعتبارهم القوة العسكرية الوحيدة القادرة على الدفاع عن العالم الإسلامى . وقد أعاد السلطان الظاهر بيبرس إحياء الخلافة العباسية بالقاهرة لكى يكسب من ورائها الشرعية التى كان يفتقر إليها حكمه .

انظر قاسم عبده قاسم ، "دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى" ، عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩) .

فى مصر أثره من حيث تعميق هوة الخلاف بين القاهرة وسوريا التى كانت ماتزال تحت حكم أمراء بنى أيوب . وكانت المواجهة بين الطرفين حين وصل الطوفان المغولى إلى العراق ، واستولت القبائل المغولية على بغداد سنة ١٢٥٨ . ولكى يتم تحاشى كارثة كونية اذا ما سفك دم الخليفة المقدس ، وضع الخليفة الثامن والثلاثون وآخر خلفاء بنى العباسى غرارة ، وخنق حتى مات ، ثم استولت الجيوش المغولية بقيادة هولاكو على دمشق . وباتت الحرب مع المصريين وشيكة الحدوث ، وقنع الصليبيون بدور المتفرج فى هذه المواجهة الكبيرة ، فلم يكن لهم حول ولا طول ، كما كانوا يفتقرون إلى الزعامة ، كما اضعفتهم الحروب الداخلية بين الكومونات الايطالية ، على الرغم من أن معركة عين جالوت الحاسمة (١٢٦٠) قد دارت رحاها على أعتاب ديارهم . ولقى المغول هزيمة نكراء ، ثم تقهقروا بسرعة فى اتجاه سوريا . وكانت تلك معركة من معارك التاريخ الحاسمة التى قررت مصير الشرق الأوسط ومستقبله ومنعت وقوعه فى براثن المغول . ثم حقق بيبرس انتصارات أخرى دفعت بالمغول مرة أخرى إلى فارس وأرمينيا .

وبمطاردة المغول المتقهقرين صار بيبرس سيداً على سوريا ، وأحاط ببقايا مملكة الصليبيين من كل اتجاه ، وكان من السهل عليه آنذاك أن يهاجمها ويدمرها ، ولكن مهام أخرى أكثر أهمية كانت تشغله . فعلى الرغم من انتصاراته كان المغول لايزالون يشكلون خطرا حقيقيا . وأطلق بيبرس من جديد شعار الجهاد ضد المغول فى هذه المرة . كما حاول تكوين حلف إسلامى يضم مغول القرن الذهبى على شواطىء البحر الأسود .

ونجحت ثلاث حملات قصيرة (١٢٦٣-١٢٦٦) فى حرمان الصليبيين من صفد ومن قلاع أخرى فى الجليل . كما استولى على قيصرية وأرسوف وحد من مساحة الشريط الضيق الذى قامت عليه المملكة ، وتم عزل مدن الساحل الصليبية عن بعضها البعض بواسطة الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون . وبدا لوهلة أن حربا صليبية جديدة سوف تدور رحاها وتستخدم رؤوس الجسور الصليبية لكى تبدأ حربا استردادية ضد المسلمين . وبالفعل بدأ لويس التاسع فى تجهيز حملة كبيرة ، ولكنها اتجهت إلى تونس التى كان حاكمها بزعم أنه على استعداد لقبول المسيحية . ويقال إن الملك لويس التاسع كان يردد كلمة "القدس ، القدس" بصوت خفيض وهو على فراش الموت . بيد أن فكرة الحروب الصليبية كانت قد انتهت . أما محاولات جيمس ملك أرغونة الذى وصل إلى منتصف الطريق إلى الأرض المقدسة ، وادوارد الأول ملك انجلترا ، فكانت مجرد جزء من قانون الفروسية أكثر من كونها محاولات لشن حرب صليبية

قادرة على تغيير الموقف . ولكنها كانت سببًا فى إعاقة بيبرس وخلفائه الذين تملكتهم فكرة امكان قيام حملة صليبية جديدة . وطالما لم تكن المدن الصليبية تضايق حكام المماليك ، كان المماليك على استعداد لمنح هذه المدن الهدنة التى كان بوسعهم نقضها متى شاءوا وحين يرون الوقت مناسبًا لذلك .

وأعطى تاج بيت المقدس لآل لوزينان فى قبرص ، ولكن جهودهم المخلصة لم تغير شيئاً من الموقف ، وأخذ الوجود الصليبى يتلاشى شيئاً فشيئاً . فتم الاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٨٦ وطرابلس سنة ١٢٨٩ . وأخيراً سقطت عكا ، ذلك الحصن الصليبى الكبير بعد حصار باسل دام أربعة وأربعين يوما ، ثم سقطت القدس فى ١٨ مايو ١٢٩١ . وكانت هذه هى النهاية ، ففى اغسطس ١٢٩١ هجر الداوية قلعة الحج ، أعظم القلاع الصليبية . وكان ذلك هو فصل الختام بالنسبة للحج الأوربى الكبير . ونهاية للمملكة الصليبية .

(٤)

الشـــرق [١]

كانت المرة الأولى التى تحتك فيها جماهير الصليبيين بالشرق ابان الحملة الأولى فى مكان ما بين البلقان وإيطاليا . وكان الشرق فى هذه المرة مسيحيًا . فالشرق المسيحى ، الذى كان جزءا من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، كان هو الإمبراطورية البيزنطية . وكان الطريق المار بالبلقان والقسطنطينية وبعض مناطق آسيا الصغرى بمثابة البوابة التى تؤدى إلى الشرق بأسره. فها هو العالم الإسلامى الحصين على مقربة من أسوار العاصمة البيزنطية . ومن هذا المكان كان العالم الإسلامى يمتد باتجاه الشرق على اتساع رقعة تضم العراق وسوريا والأراضى المقدسة حتى الهند فى الشرق ، ومصر وشمال أفريقيا فى الغرب .

ولم تكن هاتان الواجهتان الشرقيتان ، الإسلامية منهما والمسيحية ، أرضًا تدخل فى الخريطة التى يعرفها الرجل الغربى ، سواء كان انجليزيًا أو فرنسيًا أو ألمانيًا . كانت صورة الشرق الخرافى الغامض العظيم فى مخيلة الغربى تتألف من عناصر متنوعة تجمع ما بين اللغات غير المسيحية التى يتحدث بها مسيحيو الشرق أى السريانية واليونانية والعربية ، إلى جانب مدن الشرق العريقة فى شهرتها والأديرة والكنائس العظيمة ، فضلاً عن ذلك الأدب غير اللاتينى الذى يلقى الحفاوة والاحتفال ، ومن ملامح هذه الصورة أيضا تلك الثياب الفخمة التى كان الإكليروس الشرقى يتميز بها والتى تليق بفدية الأمراء ، والثياب الموشاة بخيوط الذهب والفضة التى يرتديها رجال الدولة والجنود . هذه العناصر جميعها خلقت فى مخيلة الرجل الغربى صورة أقرب إلى صورة الجنة الأرضية . ولم يكن الشرق غريبًا تماماً على الإيطاليين والنورمان فى جنوب إيطاليا . فقد كان الإيطاليون يتبادلون التجارة مع كل من الشرق الإسلامى والقسطنطينية . أما النورمان فقد تعرفوا على الشرق من خلال الغزوات التى شنوها على الأملاك البيزنطية قبيل الحروب الصليبية فضلا عن أن مدينة البندقية التى تطفو فوق جداولها وقنواتها العديدة كانت مدينة شرقية السمات على الرغم من الأعلام المسيحية التى كانت ترفرف فوقها ، كما كانت هى المنفذ الذى يدلف منه الغرب إلى الشرق . فضلاً عن أنها كانت نقطة التفتيش الأوربية قبل الولوج إلى عالم الشرق الغامض الساخر .

---

(١) عنوان هذا الفصل كما كتبه المؤلف هو The Levant .

وقد رأينا ترجمته على هذا النحو لكى يلائم القارئ العربى . (المترجمان)

وعلى مدى قرنين من الزمان ، عاش الغربيون تحت سماء الشرق يحيط بهم هذا الشرق وأبناؤه من الأرستقراطية العربية والفارسية ، والبدو الرحل الذين كانوا يجوبون الآفاق فيما بين الفرات والنيل ، والقادة الأتراك وحامياتهم ، والدروز ، وطائفة الحشاشين الرهيبة فضلا عن فلاحي سوريا وفلسطين ووادى النيل . وكان الجميع يخضعون لإحدى سلطتين ، إما الخليفة العباسى السنى فى بغداد ، أو الخليفة الشيعى الفاطمي فى القاهرة . كذلك كان هناك المسيحيون الشرقيون الذين كان بعض أبناء الغرب المسيحى قد توجهوا صوب الشرق لإنقاذهم من النير الإسلامى ، إلا أن الود والتفاهم بين الجانبين ظل مفقودا . فقد كان الإمبراطور البيزنطى القابع على ضفاف البسفور هو حاكم المسيحيين الشرقيين . وحين صافحت عيون الغرب قصور الإمبراطور وتيجانه التى تزهو بما يرصعها من جواهر ولآلى ، والملابس المزركشة باللآلى وخيوط الذهب التى يرتديها رجال الدولة ورجال الجيش الغريب المؤلف من اليونانيين والسلاف ، والفيكنج فضلا عن الأتراك العاملين فى جهاز الشرطة .. حين حدث هذا وقع الغربيون فى شباك الحيرة والتخبط . وفى الشرق أيضا قامت كنيسة الروم الأرثوذكس وبطاركتها الذين أصروا على عدم الاعتراف بشرعية السلطة البابوية فى روما ، وظلوا يفاخرون بتراث يمتد على مدى ألف عام ، زاعمين أن هذا التراث أكثر أصالة من تراث الغرب المسيحى . وقد استقر بطاركة هذه الكنيسة وأساقفتها ، لا فى داخل حدود الإمبراطورية المسيحية فحسب وإنما أيضا فى بلاد الإسلام التى لم تكتف بقبولهم فقط ، وإنما أكرمتهم فى غالب الأحوال . وكان من الصعب على الرجل الغربى أن يفهم هذا الموقف . ولكن إصرار البيزنطيين على العمل المستقل فى البلاد المحررة حديثا كان يجلب له الضيق والضجر لكون هذه البلاد تحت سيطرة المسيحيين اللاتين .

وفى الشرق أيضا كانت ثمة ممالك مسيحية أخرى ، وإن كانت تدين بالأرثوذكسية ولكن بعد الغربى عن موطنه كان يجعله أكثر لينا ، وربما كان يغمره شعور بالرضا والفخر حين يعلم بوجودها ، ففى أقصى الشمال وعند جبال القوقاز كانت توجد مملكة جورجيا المسيحية التى لعب ملكها وأمراؤها وجيشها دورا حيويا فى سياسية آسيا الصغرى وكان لسكانها لغتهم وأبجديتهم الخاصة بهم ، كما كانت تربطهم بالأراضى المقدسة علاقات قديمة . وكثيراً ماتوجهت سفاراتهم وقساوستهم إلى بلاط المسلمين وحكام المغول . كذلك كانت هناك مملكة أرمينيا الصغرى عند جبال طوروس وعلى طول سهل كليكيا الساحلى فى آسيا الصغرى . وكان التأثير متبادلاً بين هذه المملكة وبين الفرنج نتيجة اتصالها المباشر بإدارة أنطاكية

فيما بعد . وكان حكامها المعروفون ببسالتهم الحربية قد أقاموا نوعا من البلاط الإقليمى على النمط البيزنطى ، كما كان لمقاتليها شهرة ذائعة . وكثيرا ما قدمت أرمينيا للبلاد الإسلامية عددا من الوزراء الذين اعتنقوا الإسلام . كما كان الأرمن يعملون كجنود مرتزقة فى خدمة حكام الشرق الإسلامى والمسيحى على السواء . وكان الصليبيون قد ألفوا زى رجال الدين والرهبان الأرمن ، كما اعتادوا على صلبانهم ذات الفروع المشقوقة والنمط المعمارى الفريد الذى ميز كنائسهم ، فضلا عن اللاهوتيين والمثالين الأرمن الذين كانت أعمالهم مألوفة فى الأوساط الصليبية ، وبعد جيلين من التعايش معًا أدى الزواج المختلط بين الأرمن والصليبيين إلى أن صارت اللغة والعادات الفرنسية عنصرا هاما وأساسيًا فى حياة البلاط الأرمنى .

وربما كانت هذه الممالك المسيحية الحقيقية القائمة على حدود العالم الإسلامى أقل فى شهرتها من الإمبراطورية الخرافية التى قيل أن القديس يوحنا يحكمها إما فى الهند الغربية أو فى أثيوبيا التى لاتقل غرابة عن الهند ، والتى كانت شعاع الأمل الذى يومض بين دياجير الخوف من التهديد الإسلامى باعتبارها خصما من خصوم الإسلام الكثيرين[١] . ولكن الذى لم يكن خرافة حقا هو وجود مملكة مسيحية فى الحبشة كانت ترتبط دينيا ببطريرك الإسكندرية القبطى . وقد زادت هذه المملكة المسيحية برهبانها وأديرتهم التى تذكرنا بأقدم المؤسسات الديرية فى العالم المسيحى من عدم تجانس الشرق . وكان المسلمون فى مصر هم أقرب الجيران إليهم ، ولكن أقباط مصر المسيحيين كانوا يرتبطون مع هذه المملكة ، التى ادعى حاكمها أنهم ينحدرون من نسل سليمان وملكة سبأ ، بأوثق الروابط والصلات .

كان الشرق ، المسلم والمسيحى ، هو الاكتشاف الكبير بالنسبة للصليبيين . وكان من الطبيعى أن يعلم الغرب بوجود الشرق ، فقد زاره الحجاج والتجار والمرتزقة . ولكن بقدوم الصليبيين إلى الشرق ، صار هذا الشرق جزءاً لايتجزأ من التصور الأوربى للعالم ، ومن تصورهم للعالم المسكون . وكان هذا تطورا رئيسيا فى الشعور الغربى الآخذ فى النمو فيما يتعلق بالبلدان والشعوب والثقافات الواقعة فيما وراء أوربا . وقد لعبت العناصر الشرقية

---

(١) لم يكن هناك وجود حقيقى لهذه الإمبراطورية التى شاعت القصص عنها وعن حاكمها "برسترجون" فى العصور الوسطى ، وربما كان لقصور المعلومات الجغرافية لدى الغرب آنذاك الفضل فى ترويج قصة هذه الإمبراطورية الوهمية ، والخلط بينها وبين الحبشة المسيحية التى كانت تابعة للكنيسة المصرية منذ وقت مبكر.

المتعددة دوراً فى حياة المستعمرات الصليبية فى الشرق . لقد تمت المواجهة مع الشرق الإسلامى على المستوى العسكرى ، كما تمت أيضًا على مستوى العلاقات الاقتصادية ، لأن المسلمين كانوا يشكلون غالبية السكان فى المناطق التى وقعت تحت السيادة الصليبية .

وكان بعض المسلمين القاطنين على سواحل الشرق من سلالة غزاة القرن السابع العرب الذين قضوا على السيادة البيزنطية على سوريا وفلسطين ومصر . أما غالبيتهم فكانوا من سلالة الآراميين والكنعانيين القدامى الذين خضعوا للتأثير الهللينى ثم الرومانى . وقد اعتنقوا المسيحية ثم تحولوا إلى الإسلام . ويبدو أنه فى الشمال ، أى فى مقاطعات أنطاكية والرها ، كان المسلمون أقل عددا منهم فى طرابلس وفى مملكة بيت المقدس الصليبية . ذلك أن قرب بيزنطة ، إلى جانب حقيقة أنه قد أعقبت السيادة الإسلامية التى استمرت على هذه المناطق ثلاثة قرون ، فترة مائة عام تقريبا من السيادة البيزنطية التى استمرت حتى عشية الغزو الصليبى .. كل هذا ربما يكون السبب وراء بقاء قطاعات كبيرة من المسيحيين ، و ارتداد البعض عن الإسلام . أما فى الجنوب ، فى المملكة اللاتينية ، فقد كان الوضع مختلفا حيث كانت المنطقة قد عزلت عن بيزنطة مايقرب من أربعة قرون . وكانت اللغة العربية هى اللسان المشترك للسكان حتى فى المناطق التى لم تكن فيها للإسلام السيادة الكاملة . وعلى الرغم من اختلاف التوزيع السكانى ، فإن العربية لم تكن لغة المسلمين فقط وإنما تحدثت بها جميع الطوائف المسيحية واليهود والسامرة ، وفى القرن الثامن ، أى فى عهد هارون الرشيد الذائع الصيت ، حلت العربية محل السريانية واليونانية اللتين اقتصر استخدامهما على الشئون الدينية ، وتخلتا عن مكانيهما فى الجهاز الحكومى والشارع والسوق للغة العربية . وما حدث بالنسبة للغة حدث أيضًا فى مجال الأزياء ، فقد كان أصحاب الأديان الأخرى يرتدون الثياب الشرقية نفسها إلا إذا فرضت السلطات الشرعية عليهم غير ذلك .

وكان المسلمون يعيشون فى المدن وفى الريف . ولكنهم فى الوقت الذى كانوا يشكلون فيه أقلية فى عواصم الصليبيين مثل الرها وأنطاكية وطرابلس ، كان عددهم كبيرا فى المراكز العمرانية الصغيرة . وبعد الغزو الصليبى مباشرة والمذابح الشاملة وعمليات طرد السكان الأصليين فى المدن (غالبًا ما كانوا من المسلمين واليهود والمسيحيين الذين لم يفرق الصليبيون بينهم بسبب الزى المشترك) عاد المسلمون ثانية ليستقروا فى المدن . وكانت القدس هى الاستثناء الوحيد ، لأن الصليبيين أصدروا قراراً بأنه من الرجس أن يعيش فى المدينة التى شهدت آلام المسيح أولئك الذين دنسوا اسمه .

وكان الريف كله مسلما ، فقد استمرت المجتمعات القروية الإسلامية تعمل تحت الحكم الصليبى . وظلت الخلايا الاجتماعية الأساسية كما هى ، على الرغم من أن الدولة الإسلامية فقدت سيادتها وسلطتها . وتركزت الحياة الدينية فى القرى حول المساجد الصغيرة ، واستمر القضاة والعلماء يباشرون خدماتهم الدينية وغير الدينية لأنه لم يكن ممكنا الاستغناء عنهم فى شئون الزواج والميراث . وقد نجت بعض المساجد ، حتى فى المدن الكبيرة من التحويل إلى كنائس وظلت بأيدى المسلمين . فضلاً عن أن الصليبيين اعترفوا بالسلطة التقليدية للشيوخ . ومنح الرئيس ، وهو شيخ القرية ، نوعًا من السلطة وكان هو الذى يمثل القرية فى التعامل مع الحاكم الصليبى . وفى حالة عدم وجود وكيل للخراج للإشراف على ضرائب الدخل ، كان الرئيس يتحمل هذه المسئولية بتفويض من الفرنج .

ولم يكن لقاء الحاكم الصليبى بالمسلمين لقاء حاكم بمحكوم فحسب ، وإنما كان لقاء على المستوى الاقتصادى ، لقاء المستغل بالمستغل . وربما يكون من الغريب أن هذا الجانب من العلاقة لم يكن عنيفا كما يفترض البعض ، والاقتباس التالى من ابن جبير الرحالة المسلم الذى رحل مع قافلة من دمشق إلى عكا فى طريقة إلى تونس يوضح ذلك .. فمن بيت جن عند سفح جبل حرمون وبانياس عبر الحدود إلى المملكة اللاتينية مارًا عبر الحصن الصليبى فى تبنين وصل إلى ".. وطريقنا كله على ضياع متصلة وعمائر منتظمة ، سكانها كلهم مسلمون ، وهم مع الافرنج على حال ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولايعترضونهم فى غير ذلك . ولهم على ثمرة الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضًا . ومساكنهم بأيديهم ، وجميع أموالهم متروكة لهم . وكل ما بأيدى الافرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رساتيقهم كلها للمسلمين وهى الضياع والقرى . وقد أشربت الفتنة قلوب أكثرهم لما يبصرون عليه اخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعمالهم ، لأنهم على ضد أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئه على المسلمين أن يشتكى الصنف الإسلامى جور صنفه ، ويحمد سيرة ضده وعدوه المالك له من الافرنج ويأنس بعدله .."(١)

أما فى المدن ، فلا شك أن المسلمين وجدوا أنفسهم فى موقف حرج كأقلية محتقرة وغير موثوق بها بالنسبة للفرنجة . ومع ذلك فإن حساسية ابن جبير تجاه الخنازير التى كانت تتجول

---

(١) النص من رحلة ابن جبير ، تحقيق الدكتور حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص٢٩١ .

فى شوارع المدن المسيحية ، والصلبان التى ترتفع فى كل ركن من أركانها لم تحل دون المسلمين فى دمشق وتجار الموصل من الإبقاء على فروع متاجرهم فى الأسواق المسيحية الكبيرة على الشاطىء .

وليس هناك شك فى أن الارستقراطية المسلمة والمثقفين المسلمين وهم عادة سكان المدن ، قد اختفوا مع بداية الغزو الصليبى تاركين الفلاحين والمهنيين والتجار . إلا أن الصليبيين كانوا على معرفة جيدة بأبناء الطبقة العليا فى المجتمع الإسلامى . فقد كان الحكام المسلمون وأبناء الأسر الحاكمة يزورون المدن الفرنجية ، كما أن الأتقياء منهم كانوا يزورون المدينة المقدسة . كما عرف الفرنجة كثيرين من الجغرافيين والأطباء وغيرهم من أبناء الطبقة المثقفة . ومع مرور الوقت نشأت علاقة غريبة فى بابها بين البارونات الصليبيين والحكام المسلمين . ولم يقبل أى من الطرفين الآخر فيما يتعلق بالسلوك والثقافة ، الا أن نوعا من الاحترام المتبادل ساد العلاقة بين الطرفين ، وهو احترام أشبه باحترام المقاتل لرفيق السلاح حتى وإن كان من أعدائه .

وإلى جانب السنة والشيعة عرف الرحالة الأوربيون التواقون للاستطلاع أن هناك فى جبل لبنان طائفة مسلمة تعرف باسم الدروز . وقد كان أبناء هذه الفرقة التى تأسست فى القرن الحادى عشر يعتقدون أن الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله هو آخر تجسيد للألوهية ، وتوقعوا عودته .

وكانت هناك طائفة أخرى تفوقهم شهرة هى طائفة الحشاشين المتطرفة والتى كان أفرادها يستخدمون أية وسيلة ، بما فى ذلك القتل ، لحماية مصالحهم . ومع مرور الوقت صاروا خطرا على المسيحيين والمسلمين على السواء . وقد وصف وليم الصورى ، الذى كان يعيش فى الأراضى المقدسة وأصبح أكبر مؤرخيها ، طائفة الحشاشين الوصف التالى : "فى إقليم صور فى فينيقية ، وفى أبرشية طرطوس كانت تعيش جماعة من الناس يمتلكون عشرة حصون بالقرى الملحقة بها ، وكان عددهم كما سمعنا ستين ألفا وربما أكثر . وعادة هذه الجماعة أن يختاروا حاكمهم ، لا عن طريق الوراثة ، ولكن بامتياز الأحقية . وعندما يتم اختيار هذا الزعيم يطلقون عليه لقب "العجوز" ، أو "الشيخ" ولايقبلون لقبا أخر ولايحول شىء دون خضوعهم له وطاعتهم العمياء لأوامره . وهم يعتبرون أن أى شىء يطلبه ممكن وغير مستحيل ويأخذون على عاتقهم تنفيذ أخطر المهام تنفيذا لأوامره . فإذا حدث ، مثلاً ، أن كان هناك أمير جلب على نفسه كراهية هذه الجماعة أو عدم الثقة يضع الزعيم خنجراً فى يد واحد أو أكثر من أتباعه ،

ويسرع هؤلاء لتنفيذ مهمتهم فى الحال ، بصرف النظر عن النتائج ، أو فرص النجاة ، ويعملون جاهدين طوال الوقت حتى تحين اللحظة المواتية لتنفيذ أمر الزعيم .."

كما يصفهم ماركو بولو بهذه الكلمات :

".. لم يكن مسموحًا لأى انسان أن يدخل حديقة العجوز غير أولئك الذين يريدهم أن ينضموا إلى جماعته . وكان هناك حصن منيع عند مدخل الحديقة ، وكان من القوة بحيث يكفى لمقاومة العالم بأسره ، ولم يكن ثمة طريق آخر للدخول ، وقد كان هذا الرجل يحتفظ فى بلاطه بعدد من الشبان من أبناء المنطقة فيما بين الثانية عشرة والعشرين يصلحون لحياة الجندية . وعندئذ يدخلهم إلى حديقته على مرات ، فى كل مرة أربعة ، أو ستة ، أو عشرة . ويعطيهم شرابا سائلا يروحون بعده فى سبات عميق ، ثم يأمر بحملهم إلى الحديقة حتى إذا ما استيقظوا وجدوا أنفسهم بين جنباتها" .

"وعندما يستيقظ هؤلاء ويجدون أنفسهم فى مكان جميل رائع يظنون أنهم فى الجنة حقا ، وتتولى النسوة والصبايا العذارى مداعبتهم ليدخلن المسرة على قلوبهم" .

"وحين يريد العجوز قتل أمير ما ، يأمر واحداً من أولئك الشبان بقوله : اذهب واقتل فلانا ، وعندما تعود ستحملك ملائكتى إلى الجنة ، أما إذا مت فسوف أرسل ملائكتى لتعيدك إلى الجنة .

وعدد قليل جدا من بلدان العالم هى تلك التى يتمركز فيها هذا العدد الكبير من الطوائف الدينية فى منطقة واحدة . وهذه الظاهرة الغريبة ، التى جعلت من الشرق معرضًا للتاريخ الإسلامى والمسيحى واليهودى ، إنما جاءت نتيجة لعدد من العوامل . فبالنسبة للمذاهب المسيحية كان السبب الرئيسى سياسيا ؛ ذلك أن المذاهب اللاهوتية التى اعتبرت من قبيل الهرطقة ، وتعرض أتباعها لسوط الاضطهاد بأيدى اتباع العقيدة الأرثوذكسية الرسمية فى الإمبراطورية البيزنطية ، قد وجدت لنفسها الملجأ والملاذ خارج حدودها . وكانت الجماعات القومية قد تبنت هذه المذاهب المخالفة كما لو كانت هى عقيدتها الأصلية ، الأمر الذى خلق الكنائس القومية فى جورجيا ، أرمينيا ، ومصر ، والحبشة . ولم يتبلور البعض الآخر فى إطارات قومية ، ولكنها كانت تمثل قطاعات كبيرة من السكان . بل كانت تمثل ، أحيانًا ، مقاطعات بأسرها داخل حدود العالم الإسلامى الواسع بما ساده من تسامح ، كما حدث بالنسبة لليعاقبة ، والموارنة ، والنساطرة . ومع أن اختلاط الطوائف المسيحية عبر عن نفسه بشكل واضح فى العراق وسوريا وفلسطين ، فإن للمدينة المقدسة الحق فى أن تفخر بوجود أكبر

مجموعة منها . فقد كانت جاذبية مهد الدين سببا كافيا لكل طائفة مسيحية لكى تتمسك بمكانها فى المدينة المقدسة . فقد كان السير فى شوارع القدس فى العصور الوسطى ، مع امعان النظر فى الكنائس اللاتينية الفاخرة ، والكنائس اليونانية العديدة ، فضلا عن الكنائس الصغيرة المتواضعة لبقية الطوائف ، أشبه ما يكون بالتجوال فى أرجاء متحف غنى بكنوزه من متاحف التاريخ الكنسى .

وكانت الطائفة اليونانية هى أكبر الجماعات المسيحية ، كما كانت كنيسة بيزنطة هى أكبر الكنائس . ومع أن قوتها كانت تتركز فى المقاطعات الشمالية ولاسيما فى أنطاكية ، فإنها كانت موجودة بشكل ما فى المملكة اللاتينية . وقبل وصول الصليبيين كانت هى أغنى الكنائس الواقعة تحت الحكم الإسلامى وأكثرها تنظيمًا . ولذا فإنه مما يثير الحيرة أن الصليبيين، الذين أقسموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين البيزنطيين من الخطر الإسلامى، قد تحولوا إلى مناوئين ، بل وقطاع طرق . وقد أدى إلى هذا التطور خليط غريب من الظروف. فمن الناحية العقيدية ، كان اللاتين يأملون فى أن البيزنطيين ليسوا هراطقة وإنما هم منشقون عن روما بشكل مؤقت . وبما أن طقوس الكنيسة البيزنطية وإكليروسها كانت صحيحة، فقد كان من الممكن إغفال الخلافات البسيطة فى العقيدة والتغاضى عن الانحرافات فى الخدمة الكنسية فى سهولة . وقد كان الامتثال اللاهوتى أو الموافقة هى العنصر الحاسم فى العلاقات بين اللاتين والبيزنطيين . ذلك أن اللاتين لم يكونوا بقادرين على تصور موقف يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين الشرقيين ، كما لم يكن ممكناً من الناحية اللاهوتية أن تقبل وجود سلطة دينية لاتينية شرقية موحدة . ومن ثم حل بطريرك لاتينى محل البطريرك البيزنطى فى أنطاكية ، وحدث الشىء نفسه فى القدس بعد الغزو الصليبى مباشرة . وبعد أن خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، أو أعلنوا خلو الكراسى الأسقفية عين الصليبيون أساقفتهم وطلبوا من رجال الكنيسة البيزنطية الاعتراف بالأساقفة اللاتين الجدد والخضوع لهم . وكانت النتيجة أن وجدت حالة من التوتر الدائم بين البيزنطيين واللاتين ، فقد انسحب البطاركة الشرقيون إلى القسطنطينية بعد أن حرموا من كراسيهم ، وتوالى تعاقبهم فى العاصمة البيزنطية كأساقفة إسميين للبلاد التى قهرها الصليبيون . وبقيت الشرائح الدنيا من رجال الدين فى المقاطعات الصليبية ، وإن اضطروا إلى إعلان طاعتهم الإسمية للاتين .

وكان تأسيس أى كنيسة لاتينية يقترن دائمًا بإتلاف الكنائس البيزنطية وهو الأمر الذى وجد لنفسه التبرير الشرعى فى كونه التوارث المألوف من جانب اللاتين لأملاك البيزنطيين

السابقة . وتجلت هذه العملية بوضوح فى الكنائس الكبرى وفى المدن أكثر من الريف . ومع ذلك لم يختف رجال الدين البيزنطيون الذين ظلوا يحتفظون بطقوسهم ومراسمهم الدينية المتمايزة فى كنيسة القيامة ، وفى كنيسة الميلاد فى بيت لحم . فضلا عن أنه فى الأوقات التى كانت فيها العلاقات السياسية أكثر ودية ، كما حدث فى منتصف القرن الثانى عشر ، عندما حدث تحالف صليبى بيزنطى فى عرض البحر ، رأى اللاتين أن يعينوا بطريركا شرقيا فى أسقفية أنطاكية . وانفق الإمبراطور البيزنطى بسخاء على تزيين الكنيسة فى بيت لحم حيث أعلنت الكتابات التى نقشت على جدران الكنيسة عن مولد الروح المسكونية الجديدة .

وأيا ما كان وضع رجال الإكليروس الشرقيين فى الكنائس ، فقد ظلت أديرة الرهبان فى أيديهم ، وتم الحفاظ على تراث الرهبنة فى الأرض المقدسة . أما تراث الرهبنة المصرى ، الذى هو أقدم تراث رهبنة فى المسيحية ، فقد حفظته الأديرة القديمة فى صحراء يهوذا ، وعلى شواطىء الأردن . وظلت أديرة قرنطل ودير مار سابا ، ودير كوزيبا ، فضلاً عن دير سانت كاترين فى سيناء ببهائه وعزلته .. ظلت هذه الأديرة ملاذا للراهب الهارب من هذا العالم . وقد تغنى الأدب الكنسى القديم ، وتراتيل الكنيسة الشرقية بدوام الكنيسة الارثوذكسية ودوام المجد الالهى .

وبينما كان عدد رجال الدين البيزنطيين كبيراً ، كان مجموع السكان الروم الأرثوذكس كبيراً فى الشمال ، قليلاً فى المملكة اللاتينية ، وكان أتباع الكنيسة السورية يكونون غالبية السكان المسيحيين فى المملكة . وعلى الرغم من أنهم لم يكونوا ورثة الآشوريين القدماء كما كان بعض الصليبيين يعتقدون ، فقد كان السوريون من قدامى السكان الأصليين فى الأرض المقدسة وحافظوا على هويتهم الدينية وسلطة كنيستهم ورجالها تحت حكم الإسلام . وقد احتفظ لنا أحد أساقفة عكا فى القرن الثالث عشر بوصف واضح لأولئك المسيحيين الشرقيين ، على الرغم من أن حدة طبع هذا الأسقف قد أفسدت هذا الوصف :

"هناك قوم آخرون استقروا على هذه الأرض منذ القدم باسم أرباب شتى وحملوا نير العبودية بالتوالى تحت حكم اليونان والرومان واللاتين والبرابرة والمسلمين والمسيحيين . وأولئك القوم عبيد فى كل مكان وأتباع يحتفظ بهم أسيادهم لأغراض الفلاحة ، وغيرها من الأعمال الخسيسة . وهم جميعاً عازفون عن القتال ولا فائدة منهم فى المعركة كالنساء . ومع أن بعضهم يحملون القسى والسهام ، فإنهم غير مسلحين ، وعلى استعداد للهرب . هؤلاء القوم يعرفون

باسم السريان وهم غالبا غير أهل للثقة ، منافقون ، وثعالب ماكرة كاليونانيين . وهم كذابون خوانون ، يعشقون النجاح ويمكن رشوتهم بسهولة . وهم رجال يقولون ما لايعنون . ولا يأبهون للسرقة والنهب ، فمن أجل حفنة صغيرة من المال يتحولون إلى جواسيس ينقلون أخبار المسيحيين إلى المسلمين الذين تربوا بينهم وتكلموا لغتهم ، وغالبا ما حاكوا طرقهم الملتوية . لقد خالطوا الوثنيين وتعلموا أفعالهم وحبسوا زوجاتهم كما يفعل المسلمون . ولفوا زوجاتهم وبناتهم بالثياب حتى لايراهم أحد . ولم يحلقوا ذقونهم على نحو ما يفعل البيزنطيون والمسلمون وجميع الشرقيين ، وانما يعنون بها عناية كبيرة ويمجدون فيها على وجه الخصوص شرف الوجه وكرامة الانسان وعظمته معتقدين أن الذقن علامة على الرجولة" .

"ويستخدم السريان لغة المسلمين فى حديثهم العادى ، كما يستخدمون الخط العربى فى الأعمال والتجارة وكافة أنماط الكتابة الأخرى ، فيما عدا الكتاب المقدس وغيره من الكتب الدينية اذ يستخدمون فى كتابتها الأبجدية اليونانية . ويتبع السريان قواعد البيزنطيين وعاداتهم فى مراسيمهم الدينية وغيرها من الأمور الروحية ويطيعون البيزنطيين باعتبارهم سادة لهم . أما بالنسبة للأساقفة اللاتين الذين يقيمون فى أسقفياتهم ، فانهم يعلنون طاعتهم الإسمية لهم تظاهرا وخوفا من أسيادهم ، لأن لهم اساقفة بيزنطيين وهم لايخشون التحريم لأنهم يقولون أن اللاتين جميعا محرومون ، ومن ثم فانهم لايستطيعون حرمان أى إنسان ".

وبينما كان البيزنطيون والسوريون المسيحيون يعتبرون منشقين فقط ، كانت بقية الكنائس المسيحية تعتبر بدعا دينية محضة فى رأي الصليبيين . هذه الكنائس هى الكنائس القومية فى جورجيا وأرمينيا ومصر (الأقباط) ، وأثيوبيا ، وجميعها تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح . ومع ذلك ، فغالبا ما كانت هذه الكنائس الشرقية ببطاركتها وأساقفتها تستفيد من الغزو الصليبى . ذلك أن اليعاقبة (أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة) قد تعرضوا للاضطهاد من جانب البيزنطيين داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ، ولم تكن علاقاتهم بالكنيسة البيزنطية أحسن حالاً فى المناطق الواقعة تحت سيطرة المسلمين . فقد كانت المجادلات اليومية والخصومات والاتهامات العنيفة أمراً كثير الوقوع . وقد وضع الغزو الصليبى نهاية هذه الحرب الحقيرة . فالصليبيون لم يكونوا يبحثون فى عقائد الطوائف كما يخبرنا أحد البطاركة اليعاقبة، فقد كان الجميع سواء فى نظر الفرنجة طالما أنهم ليسوا فرنجة . فضلاً عن أن هذه الكنائس لم تكن عاملاً من عوامل تشكيل سياسة المنطقة ، مثلما كان الحال مع الكنيسة البيزنطية ، الأمر الذى جعل صورتها مرضية فى عيون الغزاة .

والصلة التى تربط الكنائس اليعقوبية صلة قديمة العهد . فقد كانت هذه الصلة تتأكد عدة مرات فى المراحل الأخيرة من السيادة البيزنطية ، أى خلال القرن السابع . وربما كان الفتح الإسلامى قد ساعد على تدهور هذه العلاقة إلى حد ما . ولكن حقيقة أن أرمينيا وجورجيا كانتا من عوامل الحركة السياسية فى آسيا الصغرى جعل الأمور تسير لصالحهما . فقد كانت أعداد الأرمن كبيرة فى مقاطعة انطاكية ، وكانوا يمثلون غالبية السكان فى مقاطعة الرها . كذلك قامت مستعمرات أرمينية صغيرة فى المملكة اللاتينية التى عاش فى جنباتها أيضا بعض الأرمن . وقد قربهم إلى الصليبيين شهرتهم كمقاتلين لايشق لهم غبار . وفى منتصف القرن الثانى عشر فكر الملك الأرمنى توروس Thoros فى أن يرسل ثلاثين ألفا من الأرمن للاستيطان فى الأرض المقدسة ، لكى يجعل المدينة مسيحية من ناحية عدد سكانها أيضا .

أما البلاط الأرمنى – الذى تبنى فى القرن الثالث عشر عادات الفرنسيين وتقاليدهم إلى حد ما – فقد كان خليطا يمزج الشرق بالغرب . وقد زار أحد الرهبان القادمين من جبل صهيون بالقدس بلاط أرمينيا الصغرى عند غروب شمس القرن الثالث عشر ، عندما كانت أرمينيا تابعة للمغول ، وقد ترك هذا الراهب الانطباع التالى عن زيارته للملك وللكاثوليكوس ، بطريرك أرمينيا ، إذ يقول :

"لقد عشت أسابيع ثلاثة فى قصر ملك أرمينيا وكليكيا ، وكان هناك عدد قليل من المغول فى بلاطه . وكان بقية رجال البلاط من المسيحيين ويبلغ عددهم حوالى مائتين . وقد اعتدت على رؤيتهم وهم فى طريقهم إلى الكنيسة ، وهم يستمعون إلى القداس ، وهم يركعون ويصلون فى خشوع . وبالإضافة إلى هذا ، كان كل من يقابلنى أو يقابل صديقى كرمونا منهم يخلع قبعته ويحيينا فى احترام ، ويقفون عند قدومنا" .

"ويسمى كبير أساقفة الأرمن وأهل جورجيا بالكاثوليكوس (الجاثليق) ، وقد مكثت معه أربعة عشر يوما ، وكان معه الكثيرون من المطارنة والأساقفة ورؤساء الأديرة وغيرهم . وقد كان مثاليا فى طعامه وردائه وأسلوب حياته ، لدرجة أننى لم أر مثله أحدا ، سواء من العلمانيين أو رجال الدين . وإننى أعلن حقا أن جميع الملابس التى كان يرتديها لم تكن تساوى خمسة شلنات استرلينية فى رأيى ومع ذلك فقد كان لديه عدد كبير من القلاع الحصينة، كما كان ثريا لدرجة تفوق التصور . وكان يرتدى برنسا خشنا أحمر اللون مصنوعًا من جلد الاغنام ، غاية فى القذارة ورثا إلى أبعد الحدود ، بأكمام واسعة ، وتحته قميص رمادى قديم ممزق ، وفوقه شال أسود وعباءة خشنة سوداء اللون نسجت من صوف الغنم .

"والكاثوليكوس وسائر الأساقفة جميعا من الرهبان . وفى الشرق كله لايمكن لأى أحد فى أية أمة أن يكون أسقفا إلا إذا كان راهبا . ويحظى الرهبان جميعا بالاحترام والتبجيل البالغ . أما رجال الدين والكهنة فليست لهم سلطة ، كما أنهم لايحظون باحترام العامة . وتقتصر واجباتهم على القيام بالمراسيم الدينية ، وهم يحددون مواعيد الصلاة بالضرب على لوح من الخشب السميك أو أية قطعة أخرى من الخشب لأنهم لايمتلكون أجراسا . وعندما يتم إعلان موعد الصلاة فى الليل ، يتوجهون لأداء صلاة الصبح وهم ينادون الناس أثناء سيرهم فى الشوارع لكى يتوجهوا لأداء الصلاة . ويتميز الرهبان الأرمن والجورجيون عن العامة بثيابهم الكتانية البيضاء التى يلفونها حول رقابهم وأكتافهم" .

"ويتم اخصاء اللصوص الذين ارتكبوا حوادث السرقة الصغيرة وغيرهم من الأشرار الذين يرتكبون أصغر الجرائم ، وذلك حتى لاينجبوا أبناء يقلدون أفعال آبائهم الآثمة . وربما يكون هذا هو السبب فى وجود كثير من الغوانى على ما يبدو لى . لأن هناك عدداً كبيراً من الخصيان ، وهم جميعا يخدمون السيدات من بنات طبقة النبلاء . وأعتقد أن ملكة أرمينيا تملك أكثر من أربعين خصيا ، وقد زرت قصرها . ولايزورها أحد إلا بإذن خاص من الملك الذى يعين له أحد الخصيان بالاسم حتى يدخل به إلى الملكة . وهكذا جرت العادة مع كل السيدات النبيلات ، الأرامل منهن والمتزوجات" .

وأكبر كنيسة للأرمن فى الأرض المقدسة هى كاتدرائية سان جيمس فى الحى الأرمنى بالقدس . وقد أقيمت فى القرن السابع أو قبله ، ثم أعيد بناؤها إبان حكم الصليبيين فى حوالى منتصف القرن الثانى عشر . وظلت هذه الكنيسة تؤدى خدماتها للجماعة الأرمنية دونما انقطاع على مدى ثمانية قرون ، وحتى وقتنا الحالى . وفى الجزء الجنوبى من الكنيسة ممر ثلاثى مقنطر يؤدى إلى ردهة حيث توجد بوابة جميلة فى شكل صليبى أسطورى تؤدى إلى قاعة القداس ذات الصحون الثلاثة . وتتمثل الرموز التى تشير إلى صلة الأرمن بكنيسة الرسل وبالمدينة المقدسة فى كرسى سان جيمس المذهب الموجود بالقرب من المذبح ، ورفاته المقدسة ، فضلا عن رأسه الموجودة فى احدى أبرشيات الشمال . وفى القرن الرابع عشر أعاد ملوك أسبانيا تزيين الكاتدرائية من الداخل تعبيراً عن اهتمامهم ببيت المقدس ، إذ كان جسد سان جيمس محلاً للتقديس فى سانتياجو دى كومبو ستلا .

وأهل جورجيا هم جيران الأرمن فى جبال القوقاز ، وصلتهم بالأرض المقدسة ترجع إلى عصور قديمة . ففى نهاية القرن الخامس ، تم بناء دير جورجانى فى الوادى المؤدى إلى مدينة القدس ، ثم أعيد بناؤه على يد الإمبراطور جوستنيان فى القرن السادس . وظل هذا الدير فى حوزة الجورجيين خلال العهد الإسلامى حاملا اسم دير الصليب . وتقول أسطورة قديمة أن الشجرة التى قطعت منها فروع الصليب الحقيقى نمت فى موقع الدير . وربما تكون هذه الأسطورة قد قامت على أساس من القصة التى تقول أن الملكة زوجة داود الثانى David II The Restorer المتوفى سنة ١١٢٥ قد أنشأت ديرا للراهبات لخدمة السيدات الجورجيات فى مدينة بيت المقدس وأرسلت إلى المدينة المقدسة قطعة من الصليب المقدس ، وأرسل جزءا منه إلى باريس برُفْقة راهب أفرنجى يدعى أنسلم . وتم الاحتفاظ بهذه القطعة فى كاتدرائية نوتردام حتى عشية الثورة الفرنسية . وقد أهدى جزء مما تبقى ، بعد تحطيم الصور الدينية والتماثيل المقدسة ، إلى نابليون ، ثم إلى شارل العاشر ملك فرنسا فيما بعد ، ولا تزال بقاياه موجودة حتى الآن فى كاتدرائية نوتردام . وعلى الرغم من ضياع هذا الدير فى الصحراء ، وكونه غير معروف خارج البلاد ، فإن هذا الدير الجورجانى أحرز مكانة خاصة فى قلوب أهل جورجيا البواسل . ففى بداية القرن الثالث عشر أرسلت الملكة تامارا المتوفية سنة ١٢١١ هدايا إلى جماعة الجورجيين فى القدس مع رجل يدعى شوتا روستافلى Shota Rustaveli ظل فى الدير إلى أن مات . وهناك نظم أعظم قصيدة قومية لجورجيا ، وهى قصيدة "الرجل الذى يرتدى جلد الفهد" وجيلا بعد جيل كانت هذه القصيدة تدرس وتتلى فى قرى جورجيا ومدنها . ومنذ سنوات قليلة مضت وافق الحظ بعثة علمية من جورجيا (جمهورية جورجيا السوفييتية سابقاً) فتمكنت من الكشف عن رسومات ترجع فى تاريخها إلى العصور الوسطى ، وتصور القديسين والحكام وشاعر جورجيا القومى .

وكانت الكنيسة اليعقوبية إحدى الكنائس التى تؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح ، وكان لها أتباع كثيرون فى كل المقاطعات الصليبية تقريبا . وقد سميت باليعقوبية نسبة إلى مؤسسها يعقوب البراذعى . وعلى الرغم من أن هذه العقيدة لم تتبلور كعقيدة دولة أو جماعة قومية بعينها ، فإن ذلك لم يمنع أتباعها من أن يعتبروا أنفسهم "أمة" وعددهم فى الشمال أكثر من عددهم فى الجنوب . وكان مقدسهم الكبير هو دير فى أرض المسلمين ، ومع ذلك فإن بطريركهم

كان يقيم فى أنطاكية ، وكانت علاقاته مع كنائس الطبيعة الواحدة علاقة ودية بشكل عام . وباعتبار اليعاقبة أشهر المناوئين للكنيسة البيزنطية فقد لقوا معاملة ودية إلى حد ما من جانب الصليبيين ، مما مكنهم من الاحتفاظ بأديرتهم وكنائسهم فى المدن الرئيسية فى المملكة الصليبية . وكان دير مريم المجدلية الذى بنى فى نهاية القرن الحادى عشر بأيدى الأقباط المصريين نقطة ارتكازهم فى الأرض المقدسة .

ومن بين الطوائف المسيحية الكثيرة التى وجدت فى الأرض المقدسة تحت الحكم الصليبى ، لم تكن هناك طائفة أقرب إلى الحكام من الطائفة المارونية ، فقد كانت هذه الطائفة أشبه بقطعة من التاريخ ترسبت فى وديان لبنان وجباله ، وكان أفرادها يعتنقون إحدى العقائد الكثيرة التى مزقت الكنيسة فى القرن السابع ، وقد أدانت الكنيسة هذه العقيدة باعتبارها عقيدة توحيدية، إذ كان المنشقون يعتقدون فى مشيئة واحدة للمسيح وهى المشيئة الإلهية ، وقد وجد أتباعها لأنفسهم ملجأ فى خلوات لبنان بعيدا عن القسطنطينية . وقد تبنت هذه العقيدة جماعة قومية فى لبنان ، مثلما حدث مع كثير من المذاهب الأخرى . وبعد الفتح الإسلامى وفصل لبنان عن بيزنطة صارت هذه العقيدة هى عقيدة الفلاحين المسيحيين فى أرض فينيقيا القديمة . وفى سنة ١١٨٤ تقبل المسيحيون اللبنانيون الخضوع لسيادة كرسى الأسقفية الرومانية .وكانت تلك حادثة هائلة فى تاريخ لبنان إن لم تكن فى التاريخ الكنسى بأسره . وعلى الرغم من فترات التباعد بين مسيحيى لبنان والغرب ، فقد ظل المسيحيون فى لبنان على اتصالهم بروما ، ومن ثم كانوا أكثر تعرضا للمؤثرات الأوربية من أية طائفة مسيحية أخرى فى الشرق وهو موقف لايزال قائما فى العصر الحاضر .

لقد خضعت الأرض المقدسة لسيطرة كل من روما الوثنية وبيزنطة المسيحية والعرب المسلمين ، وفى كل عصر كان السكان الأصليون يعتنقون ديانة السلطة الحاكمة ، بيد أن جهود التحويل لم تؤت ثمارها مع السكان جميعا . فمع أن الوثنية اختفت تماما ، فقد ظلت المسيحية واليهودية كجزر منعزلة فى بحر الإسلام .

ومن المستحيل معرفة عدد سكان اليهود فى الأرض المقدسة إبان العصر الصليبى ، وقد كان بعضهم ورثة مباشرين للسكان الأصليين ، كما أنه من المستحيل معرفة عدد السكان اليهود الجدد فى المنطقة . وبشكل عام يبدو أن المجتمعات اليهودية الصغيرة فى الجليل ربما

يرجعون بجذورهم إلى عصر الهيكل الثانى الذى انتهى بتدمير الهيكل على يد تيتوس سنة ٧١ ميلادية .

وكان لليهودية طوائفها ، شأنها فى ذلك شأن الإسلام والمسيحية . فقد كان السامرة يتركزون حول نابلس ، ولم يهجروا أبدا جبل جرزيم الذى يقدسونه كما كانت ذبيحة عيد الفصح السنوى، ولاتزال ، رمزا عندهم لبقائهم واستمرارهم . وفى القرن الثامن رفضت طائفة القرائين التى أسسها داود بن عانان قوانين المشنا والتلمود ، ولم تؤمن سوى بالكتب المقدسة . وقد انتشرت هذه البدعة فى الشرق ، وسرعان ما أخذ القراءون والربانيون فى تبادل الرسائل العنيفة دفاعا عن عقيدة كل منهما .

ولم يكن أمل الخلاص والعودة قاصراً على الربانين فحسب ، فقد حدث فى القرن العاشر أن توجه أحد علماء القرائين بدعوة لمجتمعات القرائين يقول فيها :

"أيها الإخوة . لقد دمرت القدس وصارت مدينة سوداء منفية مهجورة وأنتم مستريحون تضطجعون فى أسرتكم ، وهى سكرى ، ليس من نشوة الخمر وإنما من الألم ، تصرخ وتنادى أبناءها لجمع شمل اليتامى الذين يرتدون الأسمال ويعيشون فى الخراب ، الصائمون المعذبون ، الذين انكمشت جلودهم على عظامهم . وتركوا أعمالهم ونسوا أسرهم ورحلوا عن أرض ميلادهم ، يعيشون هنا ، قوتهم الخبز الجاف ، عازفين عن اللحم والنبيذ ، مستمسكين بقانون الرب الذى يحرسون بواباته ويصعدون إلى جبل الزيتون ويبكون .

فلتعلموا أيها الإخوة أن القدس اليوم ملجأ كل إنسان لاجىء ، ومأوى لجميع الحزانى ، وملاذاً للفقير والمسكين ، يجتمع فيها عبيد الرب ، واحد من مدينة واثنان من أسرة ، على حين تبكى النسوة وتنوح باللغة المقدسة (العبرية) وبلغة فارس ، وبلغة اسماعيل (اللغة العربية) .

وقد عانى الجميع ، ربانية وقرائين وسامرة ، إبان الحكم الصليبى ، إذ أن أنباء اقتراب قوات الحملة الصليبية سبقت وصول الجيوش نفسها ، وقد تركزت هذه الأنباء التى رويت عن المذابح اليهودية فى أوربا أسوأ الأثر فى النفوس . وخشيت جماعات كثيرة فى الشرق أن يحدث لها ماهو أكثر سوءاً مما حدث لإخوانهم فى الغرب . وحين دنت ساعة القتال انضم اليهود الربانيون والقراءون والسامرة إلى قوات المسلمين لكى يدافعوا عن مدنهم . وقد دفعوا

ثمناً غالياً فى القدس وحيفا فى سبيل صد الغزاة[١] . واختفى القراءون تماماً ربما لأنهم كانوا يتمزكرون فى المدن . أما اليهود الذين كانوا يعيشون فى قرى الجليل ، والسامريون الذين كانوا يسكنون نابلس ، فقد نجوا من الغزو دون أن يمسهم أذى . ولم تتعرض اليهودية للانقراض فى موطنها التاريخى ، بل إنها بدأت تزدهر بالفعل . وقد عامل الصليبيون اليهود ، معاملتهم لكل ماهو غير فرنجى ، أى أنهم اعتبروهم مواطنين من الدرجة الثانية ، وتركوهم يمارسون حياتهم وشعائرهم كما تعودوا . هذه النظرة خلقت مناخاً مناسباً . فضلا عن أن إمكانية الاتصال بأوربا على نحو متطور ساهم فى إعادة بناء الجماعات اليهودية . وفى القرن الثالث عشر تم إحياء الحياه اليهودية فى الأرض المقدسة بدرجة كبيرة .

كان التصرف الرسمى الوحيد ضد اليهود هو منعهم من سكنى بيت المقدس . ومع ذلك فإن اليهود استوطنوها وعملوا كصباغين فى ظل الحكم الصليبى . وكان فتح صلاح الدين للمدينة سنة ١١٨٧ نقطة التحول فى تاريخ اليهود ، فقد طلب صلاح الدين من اليهود العودة إلى المدينة المقدسة . وبعد سنوات قليلة كتب الشاعر اليهودى الأسبانى يهوذا الحريرى ، الذى زار القدس آنذاك ، يقول :

وهكذا أمر (صلاح الدين) أن ينادى فى كل مدينة ، للعظيم والبسيط من الناس على حد سواء : إننى أتحدث من قلب القدس وأقول إن أى انسان من نسل افرايم يرغب فى الاستيطان فى المدينة فله مطلق الحرية فى ذلك ، وسرعان ماتحولت الهجرة اليهودية إلى القدس والأرض المقدسة إلى حركة عامة . وفى القرن الثالث عشر ترك مشاهير اليهود مثل يهييل Yehiel الباريسى ، ونهمنديا Nahmanides الأسبانى مواطنهم الأصلية لكى يستقروا فى الأراضى المقدسة ، وازدهر المجتمع اليهودى فى القدس مرة ثانية ، مع أن التمركز الأكبر لليهود كان فى المدن الساحلية مثل صور وعكا . ومع ختام القرن الثالث عشر، وعندما اقتربت المملكة الصليبية من نهايتها ، تنبأ أحد تلاميذ نهمنديا بقرب قدوم المسيح المخلص .

---

(١) فى تصورنا أن المؤلف هنا يحاول اختلاق دور لليهود إبان الحروب الصليبية ، وهى محاولة لاتجد لها سندا من الواقع أو التاريخ . ويكفى أن نشير إلى أن النظرية السياسية الإسلامية تمنح الجماعات الذمية (أهل الكتاب) حق العيش فى ديار الإسلام ، وحرية العقيدة والعمل والتنظيم الاجتماعى فى مقابل الجزية التى هى فى الواقع ضريبة دفاع يدفعها الذميون لقاء توطينهم فى دار الإسلام والدفاع عنهم . وهو مايعنى أن العمل العسكرى ظل وقفا على المسلمين وربما يكون أفراد من اليهود قد اشتركوا فى القتال ، كما حدث من قبل مع بعض المسيحيين ، ولكن ذلك الموقف يظل موقفا فرديا لايعبر عن حقيقة تاريخية عامة .

عن هذا الموضوع انظر د. قاسم عبده قاسم : "أهل الذمة فى مصر العصور الوسطى" دار المعارف ١٩٧٧ .

المثال والواقع

نشأت المملكة اللاتينية فى بيت المقدس ، وضربت المستعمرات الفرنجية جذورها فى الأرض الممتدة من كليكيا إلى البحر الإحمر . وكشفت الغزوات الصليبية العنيفة على الأراضى الإسلامية عن أن الغرب قد جاء لكى يستقر تحت سماء الشرق . ومع العقد الثانى من القرن الثانى عشر كانت المستوطنات الصليبية أمراً واقعاً ، بيد أن شكل هذه المستوطنات لم يكن قد تحدد بعد ، كما أن استمرارها فى البقاء كان أمرا غير مضمون . ومع نهاية الحملة الصليبية الأولى بدأ قادتها رحلة العودة إلى أوطانهم ومعهم من نجوا من منجل المعارك الفتاك، وبدأت المستعمرات الحديثة النشأة فى تكوين مؤسساتها السياسية وهيئاتها الاجتماعية ، على حين تم توجيه النظام الاقتصادى لخدمة حاجات المجتمع الجديد .

وخلال حصار القدس بدأت المثل والتوقعات صدامها بالواقع ، فقد بدأت المجادلات حول ما ينبغى عمله بعد الفتح الوشيك الحدوث بين طنين آلات الحصار وهدم الأسوار ، وأصوات الأحجار الطائرة فى ظل أسوار المدينة المحاصرة . وقد ثار الجدل حول إذا ما كان ينبغى اختيار بطريرك للمدينة قبل انتخاب حاكم علمانى لها على اعتبار أن للقيم الروحية الأسبقية على الاعتبارات الدنيوية ؟ أم هل يجب عدم انتخاب أحد ، طالما أن غزو المدينة سوف يبعث ، بالتأكيد ، مملكة المسيح ويعجل بنزول أورشليم السماء على وادى الدموع هذا ؟ وتقرر تأجيل البت فى هذا الموضوع ، ولكن بمجرد أن تم الاستيلاء على المدينة ، وبعد احتفال الجيش المنتصر بالقداس فى كنيسة القيامة ، كان لابد من الوصول إلى حل المشكلة . وكان القرار بانتخاب جودفرى البولونى كمدافع عن المدينة وحام للقبر المقدس . ولم يكن بهذا ملكا ، كما أن حكمه ولقبه لم يكونا دائمين . وكان هذا هو التوفيق بين الآراء والآمال المتصارعة المتضاربة . فضلاً عن أن الانتخاب ذاته كان بمثابة حجر الرحى فى أيديولوجية الحركة الصليبية . بيد أن هذه المثل الصليبية حين اصطدمت بالواقع بحقائقه ، شابتها بعض الأضرار . فعلى الرغم من الإشعاع المسيحانى الذى رافق ميلاد المملكة ، فقد تحددت أبعاد مستقبلها كدولة علمانية ، مثل أية دولة أخرى . وقد أدى الاعتراف بهذه الحقيقة بدوره إلى تلاشى الإشعاع المسيحانى للحركة الصليبية . لقد قدر للقدس أن تظل أورشليم الأرض ، ولم يكن صهيون يعنى شيئًا أكثر من مجرد تل فى جبال منطقة يهوذا .

وفى إطار الوجود الأوربى على تراب الشرق ، ظهرت إلى الوجود أربعة كيانات سياسية ، فقد كانت إمارة الرها هى دولة الصليبيين فى أقصى الشمال فيما بين أعالى نهر دجلة والفرات، وكانت أكثر مؤسسات الصليبيين غرابة ، فقد كان المسيحيون الشرقيون الذين يقطنون الرها متمسكين بهويتهم على الرغم من عزلتهم عن الإمبراطورية البيزنطية وعن موجات الغزاة المتعاقبة من التركمان والأتراك ، فضلا عن الأرمن واليعاقبة الذين كانوا يشكلون غالبية السكان ، كما كان هناك أيضا السريان والنساطرة وغيرهم من الجماعات المسيحية الصغيرة. وكان يحكم هذا الوجود المكثف لطوائف المسيحيين بلدوين أخو جودفرى الذى أسس أسرة حاكمة على أرض العراق . فقد كان على إمارة الرها ، وهى المقاطعة المسيحية الشرقية التى كان يحكمها الغرب اللاتينى وبها قطاعات من السكان المسلمين فى المدن وفى الريف ، أن تواجه المركزين الإسلاميين الكبيرين فى الموصل وبغداد باعتبارهاحصن الصليبيين فى الشمال الشرقى .

وإلى الغرب كانت تقع انطاكية، وحدودها فى الغرب على الشاطئ السورى وميناءى سان سيمون (انطاكية) واللاذقية . وفى الشمال تحدها المقاطعات الأرمنية فى جبال طوروس . أما فى الشرق ، فكانت أنطاكية تواجه المدن الإسلامية الكبرى حلب وحمص وحماة . وفى قمة توسعها بلغت الإمارة أبواب هذه العواصم الإسلامية . وكان حكام حلب يجدون أنفسهم مضطرين بين الحين والحين إلى دفع أتاوة لحكام أنطاكية لكى يسمحوا لهم أن يستخدموا الطواحين التى تقع خارج أبواب العاصمة مباشرة . وقد حاول الصليبيون أن يحتفظوا برؤوس جسور عبر نهر العاصى ، ولكنهم كانوا يعتمدون أساسا على الاستحكامات الواقعة على شاطئ النهر . ولم تستطع إمارة أنطاكية أن تسيطر على أراض واسعة . ومن الناحية العملية كان نهر العاصى هو الحد الطبيعى الذى يفصل بين أنطاكية وجيرانها المسلمين .

ومن المستحيل معرفة ما إذا كان غالبية السكان من المسلمين أم من المسيحيين ، ولكن يفترض أن المسيحيين الشرقيين كانوا يمثلون غالبية السكان . وكان مسيحيو أنطاكية يدينون بثلاثة مذاهب دينية رئيسية وهى : الكنيسة البيزنطية ، والكنيسة السورية التى كانت يونانية فى أدبها الكنسى ومذهبها ، على حين كان أتباعها يتحدثون اللغة العربية ، ثم الكنيسة المونوفيزيتية اليعقوبية التى كانت تستخدم أدبا كنسيا سريانيا ، وتستخدم اللغة العربية فى الحياة اليومية . وكان بعض السكان المسلمين من العرب والأتراك وكان معظمهم ورثة السوريين الهللينيين الذين اعتنقوا الإسلام ، وكانوا يقطنون المدن أيضاً ، ولكن المسلمين كانوا يسكنون

الريف أساسا . وقد أنضاف الصليبيون أنفسهم إلى هذا المزيج القومى والدينى . وعندما أصبح بوهيموند أول حاكم لأنطاكية نال الأعتراف بكونها من أملاك النورمان الذين يحكمون جنوب إيطاليا وصقلية . وكان طبيعيا أثناء موجات الهجرة الأوربية اللاحقة أن ينجذب النورمان فى فرنسا وانجلترا إلى المقاطعة التى تحكمها أسرتهم الملكية الأصلية . ولم يكن النورمان هم العنصر الوحيد فى انطاكية ، لكن المؤكد أنهم كانوا يمثلون غالبية السكان الأوربيين .

أما مقاطعة طرابلس اللبنانية التى كانت أصغر المستوطنات الصليبية ، فكانت تسمى حسب إسم المدينة العاصمة . وكانت تتمتع بحدود آمنة مشتركة مع إمارتين صليبيتين هما أنطاكية فى الشمال ، والقدس فى الجنوب ، إذ كانت طرابلس تقع بين البحر فى الغرب ، وسلاسل لبنان الجبلية فى الشرق ، وكان أغلب سكانها من المسلمين ، كما كان جميع السكان الأصليين يتحدثون العربية . وكانت الطوائف المسيحية الشرقية ، ولا سيما اليعاقبة يشكلون جزءا هاما من سكان الولاية . كما كان الموارنة يمثلون الجماعة الدينية المتميزة . ذلك أن أولئك الفلاحين الذين اشتهروا بمهارتهم الفائقة فى استخدام القوس والسهم ، ظلوا يحافظون على عقيدة آبائهم ونظامهم الاجتماعى . وكان البروفنساليون هم الذين يحكمون مقاطعة طرابلس ، فقد أسس ريموند السانجيلى كونت تولوز ، وماركيز البروفانس ، أسرة حاكمة فى لبنان . وبهذا أصبحت لبنان تنتمى ، من حيث اللغة والعادات ، إلى جنوب فرنسا وملجأ لأولئك القادمين من جبال البرينيس حتى حوض الرون الأدنى وقطالونيا ، واستقروا فى الشرق الأدنى المسيحى.

وكانت مملكة القدس هى الكيان السياسى الرابع ، فقد كان اسم العاصمة المهيب يضفى على حاكمها لقب ملك ، كما كان يمنحه نوعًا من الأفضلية والامتياز بل وزعامة بقية الكيانات الصليبية . وكان آل بويون Bouillon فى حوض اللورين الأدنى يحكمون المملكة إلى أن تزوج فلك Fulk كونت أنجو وريثة المملكة ، الملكة مليساندى وأسس أسرة أنجو الحاكمة . وقد حمل حاكم المملكة الأول جودفرى البويونى لقب المدافع عن القبر المقدس ، ولكن أخاه وخليفته بلدوين الأول توج ملكا للقدس فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، مما ضيع حقه فى ميراث الملك داود . وفى جرأة أطلق بلدوين على نفسه لقب "ملك آسيا ومصر" وهو لقب يدل على رغبة خبيئة . وهى رغبة كادت أن تتحقق على يد أحد خلفائه وهو الملك أماريك . وعلى الرغم من أن ملوك بيت المقدس الصليبيين لم يصيروا حكاماً على آسيا وأفريقيا مطلقاً ، فإن مملكتهم هى التى أحرزت أكبر قدر من التوسع بين الكيانات السياسية الغربية على أرض الشرق .

وعند الحد الشمالى حيث تقع إمارة طرابلس كانت المملكة تمتد بطول الساحل الفينيقى والسورى حتى الصحراء التى تفصل الأرض المقدسة عن سيناء . وكانت مدنها الساحلية عنوانا على مجد التاريخ القديم والكلاسيكى ، فها هى مدن بيروت وصيدا وصور وعكا وابولونيا (أرسوف) وقيصرية ويافا وعسقلان وغزة . وقد تطورت بعض المدن وازدهرت لكونها أسواقا رئيسية للتجارة العالمية . وفى داخلية البلاد كانت حدود المملكة تخترق جبال لبنان حتى المياه الرئيسية فى الأردن . وكان ثمة خط وهمى يحدد الحدود الشرقية الشمالية فوق مرتفعات الجولان . ومن هنا تمتد الحدود حوالى ثلاثمائه ميل باتجاه الجنوب حتى العقبة على البحر الأحمر ، ويدخل فى نطاقها إقليم شرق الأردن (جلعاد وعمون ومواب القديمة) على الطرف الشرقى .

وتتخذ المملكة شكل درع مستدير ذى قاعدة مدببة كالسفين المحشور بين مركزى القوة الإسلامية فى دمشق – العاصمة السورية الكبيرة التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة والتابعة للخلافة السنية فى بغداد – وفى القاهرة – العاصمة الفاطمية للخلافة الشيعية فى مصر . وفى الجنوب وصل الصليبيون إلى واحة العريش فى صحراء سيناء ، كما توغلت جيوشهم حتى دلتا نهر النيل عدة مرات . ولكن حدود المملكة استقرت بشكل نهائى فى الشرق والجنوب على طول حدود صحراء سوريا وشرق الأردن والنقب وسيناء ، وكانت هذه حدودا طبيعية للمملكة .

وكان سكان مملكة بيت المقدس أكثر تنوعا من سكان المقاطعات الصليبية فى الشمال . فقد احتفظت الأماكن المقدسة وتأثيرات المؤسسات الدينية بمقاطعات مسيحية ويهودية وسامرية يحيط بها السكان المسلمون . ففى أماكن مثل القدس وبيت لحم والناصرة ، وجبل تبور زاد عدد السكان المسيحيين ، وربما كانت لهم السيطرة أيضا على غيرهم من عناصر السكان . وينطبق هذا القول نفسه على بعض المناطق الزراعية حول القدس وفى الجليل . كما كانت هناك مستوطنات يهودية متناثرة فى منطقة الجليل الزراعية ، كما وجدت جماعات يهودية متناثرة فى منطقة الجليل الزراعية ، كما وجدت جماعات يهودية منظمة فى جميع المدن الرئيسية فى فلسطين وسوريا . وكان الاقليم قد صار إسلامياً بعد أربعة قرون من الحكم الإسلامى ، وحتى مع عدم السيادة الكاملة للدين كانت اللغة العربية هى اللغة المشتركة للسكان بغض النظر عن دياناتهم . وقد فشلت محاولة تمت قبل ذلك لكتابة اللغة اليونانية بحروف عربية ، ولكن العربية ظلت تكتب بحروف عبرية على مدى آلاف السنين على أيدى اليهود الشرقيين .

وفى القدس ، حيث الكيان الصليبى الذى قام فى أقصى الجنوب ، تنوع التركيب الاثنولوجى للعناصر الغربية عنه فى الشمال . فقد كان لجاذبية الأماكن المقدسة الفضل فى توازن الميل الطبيعى للاستقرار بين أبناء الوطن . وقد قدمت الأسرة الحاكمة ونواة السكان الأوربيين من شمال شرق ووسط فرنسا . ولكن موجات الهجرة اللاحقة قدمت بالبروفنساليين والأنجيين . وكانت شوارع القدس فى القرن الثانى عشر ، أو عكا فى القرن الثالث عشر عالما مصغر الأشكال والألوان لأوربا المعاصرة والشرق الأدنى المعاصر . فقد احتك الفرنسيون ، وهم العنصر الغالب ، بأبناء الجماعات القومية واللغوية الأخرى الذين كان يحيون فى أحياء أو شوارع خاصة بهم . ولم تكن فى الغالب أكثر من عدة منازل تجمعت حول كنيسة مكرسة لقديس مشهور بين أهل الوطن . وهكذا دبر كل من الأسبان والبروفنساليين والإيطاليين والألمان والمجريين والبريطانيين مكاناً لأنفسهم .

وفى الوقت الذى كانت فيه الأغلبية العظمى فى مدينة مثل القدس ، بمؤسساتها الكنسية المتعددة ، من الغرب ، استقر عدد كبير من السكان الأصليين الذين جذبتهم المطامح الاقتصادية إلى المدن الساحلية بعد الغزو الصليبى . ذلك أن المسلمين الذين هربوا أو طردوا أثناء حوادث الغزو ، عادوا ليستقروا فى كل مدن المملكة تقريبا باستثناء القدس . وحيثما كان المسلمون أقل ظهورا ، كان يوجد المسيحيون الشرقيون المتحدثون باللغة العربية ، والذين كانوا يرتدون الثياب العربية نفسها ونفس غطاء الرأس ، إذ كان للأرمن الذين يؤمنون بالطبيعة الواحدة للمسيح أحياؤهم الخاصة ، كما احتفظ الجورجيون واليعاقبة والأقباط والأثيوبيون بكنائسهم الخاصة . وتقابل البيزنطيون والسوريون مع الموارنة والنساطرة . كما وجد أيضًا الدروز والبدو الذين كانوا يفدون إلى الأسواق والمراكز التجارية لكى يقايضوا بمنتجاتهم الزراعية ، أو يعرضوا خدماتهم . وفيما عدا الجيوب السكانية المسيحية كان الريف مسلمًا ، وخاصة فى أقاليم يهوذا والسامرة والجليل التى كانت أقل جاذبية بالنسبة للغربيين من المدن الساحلية وحصونها .

وقد اختفت المثل والتوقعات المسيحانية ، ومع ذلك كان لايزال هناك أمل فى تدخل السماء. ولكن كل يوم يمر كان يفرض على الأقلية الصغيرة المنتصرة أن تخوض صراعًا جديداً فى سبيل البقاء . وكان لابد من اليقظة المستمرة ، والحذر من الهجوم الخارجى ، أو الثورة والتخريب فى الداخل . ولم يكن ثمة مجال للاختيار فى بداية الأمر ، فقد نظمت الدولة

والمجتمع من أجل الحرب ، واقتصرت قوة الملكية والأمراء على القادة العسكريين . وعلى مدى جيل كامل كان القادة هم الذين يخوضون المعارك ، ويدافعون عن الحدود ، ويبنون الحصون ، ويصنعون السلام . وبعد هذا الاستقرار الوقتى ظهر النظام الحكومى من أرضية المعسكر الصليبى الموجه لخدمة أغراض الحرب .

وكان بوسع مملكة بيت المقدس أن تخوض الحرب بما يقرب من ستمائة فارس وعشرة أضعاف هذا العدد من المشاة . كما كانت انطاكية وطرابلس تستطيعان تجهيز العدد نفسه . وقد يبدو اليوم أن ألفا ومائتى فارس قوة ضعيفة ، ولكن فى العصور الوسطى كان للفارس المدرع نفس التأثير الذى تحدثه الدبابة الحديثة فى ميدان القتال . فقد وصل تنكرد ، مثلا ، إلى دمشق بثمانين فارسا ، كما أن الملك أماليك غزا مصر ومعه حوالى ثلاثمائة فارس فقط . وفى أوربا أيضا تم خوض المعارك الرئيسية آنذاك بأعداد مماثلة أو حتى بفرق أصغر من ذلك . فضلاً عن أن القوات التابعة للرهبنات العسكرية كانت تخضع لأوامر المملكة . وقد كانت هذه النظم الرهبانية العسكرية قادرة على تنشئة جيش يضارع جيش المملكة نفسها من حيث القوة . وبطبيعة الحال ، كانت يصل آلاف الفرسان الأوربيين إبان الحروب الصليبية إلى شواطئ الشرق المسيحى ، مما زاد من القوة البشرية العسكرية المتاحة . وقد كانت الجيوش الصليبية لاتقهر فى المعارك التى أخذت أهبتها لها ، والحقيقة أنها نادرا ماهزمت فى هذه المعارك . ولكن الهزيمة ذاتها لها معنى عند الصليبيين يختلف عن معناها عند أعدائهم . فقد كان لدى الأعداء احتياطى لاينفذ من القوة البشرية ، وبالنسبة لهم لم تكن أكثر الهزائم قسوة تعنى أكثر من مجرد معركة خاسرة ، يتلوها تقهقر إلى قواعد آمنة بعيدة عن متناول الجيوش الصليبية فى حلب ، ودمشق ، أو القاهرة . أما بالنسبة للصليبيين الذين كانوا يعبئون كل قواتهم البشرية تقريباً فى حالات الهجوم الرئيسية ، فقد كانت الهزيمة الواحدة ربما تعنى خسارة المعركة أو الحرب ، بل حتى ضياع المملكة نفسها ، وهذا هو بالضبط ما حدث فى يوليو ١١٨٧ فى موقعة حطين عندما كان معنى الهزيمة هو فقدان المملكة .

فقد كان نجاح الغزو والإمداد والدفاع يعتمد بشكل مباشر على موضوع القوة البشرية الهام. وقد أظهرت هذه المشكلة ، أكثر من غيرها ، الفشل الأكبر للصليبيين كما برهنت على كونها السبب الجوهرى فى الإفلاس المطلق للكيانات اللاتينية فى الشرق . وعندما ترك قادة الحملة الصليبية الأولى الأرض المقدسة إلى أرض الوطن كان الباقون الذين لم يرحلوا ، ومعهم زعماؤهم جودفرى ، وبوهيموند ، وريموند السانجيلى ، وبلدوين ، وتنكرد ينتظرون قدوم حملة

صليبية جديدة ، وحدوث هجرة جماعية من أوربا لتقديم القوة البشرية اللازمة لاستكمال غزو الشرق الأدنى . فقد كان لجاذبية الأرض المقدسة ، والتصور العظيم لقيام دولة دينية فى مهد دينها ، وإغراء الشرق الغامض أثره فى اقتناع أولئك الذين بقوا فى الأرض المقدسة بأن الغرب لم يتخل عنهم . بيد أن توقعاتهم قد خابت ، وذلك لأن حملة صليبية جردت سنة ١١٠١ كان مصيرها الضياع بين الرمال فى آسيا الصغرى . وعلى الرغم من أن جيوش الحملتين الثانية والثالثة حاولت عبورَ آسيا الصغرى مرة ثانية ، فإن هذه المحاولات انتهت إلى كارثة وكرب عظيمين . وفى القرن الثانى عشر كانت الاتصالات البعيدة تتم عن طريق البحر ، أما نقل الأعداد الضخمة فيتطلب الطرق البرية . وكان اقتصار الصليبيين على استخدام الطرق البحرية أمراً خطيراً ، إذ أنه حد من إمكانية الهجرة الجماعية-لأن إمكانية النقل البحرى فى القرن الثانى عشر لم تكن لتحل محلاً النقل البرى فى أفضل أحوالها .

وكانت هناك صعوبات فنية كثيرة تعوق نمو الموارد البشرية للملكة . فبعد قيام الحملة الصليبية الأولى والهبة البشرية التى صحبتها ، لم تكن استجابات أوربا لتوسلات المملكة كافية للوفاء باحتياجاتها . وبدلا من طوفان المستوطنين الجدد الذى كان متوقعًا لم ترحل إلى الشرق سوى جماعات هزيلة . ولم يأت بآلاف الناس إلى الشرق مرة أخرى سوى تلك الحملات الصليبية التى أعقبت الكوارث مثل سقوط الرها سنة ١١٤٦ ، وسقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ . ولكن لم يبق بالأرض المقدسة سوى جزء صغير للغاية من الحشود التى اشتركت فى الحملات الصليبية الكبيرة . فبمجرد أن كان الصليبيون الجدد يبرون بالقسم الذى قطعوه على أنفسهم كانوا يتركون المملكة إلى بلادهم الأوربية . وبعد احتلال بيت المقدس بستة شهور فى سنة ١٠٩٩ لم يكن الصليبيون يشكلون أكثر من أحد أحياء العاصمة . وربما كانت النتائج الملموسة لاستمرار الهجرة أكثر وضوحا خلال فترات السلم النسبى التى كانت تسود فيما بين الحملات الصليبية الكبرى وليس إبانها . فبعد أربعة أجيال ، وأثناء معركة حطين سنة ١١٨٧ كان يعيش فى مملكة بين المقدس حوالى مائة وعشرين ألفا من الصليبيين ، وكان هناك عدد مماثل يعيش فى الإمارات الصليبية الشمالية .وقد بلغ العدد الكلى للصليبيين فى الشرق حوالى ربع مليون نسمة ، ونظراً لأن فترة العصور الوسطى القصيرة بالفعل ، كانت أكثر قصراً فى الشرق نتيجة للمناخ والطعام وعدم التكيف ، وحالة الحرب والحصار الدائمة ، فإن موجات الهجرة لم تكن كافية لأن تجعل من المستوطنات الصليبية كيانات سياسية حية .

كانت نسبة الصليبيين داخل حدودهم بالقياس إلى عددأعدائهم واحداً إلى خمسة تقريباً وبينما يبرهن هذا التقييم الإحصائى على أن الصليبيين فشلوا فى الاستعمار الاستيطانى فإن هذا التقييم الإحصائى نفسه يبدو أكثر أهمية عند النظر اليه من خلال الإطار الجغرافى السياسى للشرق الأدنى ، حيث لم يكن ربع المليون أوربى يواجهون السكان المسلمين داخل مناطق سيادتهم فحسب ، وإنما كانوا يواجهون ملايين المسلمين من النيل إلى بلاد النهرين . ومن حسن حظ الصليبيين أن المسلمين كانوا عاجزين عن تعبئة مواردهم لمدى أكثر من مائة وخمسين عاما . ذلك أن رابطة الدين المشترك واللغة والثقافة المشتركة لم تكن لتحول دون مسيرة التاريخ وخوض التجربة . ذلك أن محاولات توحيد القوى الإسلامية ، مثل محاولة صلاح الدين على سبيل المثال ، لم تكن تعمر طويلا بعد وفاة صاحبها . ولم يقدر على خلق دولة موحدة سوى دكتاتورية القائد المملوكى بيبرس العسكرية فى منتصف القرن الثالث عشر، وذلك من خلال فرض الوحدة الصارمة ، ودنما رحمة .

ونظراً للتفوق العددى للمسلمين ، كان على الصليبيين أن يظلوا أقلية فى حالة حرب مستديمة . فقد أملى عليهم المنطق والحذر أن يتمركزوا فى مواقع محصنة . وصارت هذه هى الصفة المميزة للملكة الصليبية . وبينما كانوا فى بلادهم ، سيدا وخادماً - يعيشون فى الريف على الدوام اضطر اللاتين فى الشرق إلى أن يعيشوا فى مدن وقلاع حصينة دونما استثناء . أما الاستيطان الصليبى بالريف فقد اتخذ شكل بيوت الضياع الحصينة التى تناثرت هنا وهناك ، ولكن بالقرب من القلاع أو المدن المحصنة . ولكن القرى التى سكنتها المهاجرون الغربيون كانت نادرة . كما أنها على أية حال لم تكن تخلو من وجود برج دفاعى إلا اذا كانت واقعة فى ظل إحدى القلاع .

ومن هذه المراكز الحصينة ، التى كانت مدنا فى العادة ، كان الصليبيون يحكمون البلاد . ولكى يكون وجودهم محسوساً وسيادتهم فعالة ، فانهم رصعوا جميع الطرق الرئيسية والممرات بالحصون الصغيرة والممرات التى كانت تشبه نقاط المراقبة أو نقاط الشرطة . وصارت شبكة التحصينات الواسعة التى لم تشهدها المنطقة من قبل هى الشبكة الحاكمة للملكة ، فطالما كانت القلاع والحصون والاستحكامات مصونة ظل الصليبيون يحكمون الأرض المقدسة . بيد أنهم كانوا يحكمونها فقط طالما كانت حاميات قلاعها وحراسها ودوريات الطرق قادرة على حفظ الأمن فى الإقليم . وقد تجلت علامات واضحة تدل على قصور السيادة الصليبية بعد ثمانين عامًا من تأسيس المملكة . فقد تحصن جماعة من المسلمين الذين اتخذوا دمشق قاعدة

لهم فى أعلى جبال الجليل ، وفرضوا الضرائب على السكان المحليين دون مضايقة من جانب السلطات الصليبية . وحدث بمحض الصدفة أن استثار وجود كمائن أولئك الفدائيين أفراد أحد الجيوش الصليبية وهم يعملون فى تحصين أحد الممرات الأردنية القريبة ، فدمروا مخابئهم ووضعوا بذلك نهاية لنشاطهم . وقد أدى هذا الحادث إلى ضرورة أن تكون الدولة والمجتمع فى حالة حرب دائمة . لقد تمهلت القدس السماوية فى نزولها ، وصار السلام الأزلى حلمًا قاصراً على عالم النبوءات والأحلام البعيدة المنال ، وكان على القدس الأرضية أن تحكم ويدافع عنها بوسائل واقعية على الرغم من كل ما كانت تعبر عنه من قيم روحانية .

وقام النظام السياسى فى المملكة اللاتينية على أساس من النظام الإقطاعى وهو النظام الوحيد الذى كان يعرفه الغرب . وان كان قد تم تعديله لمواجهة الظروف المحلّية والتحديات الخاصة ، واحتياجات البلاد المفتوحة . فقد كان الملوك والأمراء يمنحون الإقطاعات والضياع والقوى لأتباعهم عادة ، لكى يضمنوا لهم دخلا يمكنهم من القيام بواجباتهم العسكرية ، ويساعدهم على أن يحيوا حياة تتناسب مع مكانتهم فى المجتمع . وكانت هذه الإقطاعيات قليلة فى بداية الأمر ، إذ لم يكن ممكنا ضمان ولاء الأفصال الإقطاعيين النبلاء عن طريق إقطاعات الأراضى ، وإنما من خلال الدخل الذى كان يتيحه النظام المالى المتطور فى الشرق الأدنى ، فضلا عن أن تردد الملوك فى خلق قوى إقطاعية متنافسة قد أدى إلى الحد من توزيع الإقطاعات . وكانت أول الإقطاعات هى الأملاك الملكية والأميرية التى كانت تشتمل على كل الأراضى المفتوحة حديثا . ولكن الإقطاعات برزت إلى الوجود أخيرا ، كما قامت الملكيات التى ارتبطت بالأسر المحلية الحاكمة . وكانت هى إقطاعات غير عادية لأن مركزها كان المدينة وليس القلعة . وهنا عدل الإقطاع الغربى نفسه وفقا للتراث الحضرى العريق فى الشرق ، حيث صارت المدينة هى المر المالى والتشريعى والإدارى للدولة الصليبية ، وكان على سيد المدينة أن يضمن وجود عدد من الفرسان المدرعين والمشاة لخدمة البيت الملكى . وكانت حراسة القلاع والحفاظ على التحصيات فى الضياع جزءاً من واجبات الحاكم العسكرية .

وما أن تم التخلص من تأثير الأيديولوجية الصليبية القديمة وآمالها المسيحانية ، واعتمادها على الحكومة الكنيسة ، حتى سارت عملية تنظيم الأرض المفتوحة على الطريق الذى سار عليه الإقطاع الأوربى . ومن اللافت للنظر أنه على الرغم من الاقتصاد المالى المتطور الذى جعل من الممكن خلق ملكية بيروقراطية يديرها موظفون رسميون ذوو رواتب ثابتة، وجيش يتقاضى أفراده أجورهم ، فإن الصليبيين نظموا دولتهم وفقا للتقاليد التى

جلبوها معهم من أوربا . وبعد جيل من المعاناة والشكوك ، كانت نتيجة تنظيم الحكومة على أسس إقطاعية أن انقسم الاقليم إلى عدد من إقطاعات الأمراء والضياع التى تدين بالولاء لتاج بيت المقدس . ومع ذلك فإن الخريطة الإقطاعية الجديدة لم تؤد مباشرة إلى حدوث أى ضعف ملحوظ للسلطة المركزية . فقد كان الاعتماد على الحاكم ومكانته كقائد أعلى للجيوش كبيرا لدرجة كبحت جماح الاتجاهات المتباعدة عن مركز الحكم الرئيسى ، وهى اتجاهات متوارثة فى النظام الإقطاعى .

لقد كان السادة الصليبيون الإقطاعيون والبارونات الصليبيون الأوائل أكثر نظامًا وتدريبًا من زملائهم الأوربيين . ولم يكن هذا نتيجة لحالة التوتر التى نجمت عن الطوارئ المستمرة فقط، ولكنها كانت أيضا بمثابة التركيب الاجتماعى الخاص لأشراف الصليبيين ونبلائهم . ومع بعض الاستثناءات القليلة ، فإن أبناء الشريحة العليا من طبقة النبلاء قد عادوا أدراجهم إلى أوربا بعد مشاركتهم فى الحملة الصليبية الأولى . فقد كانت المجموعة الأولى قد أخذت على نفسها قسما بالمشاركة فى الحملة الصليبية وتحرير القبر المقدس ولم تكن التزاماتهم الدينية تتعدى ذلك الحد . وعند نهاية رحلتهم كانت لهم حرية العودة إلى وطنهم . أما الآخرون ، الباحثون لأنفسهم عن السلطة والسيادة فى الشرق ، فقد خابت آمالهم ، وفضلوا العودة إلى أوطانهم . والذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون إلى الأسر الكبيرة فى أوساط النبلاء الأوربيين ، وإنما كانوا فى الغالب من الفرسان الأدنى فى مراتبهم من بيوتات السادة الإقطاعيين الاوربيين . وقد سهل هذا من مهمة الحكم ، إذ لم يكن ملك بيت المقدس يجابه أية معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من وجود المملكة .

وبعد حوالى ثلاثين عاما صارت الخطوط العريضة للنظام الإقطاعى فى المملكة ثابتة مستقرة . وكانت الأملاك الملكية فى ذلك الوقت ماتزال أوسع ، ومن المؤكد أنها كانت أكثر ثراء ، من أكبر الإقطاعيات ، وربما من جميع الإقطاعيات مجتمعة . فقد كانت منطقة يهوذا كلها تقريبًا ، فيما بين حبرون (الخليل) فى الجنوب ، والسامرة القديمة حول نابلس فى الشمال داخلة فى نطاق الأملاك الملكية . وفى الوقت نفسه كان التاج سيداً على المدن البحرية الرئيسية الثلاث فى المملكة وهى يافا وعكا وصور ، فضلاً عن العاصمة بيت المقدس . وفى مقابل الأملاك الملكية الواسعة كانت هناك كبرى الإقطاعيات التى كان بعضها كبيرا جدا مثل إقطاع الجليل ، وإقطاع شرق الأردن ، ومقاطعة يافا (التى صارت إمارة يافا - عسقلان فيما بعد وصارت من أملاك الأسرة الحاكمة) ، وكان بعضها الآخر صغيرا بالقياس إلى المستوى

الأوربى . وكانت هذه تتمركز حول المدن الساحلية ، مثل صيدا وبيروت وحيفا وقيصرية وأرسوف ، و حول المراكز الداخلية مثل نابلس وحبرون والرملة وبيسان . ومن الغريب أن عدد الاقطاعيات الدينية كان ضئيلاً للغاية على الرغم من الدوافع الدينية التى أذكت نيران الحروب الصليبية . ومن هذه الإقطاعيات الدينية كانت اللد (التى أطلق عليها اسم سان جورج فيما بعد) وبيت لحم والناصرة ، وكانت هذه الإقطاعيات صغيرة جدا فى حجمها . وكانت المدينة هى المركز المعتاد للإقطاعية ، بيد أنه كانت ثمة استثناءات لهذه القاعدة مثلاً إقطاعية شرق الأردن التى كانت بمثابة دولة حاجزة بين أراضى الهلال وأراضى الصليب ، فقد كان لها قلعة مركزية . وكان مسكن السيد الإقطاعى فى قلعة المدينة ، أو بالقرب منها حيث يقيم أيضًا الجهاز الحاكم العسكرى والإدارى للإقطاعية . وكانت حامية المدينة تتمركز فى القلعة التى كانت تبنى فى الغالب قريباً من البوابة الرئيسية للمدينة ، كما كانت تضم موظفى الجمرك الذين كانوا يقومون بتحصيل الرسوم على المنتجات والمواد الغذائية .

وكانت الإمارات الإقطاعية تنظم على نسق المملكة . فقد كانت محكمة الملك أو المحكمة العليا ، كما أطلق عليها الصليبيون ، هى النظام الرئيسى الذى قامت عليه الحكومة الملكية . فهنا كان الملك يقابل كبار الإقطاعيين ، ومن الناحية القانونية كان فرسان البيت الملكى والأتباع فى الأملاك الملكية هم كبار الإقطاعيين (وذلك لأنهم كانوا أيضًا أتباعًا مباشرين للتاج) . وكانت المحكمة الملكية شأنها شأن أية محكمة أخرى فى العالم المسيحى ، محكمة قانونية فى المحل الأول مهمتها إرساء العدالة بين أتباع التاج ، ومعالجة المشاكل الخاصة بإقطاعاتهم ومسوغات الملكية (بالنسبة للضياع التى كان التاج يهبها على سبيل التشريف) ، والأهم من ذلك أن هذه المحكمة كانت هى المجلس الأعلى للحكم . ومع أنها مجلس استشارى أصلاً ، فقد تحولت بالتدريج لتصبح العامل السياسى الحاسم فى المملكة . وعلى الرغم من أن أعضاءها كانوا يجتمعون بناء على أمر الملك ، وعلى الرغم من أن الملك كان يستطيع أن يختار موضوع المناقشة ، فإن أمور السياسة الخارجية ، وإعلان الحرب والسلام ، وإصدار أوامر التعبئة وفرض الضرائب الاستثنائية (غير الإقطاعية) كانت كلها أموراً خاضعة لمداولة المحكمة العليا .

وطالما كانت قوة التاج كبيرة كان رأيه حاسماً . ولكن مع بداية القرن الثالث عشر ، حلت المحكمة العليا محل سلطة التاج المتهالكة .. وقد لعبت المحكمة العليا دوراً هاماً فى شئون الوراثة الملكية والصراع من حولها فى القرن الثانى عشر ، وأثناء القرن الثالث عشر ، كانت

مسألة شرعية الوراثة ماتزال تشوبها ضبابية عدم الوضوح مما جعلها محلا للصراع مرة أخرى . وتدخلت المحكمة العليا فى هذه المسألة باقتدار ، مما جعلها عنصر السلطة الهام فى المملكة . فقد تفوقت بقدرتها وبنائها على الفرع التنفيذى فى الحكومة (إذ كانت تضم كل من له مركز فى المملكة) وكانت الإدارة المركزية ، التى تم تنظيمها عقب الغزو مباشرة ، انعكاسا للتراث الأوربى الذى يمتد بجذوره إلى عصر شارلمان ، حين كان موظفو البيت الملكى موظفين فى الدولة أيضاً . وكانت وظائفهم تشمل عمدة القصر ، والكونستابل ، ورئيس الحجاب ، والمسئول عن الطعام والشراب فى القصر ، فضلا عن الأسقف الذى كان يقوم برئاسة قضاة محكمة البلاط . واستمر هذا الإطار الأولى قائما على مدى قرنين من الزمان دونما تغيير ملحوظ . بيد أن الأمر نفسه يشهد على عدم أهمية هذه الوظائف ، كما يشهد على الروح المحافظة للمملكة . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن هذه الوظائف لم تكن محل صراع ، ذلك أن التاج كان قد عين من يشغلونها من بين كبار النبلاء ، كما لو كانت الخدمة فى هذه الوظائف جزءاً من تربيتهم فى الحياة السياسية والعامة .

وكانت الأهمية المتزايدة للمحكمة العليا مقرونة بتغييرات فى تركيبها . فمنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان يسمح لكل أصحاب الإقطاعيات فى المملكة بالانضمام إلى المحكمة العليا . وكان هذا يعنى ، من الناحية النظرية ، أن تضم كل النبلاء فى المملكة وأفصالهم ، وأفصال أفصالهم وفقا لتدرج السلم الإقطاعى . ومع القرن الثالث عشر ظهر فى المحكمة نواب لبعض الهيئات المتضامنة ، مثل القادة العسكريين ، والفيكونتات ، والقناصل . كما ظهر نواب من نمط جديد ، هم نواب الهيئات المتحدة مثل الجماعات الإخوانية (وكانت هذه فى الأصل جمعيات خيرية يرأسها قديس من الوطن ، وكان الانضمام إليها حقا للنبلاء وأبناء الطبقة الوسطى أحياناً على السواء . ثم حدث أن صارت نواة للحركات الثورية) وفى السنين الأخيرة من عمر المملكة كانت المحكمة العليا فى طريقها لأن تكون برلمانا للمملكة يجمع بين أصحاب الأملاك على اختلافهم ونواب الجمعيات .

كانت محكمة السيد الإقطاعى التى تجمع أتباع الإقطاعية محكمة قانونية فى الأصل ، مثل المحكمة العليا ، كما كانت بمثابة مجلس استشارى للسيد الإقطاعى أيضاً . وكان النظام التنفيذى فى الإقطاعية صورة من نظام التاج . بيد أن الإقطاعيات الكبيرة هى التى كانت قادرة على التباهى بأن لديها درجات وظيفية مشابهة لتلك التى لدى الدولة . وعادة ما كان لكل إقطاعية محكمة خاصة ، فضلاً عن موظف أو إثنين لإدارة مالية السيد الإقطاعى والبيت

الحاكم . ولكن البناء السكانى للإقطاعيات الصليبية كان يختلف اختلافاً جذرياً عن النمط الأوربى المألوف لدى النبلاء الصليبيين . ذلك أن الصليبيين كانوا مضطرين للتعامل مع الفرسان وسكان المدن فى الكومونات التجارية الايطالية بدلا من النبلاء والأقنان الذين عرفهم المجتمع الأوربى ، وكان الجميع ينضوون تحت لواء الإطار الفرنجى العام . فضلا عن المسيحيين الشرقيين الذين كانت تضمهم حوالى ست طوائف ، بالإضافة إلى المسلمين واليهود والدروز والحشاشين والسامرة فى بعض أجزاء المنطقة .

لقد كان ذلك عالماً غريباً ومثيراً ، ولم يكن فى تجارب الصليبيين السابقة ما يجعلهم على استعداد للتعامل معه . وقد سلك الصليبيون أسهل طرق المقاومة ، ذلك أنهم ببساطة لم يخالطوا السكان الوطنيين على الصعيد الاجتماعى ، وتركوهم لنظامهم الحكومى . وكان هذا قرارا حاسما لأنه كان يتطلب التخلى عن أى عمل تبشيرى واسع النطاق بين المسلمين أو المسيحيين الشرقيين . وهكذا ، وعلى الرغم من أن الأرض المقدسة كانت تحت السيادة المسيحية ، فإنها لم تصبح إطلاقاً بلداً مسيحياً لأن غالبية السكان ظلوا من غير المسيحيين . ومرة أخرى اصطدم الواقع بالمثال ، وأملى الواقع شروطه القاسية بالتسليم . وكانت هناك فرصة لبناء الدولة المسيحية كما وجدت تحت سلطة البيزنطيين منذ ثلاثة قرون مضت ، وقبل أن تقهرها قوات فرسان البادية التى اندفعت فى سرعة من أعماق شبه الجزيرة العربية لتأسيس السيادة الإسلامية . ولكن الصليبيين لم يستغلوا الفرصة ، لأن التحويل إلى المسيحية لم يكن أبدا جزءا من برنامج الكيان الصليبى . ولم تكن موجات الهجرة الأوربية تسمح بحلول الاستعماريين الأوربيين محل السكان الأصليين .

ومن ناحية أخرى ، كان مبدأ عدم التدخل ، الذى كان إلى حد ما تقليداً لتراث النظام الإسلامى السابق ، يضمن استقلال الجماعات الدينية المتعددة . ففى القرى كان التقاضى بين أعضاء الجماعات المختلفة يتم أمام سلطاتهم التقليدية ، علمانية كانت أم دينية . وكانت هذه هى الحال فى مدن المملكة ، ولم يطبق التشريع الفرنجى سوى فى الحالات التى كانت تجمع بين الفرنجة وغير الفرنجة ، أو عندما يلجأ فرد من أبناء اقلية ما إلى المحاكم الأجنبية .

وكان الصليبيون الأحرار أو سكان المدن يحتلون درجة أقل من درجة النبلاء والفرسان فى سلم الحكومة الصليبية . ومن خلال رتبتهم ودرجتهم تكونت فى بطء طبقة أشراف المدينة ، ولكنها كانت طبقة مختلفة عن شبيهتها فى المدن الأوربية ، فسكان المدن من الفرنجة لم

يصبحوا أبداً سادة الاقتصاد الوطنى على نحو ما حدث لرفاقهم الأوربيين . ذلك أن أكثر المهن ربحا ، وهى التجارة الدولية ، صارت بالفعل حكرا على الإيطاليين والبروفنساليين وأهل قطالونيا . أما طبقة الأشراف الصليبية فقد وصلت إلى السلطة ، لا عن طريق النجاح الاقتصادى ، وانما من خلال القنوات الإدارية . ففى كل مدينة ، ولاسيما فى عكا وبيت المقدس ، وصلت بعض الأسر إلى السلطة فى حاشية البطريرك والملك والأسقف والسيد الإقطاعى الكبير . فقد كان أبناء هذه الأسر قد تلقوا تعليمهم فى المدارس الملحقة بالأديرة والكنائس ، حيث لقنوا مبادىء القراءة والكتابة والحساب . كما كانت لهم معرفة سطحية باللاتينية بحيث يمكنهم استكمال الحسابات والتقارير ، وكتابة مذكرة حول العقود التى كان موثق العقودالرسمى يتولى تحريرها. وكانوا ، وهم يحاولون الكتابة باللاتينية يدخلون تعبيرات فرنسية وإيطالية فى سياق الكلمات اللاتينية ، كما أنهم أجهزوا على النحو اللاتينى . ومع ذلك . فانهم كانوا أكفاء . ومثلما فعل سادتهم من الأشراف وجدوا متنفسًا إيجابيًا منتجًا لمواهبهم الإدارية فى محاكم المملكة الخاصة بغير النبلاء .

وقد صارت محكمة سكان المدن ومحلفوها ، نقطة الارتكاز لدى طبقة الأشراف ، كما صارت المحكمة نفسها مصدر السلطة فى المدينة بحيث كان المحلفون يتمتعون بأهمية كبيرة باعتبارهم الشريحة العليا بين الفرنجة غير النبلاء . ومع ظهور كفاءات الرجال العاملين فى المحكمة ارتقت مكانتهم بسرعة . وأصبحت محكمة سكان المدن ، التى كانت مكتبا للسجلات، بمثابة فرع للنظام التشريعى . وكانت هذه المحكمة الخاصة بسكان المدن وأملاكهم وعقاراتهم تقوم بتسجيل كل صفقات العقارات الخاصة بالمواطنين مثل البيع والتأجير ، والرهونات العقارية، وأراضى المدينة والحدائق والآبار وغيرها . كما كانت تعرض على قضاة المحكمة القضايا الخاصة بالدعاوى والمنازعات . ومنذ شروق الشمس إلى غروبها ، وعلى مدى ثلاثة أيام فى الأسبوع ، كان القضاة يجلسون للفصل فى الخصومات ، يحيط بهم الموثقون والكتبة والشمامسة . ويفد اليهم سكان المدينة الصليبية بمشاكلهم المختلفة من قضايا عقارية إلى محاولات التهرب الضريبية والجمركية والسرقة والجنايات الكبرى . وقد جاء مراقب شرطة المدينة ، أو المحتسب الذى كان مسئولاً عن الأعمال التجارية الشريفة فى الأسواق ، ومعه المجرمون ليعرض على المحكمة التهم الموجهة ضدهم . ومن هنا يأخذ المسئول عن السجن المحكوم عليهم للعقوبة البدنية أو الحبس . وفى بعض الحالات ، كان يتم تحديد تاريخ آخر للفصل بين المتنازعين ، أو يحدد موعد آخر للدفاع عن الحقيقة فى مبارزة بالسيوف ، كما كان مألوفاً فى عرف سكان المدن .

وبمرور الوقت وجد سيد المدينة أنه من الأفضل والأكثر فائدة أن يقتسم اختصاصاته الواسعة مع محكمة المدينة . فكانت المحكمة تقرر قوانين حظر التجول والأسعار ونظافة الشوارع ، ثم يقوم منادى المدينة بارتقاء حجر خاص ، وهو عادة بقايا عمود قديم كانوا يسمونه Le bon ليعلن هذه القوانين على المواطنين المتجمعين . وقد أدى استمرار المثول أمام المحكمة إلى ظهور فئة كبيرة من المحامين من سكان المدن . وهو ماحدث أيضا فى أوساط النبلاء الصليبيين ونظراً لمعرفتهم التى لم يكن أحد يشك فيها ، علت مكانتهم لدرجة أن النبلاء المتكبرين كانوا يطلبون نصيحتهم ، بل وكانوا يدعونهم إلى المحكمة الإقطاعية فى المملكة فى بعض الأحيان.

وإلى جانب محكمة السيد الإقطاعية ، ومحكمة المدن كانت هناك محكمة السوق المنفصلة. وهى هيئة فرنجية سورية مختلطة تحكم فى المنازعات الصغيرة التى كانت تنشب فى السوق حيث كان المدعون والمتهمون أفرادا من جماعات مختلفة . وقبل تأسيس محكمة السوق كانت هناك محكمة سورية وطنية يرأسها الرئيس . ووفقا لما جاء فى بعض المصادر الصليبية طلب المسيحيون المحليون إشراف ملوك بيت المقدس الأوائل على هذه المحاكم ، ثم انتقلت بعض اختصاصاتهم إلى محكمة السوق بمرور الزمن . ولم يحدث هذا التطور فى القرى التى يقطنها المسيحيون الشرقيون والمسلمون ، إذ ظلت المحاكم الوطنية تواصل عملها ، وذلك لأن هذا التطوركان مرتبطا بحياة المدينة .

وقد ظهرت مؤسسة جديدة هامة لمجابهة ظروف الحياة الجديدة ، وهى محكمة السلسلة . والاسم مشتق من السلسلة التى كانت تستخدم فى المدن الصليبية الساحلية كما يصفها الرحالة اليهودى الأسبانى الشهير بنيامين التطيلى فى الربع الأخير من القرن الثانى عشر :

"وصور مدينة رائعة ، وبها ميناء فى وسطها حيث تدخل السفن إلى المدينة بين برجين ، وفى الليل يلقى أولئك الذين يجمعون الضرائب بالسلاسل الحديدية من برج إلى برج بحيث لايستطيع أى إنسان أن يمر بقارب أو بأية وسيلة أخرى لسرقة السفن ليلا" .

وفى أوقات الحرب أيضاً كانت تعد السلاسل بين الأبراج السوداء لكى تمنع سفن العدو من دخول الميناء . وكانت محكمة السلسلة عبارة عن هيئة قانونية تخصصت فى القضايا البحرية. فقد كانت القضايا الخاصة بالنقل والملاحين وغرق السفن والقروض البحرية والشركات التجارية، تتطلب معرفة متخصصة من جانب قادة السفن الذين كانوا عادة من أصحاب السفن أو التجار فى الوقت نفسه . وبعد أن توضح المحكمة القضية تبلغ نتائجها إلى محكمة المدينة للحكم والتنفيذ .

وكان تطور هذه المؤسسات جميعاً بعيداً كل البعد عن آمال وتطلعات الحملة الصليبية الأولى ، بيد أنها كانت ضرورية للحفاظ على المملكة وحكومتها . وكان الملك يعتبر نفسه خليفة الملك داود ، ولكنه لم يكن أكثر من حاكم لإحدى دول العالم المسيحى .

وكان وجود المستوطنات الصليبية فى الشرق يعتمد على أوربا ، ليس فقط من أجل الهجرة، وإنما من أجل العون المالى أيضاً . وحقا وصلت أعداد من المهاجرين من أوربا إلى الأرض المقدسة ، ولكم كانت هذه الهجرة مختلفة عن الجماهير العريضة التى جاءت فى ركاب الحملة الصليبية الأولى !! إذ لم يكن دافعهم الأول دينياً خالصاً ، بل ولم يكن مسيحانيا . فقد ذهب بعض الأوربيين إلى الشرق ليتخلص من قيود العبودية والرق . على حين ذهب البعض الآخر رغبة فى أن يبدأ حياة جديدة فى أرض غير معروفة ، وبإمكانيات هزيلة . لقد تلاشى المد المسيحانى الذى صحب الحملة الصليبية الأولى فى غمار النسيان وجر معه الاعتقاد فى تحقيق النبوءات القديمة واقتراب الحساب الأخير . لقد عاشت أوربا أعظم ساعات النهضة الروحانية ، ولكنها عادت الآن تستسلم للحياة الروتينية ومشاغل الحياة اليومية .

وعلى الرغم من أن الهجرة إلى الشرق صارت تعتمد على الدوافع الاجتماعية والاقتصادية، فإن أوربا كانت لاتزال تشعر بأن المملكة الصليبية البعيدة كانت أكثر من مجرد كيان سياسى آخر فى العالم المسيحى . لقد تولت هذه المملكة حماية الضريح المقدس ، كما تولت أيضاً حماية الصورة الروحية التى أرادت أوربا أن تروجها لنفسها . لقد كانت المملكة الصليبية من خلق أسمى الأوقات التى عاشتها أوربا ، كما كانت من خلق فرحة السمو فوق الصراعات الصغيرة التافهة والحروب التى تطحن برحاها الأخوة ، فضلا عن أنها كانت تجسيداً لإيمان أوربا وشعورها بعالمية دينها . وطالما أن هذه العقائد ظلت قوية كانت أوربا تعتبر نفسها قيمة على سليلتها الشابة (مملكة بيت المقدس) وعلى مدى قرنين من الزمان كانت أوربا تهتم بالمملكة وترسل المهاجرين ، وتقدم المعونات المالية لخزائن الصليبيين الخاوية دائما ،كما كانت تجهز وتجرد الحملات الجديدة على الشرق . وكان يقود هذا السلوك القوتان العالميتان المسيحيتان وهما الإمبراطورية والبابوية اللتان كانتا زعيمتى العالم المسيحى على المستوى الدنيوى والمستوى الروحى . وكانت دعوى المملكة على أوربا المسيحية من القوة بحيث أن البابوية فرضت ضريبة على رجال الدين والعلمانيين لمدة جيلين لكى تضمن الموارد المالية اللازمة للصليبيين وممتلكتهم . وقد سار ملوك أوربا وأمراؤها فى الطريق نفسه. فقد شعرت فرنسا وانجلترا النورماندية بأقوى الروابط التى تصلها بالمملكة ، كما جاءت المساعدات

من النرويج وصقلية وأسبانيا والمجر . وكان التأييد والعون مستمرين طالما كانت أوربا تعتبر أن مملكة بيت المقدس قطعة من لحمها وبعض دمائها .

ومع ذلك ، فقد تغير هذا كله مع بداية القرن الثالث عشر ، حيث هبت رياح جديدة ، واستسلم مثال المسيحية العالمية للممالك الإقطاعية النامية ، وبدأت الرؤية الجديدة تناهض غزو القوة بالإرساليات السلمية . وبالتدريج بدأت أوربا تقطع صلاتها العاطفية بمستعمراتها الشرقية . ولم تكن الحماسة الصليبية القديمة تؤجج سوى صدور أصحاب الرؤى مثل سان لويس (الملك لويس التاسع) ولفترة وجيزة فقط . ولكن الحركة كانت حينذاك تسير فى طريق نهايتها المحتومة .

جلب النبلاء والفرسان معهم من أوربا مفاهيم ومثل أسلوب حياة الأسياد الإقطاعيين وأعادوا غرسها فى تربة البلاد المفتوحة حديثا . وقد واصلت أوربا الغربية الحياة تحت سماء الشرق ، وضربت اللغة والأنماط والعادات الفرنسية بجذورها فى تربة عالم البحر المتوسط الشرقى ، وسرعان ما نما جيل ثان وثالث من أبناء الفاتحين الأصليين . وبالنسبة لهذه الأجيال الجديدة كانت كلمة "الوطن" تعنى الأرض المقدسة على حين كانت أوربا - الوطن القديم - مكاناً ترتبط به أصول أسلافهم البعيدة ، وكانت الأجيال الجديدة سلالة حديثة من الرجال والنساء أطلق عليهم اسم البولان Poulains وهو اسم يمكن ترجمته أو فهمه بمعنى "الأولاد" وقد كانت حياتهم المنزلية وعلاقاتهم الأسرية وخصوصياتهم كلها انعكاسا لأوربا ، ولفرنسا على وجه التحديد . بيد أن بيئتهم - أى ظروف الحياة المادية وما يقابلونه يومياً فى الشارع والسوق - كانت عالم شرق البحر المتوسط . وهكذا ، فإن سليل العائلة النبيلة ، أو حتى سليل عائلة من الفرسان ، كان يمر بنفس مراحل التربية والتعليم التى يمر بها أقرانه الأوربيون . فقد نشأ فى ظل تعاليم نفس الدين ، ولقن نفس مبادىء العقيدة ، ورسم موافقه وتصوراته الثقافية معتمداً على نفس الأساطير والقصص الدينى وروايات البطولة وأشعار البلاط التى يتذوقها قرينه فى غرب أوربا . وهكذا برزت إلى الوجود فرنسا ما وراء البحار .

ومع ذلك فالفرنجى الذى ولد فى بلاد الشام لم يكن أوربيا تماما . فالزيجات المختلطة بالسيدات الأرمنيات والبيزنطيات كانت أمرا شائعا فى أوساط الشريحة العليا من نبلاء الفرنجة . ومن ثم فقد كان من المألوف تماما أن تكون أم أحدهم أو جدته أو خالته مسيحية شرقية . وتنسحب هذه الحقيقة أيضاً على البيوت الملكية وبيوت الأمراء الصليبيين . وأخذت مثل هذه الزيجات تجلب معها الخدم والحشم الشرقيين - سواء من المسيحيين أو المسلمين - الذين كثرت أعدادهم فى جميع بيوت الفرنجة الأثرياء . أما أبناء الشرائح الدنيا من المجتمع الفرنجى ، سواء من الفرسان الصغار أو سكان المدن ، فغالباً ما كانوا يتزاوجون بالمسيحيات الشرقيات من نفس مستواهم الاجتماعى . ويعلق أحد كاتبى الحوليات من الصليبيين على الأحوال التى نتجت عن ذلك بقوله :

"تأمل من فضلك ، واعتبر كيف نقل الرب فى أيامنا الغرب إلى الشرق . لأننا نحن الذين كنا غربيين أصبحنا الآن شرقيين . وذلك الذى كان رومانيا أو فرنجيا قد أصبح الآن جليلياً أو

فلسطينيًا . والذى كان مواطنا فى ريمس أو شارتر قد أصبح الآن من مواطنى صور أو أنطاكية. لقد نسينا بالفعل أماكن مولدنا وأصبحت غير معروفة للكثيرين منا ، أو على الأقل أنها أصبحت لاتذكر . ويملك البعض هنا بالفعل المنازل والخدم الذين ورثوهم عن ذويهم ، كما اتخذ البعض زوجات ليس من بنى جلدتهم فحسب ، ولكن من السوريين والأرمن أيضا بل ومن المسلمين الذين نالوا نعمة التعميد . كما أن البعض قد اتخذ لنفسه صهراً ، أو زوجة ابن ، أو زوج ابنة ، وهنا أيضًا أحفاد وحفيدات ، والبعض يزرع الكروم بينما يزرع البعض الآخر الحقول. ويستخدمون جميعا كلمات وتعبيرات من لغات مختلفة . وهذه اللغات ، التى أصبحت الآن شائعة ، وأصبحت معروفة لدى الجنسين . كما أن العقيدة وجدت بين أولئك الذين كان أباؤهم غرباء .

وهكذا اعتاد الفرنجى الشاب "البولان" منذ نعومة أظفاره على مواجهة الغرب والتعايش معه فى الشرق ، فقد كان البيت أو القلعة التى يعيش بها فى المدينة بناء شرقياً كان فى العادة ملكا لأحد المسلمين قبل الغزو الصليبى ، وكان يختلف تماما عن الأبنية والتحصينات الأوربية . فقد كان الخشب هو مادة البناء الأكثر شيوعا فى الغرب ، ولكنه لم يكن معروفا تقريبا فى الأرض المقدسة إذ كان الحجر هو مادة البناء الشائعة والمستخدمة فى كل من المدن والقرى . وعادة ما كانت تحمل من مكان لايبعد من المدينة نفسها ، مثل الحجارة التى تقطع من منحدرات جبل الكرمل فى تيسارية والحجارة المعروفة باسم Chastel Pélerin أى "الحاج الطاهر" والتى كانت تقطع من المحاجر القريبة التى تسد طريق الكثبان الرملية المتحركة باتجاه الشرق أو الحجارة ذات اللون الوردى الجذاب التى تجلب من الجبال القريبة من مدينة بيت المقدس .

وكان المنزل ذو الطابقين أو الثلاثة طوابق هو النمط الشائع فى المساكن . بيد أن المنازل ذات الطوابق الخمسة كانت معروفة أيضًا وغالبًا ما كانت أسقفها المسطحة مرصعة بأشجار النخيل المزروعة فى أحواض أو بالأشجار دائمة الخضرة ، بحيث تصير مكانا يستمتع فيه المرء بالنسمات الباردة بعد مغيب الشمس الحارقة . وفى الداخل ، كانت الحوائط السميكة تحفظ الدفء فى الشتاء ، حيث تهبط درجة الحرارة فى أماكن مثل بيت المقدس وصفد وجبال شرق عكا ، وفى طرابلس وأنطاكية إلى درجة التجمد . وفى الصيف ، كانت الحوائط والنوافذ الضيقة تحفظ للحجرات برودتها ، حتى أثناء وقت رياح الخماسين اللافحة . كما كانت الأسقف شاهقة الارتفاع . وتضفى الأقواس الرقيقة مزيداً من الشعور بالارتفاع على المكان "

إذ كانت النوافذ الضيقة تحد من دخول الضوء والحرارة . ولم تكن النوافذ تغطى بالألواح الخشبية أو بجلد الرق، وإنما كانت تتألق بالزجاج المصنوع محلياً . وكان الزجاج النقى الشفاف نادرا إلى حد ما ، ولكن الزجاج الأزرق أو الأخضر والنصف شفاف والذى يضم الفقاعات الهوائية كان كثيرا ما يستخدم ما لم يفضل المرء الزجاج المرسوم .

وعادة ما كانت واجهة الدور الأرضى فى المنازل الشرقية عبارة عن حائط صلد ليس فيه سوى المدخل . وكانت نوافذ الطوابق العلوية تسمح بدخول بعض الضوء . ولكن الفتحات الأساسية فى البيت كانت تطل على فنائه الداخلى ، حيث يوجد البئر عصب الحياة ، والذى يحفظ فيه ماء المطر . أو فى بعض الأماكن كانت حفرة فى الأرض تتصل بإحدى القنوات المائية الصناعية القديمة . وفى بعض المناطق الريفية ، كما نعرف من خلال وصف أحد القصور الصليبية الرائعة فى بيروت ، تقام نافورة لترطيب الهواء ، وتسقط مياهها مرة أخرى فى بحيرة كسيت بالموزاييكو .

وفى بعض المنازل ، كانت السلالم تبنى خارج المنزل بحيث تسمح بالصعود من الشارع إلى كل طابق من طوابق المنزل . وغالبا ما كانت منازل الأثرياء تحتوى على نوع من البناء الاضافى فى الخارج يتكون من الأقواس المغطاة بالقماش السميك لكى تحمى المدخل من الشمس والمطر كالمظلات الواقية فى مداخل فنادقنا الفاخرة . وفى أعمدة الأقواس نقرت ثقوب لكى تربط فيها الخيول .

أما البيوت المكلفة فقد كانت مداخلها تزين بالموزاييكو الذى يحمل بصمات الفن البيزنطى الإسلامى ، فضلاً عن أن قطع السجاد الصغير وقطع النسيج والسجادات كانت تغطى الحوائط. وكان الموزاييكو يشكل جزءا أساسيا فى الزينة الداخلية ، وغالبًا ما كان يعرض تصميمات هندسية إلى جانب رسوم الزهور والحيوانات . وفى المنازل الأكثر ثراء ، كانت أقواس السقوف تستقر على حواف منحوتة ، أو على منظر عقود وأقواس ، وربما كانت الأقواس البسيطة تضاف إلى الزينة ، وكان الأثاث أفخم بكثير من ذلك الموجود فى أوربا . ففى أفضل الأحوال كانت المناضد والكراسى وأرجل ورؤوس الأسرة من الخشب المحفور على هيئة العقود البارزة أو باقات صغيرة من الزهور ، أو رؤوس البشر أو الحيوانات . وغالبًا ما كانت الكراسى تبدو على هيئة حرف X مستدير ، بينما كان الجزء العلوى من الكرسى

يستخدم كمقعد بمسندين . ومع الكراسى توضع الحشايا المستطيلة والدائرية وقد غطيت بالحرير أو الديباج الذى ينتهى بشرابة من أجل مزيد من الراحة ، وربما كان عرق اللؤلؤ الذى برع فيه صناع بيت لحم يستخدم فى تزيين الأثاث ، وفى بعض أعمال الموازييكو . وفى كل بيت من بيوت النبلاء ، وفى كل بناء كنسى ، كانت توجد منضدة للكتابة على هيئة صندوق ولها كرسى خاص بها . وتتم الكتابة على السطح المائل ، على حين كانت زجاجات الحبر والألوان والريش وغيرها من أدوات النسخ تحفظ فى الرفوف السفلى للمنضدة .

أما أدوات المطبخ والمائدة فكانت تختلف تبعًا للطبقة الاجتماعية . وكان طهى الطعام يتم فى أوانى فخارية كبيرة فى أفران مفتوحة وتلك الأفران التى حفظها الزمن فى الأماكن التى احتلها الصليبيون عبارة عن فتحات ضخمة كان من الممكن شى اللحم فوقها أو تعليق القدور عليها . وتغطى الفتحات بنوع خاص من الأسياخ الحديدية التى تحمل القدور وأوانى الطبخ . وكانت الملاعق والسكاكين هى أدوات المائدة الرئيسية . وكان من المعتاد أن تصنع الملاعق من الخشب بينما تصنع السكاكين من الصلب أو الحديد ، وغالبا ما كان الواحد منهم يستخدم خنجره كسكين للمائدة (وكانت للخناجر أحيانا مقابض مزينة من العاج أو الخشب المحفور ونصل من الصلب الهندى الشهير) على الرغم من أن الأدوات المعدنية غالبا ما كانت تستورد من أوربا . وفى بيوت النبلاء كان الصبية أو التابعون الصغار يقومون على خدمة المائدة ، وحين تستقبل الأسرة ضيوفا من أصحاب المقام الرفيع يقوم أبناء الأسرة الصغار بهذا الواجب أحيانا . وتنقل شرائح اللحم على الخبز المستدير الذى يقوم مقام الأطباق ، وقد يوضع الخبز فى اطباق من الفخار تزينها غالبا الرسوم . وكان أكثر أنواع الطلاء شيوعا* هو الذى يتكون من خلفية قاتمة اللون تغطيها رسومات هندسية من الطلاء البنى والأخضر والأصفر . وفى بعض الأحيان كانت هذه الرسوم عبارة عن رموز مسيحية - مثل الصلبان والسمكة والاكاليل وتيجان الأساقفة - وكانت تستخدم أيضا رؤوس الحيوانات والكائنات الأسطورية وما شابه ذلك . أما الأطباق الأكثر فخامة فكانت تزينها رسوم الفرسان والخيالة فوق ظهور خيولهم .

وكانت الأطباق المعدنية والكئوس تعد جزءا من زينة المنزل . فكان بعضها يخصص تماما للزينة مثل أطباق النحاس الكبيرة المنقوشة بآيات من الكتاب المقدس وببعض مناظره وصوره . ويبدو أن هذه كانت تستورد من أوربا ولكن مثل هذه الآنية المستخدمة للزينة ، وفى الاحتفالات ، والآنية التى كانت تقدم عليها الوجبات للملك الصليبى فى المسجد الأقصى بعد

التتويج ، لابد وأنها كانت من المعادن الثمينة التى صممت ونقشت فى سوريا أو فلسطين . وكذلك شاع استخدام الاكواب والكئوس المعدنية ، وكان بعضها يطعم بالفضة على الطريقة العربية الشرقية المحببة . ولم تكن النقوش العربية التى تمجد الله لتقف حجر عثرة فى سبيل استخدام الصليبيين لها على الرغم من أنها قد تستخدم فى شرب الخمر (وهو ما لم يكن الفنانون الذين صنعوها يقصدونه بكل تأكيد) . وفى الوقت نفسه كانت الأكواب والكئوس المعدنية شائعة الاستخدام فى أوربا أيضًا ، على حين لم تكن المصنوعات الزجاجية أكثر شيوعاً فى الشرق . وهناك بعض الأمثلة على الأكواب الزجاجية التى تزينها الرسوم والنقوش، والتى يحتمل أن تكون قد صنعت فى صور ، وهى تكشف عن شكل ممتاز وزينة فائقة الجمال.. ويحمل أحدها شعار صاحبها مما يرجح أن تلك كانت عادة شائعة .

وكان البيت الشرقى وزينته الداخلية يجدان التكملة لهما فى ألوان الطهى . ومهما كانت تقاليد فن الطهى المجلوبة من أوربا ، فقد كان من العسير عليها أن تنافس قائمة الأطعمة المحلية . ولم تكن ألوان الطهى الشرقية تتلاءم مع المناخ السائد فحسب ، ولكن التوابل المشهية واستخدامها فى اللحم والأسماك ، والصلصة، كانت تجعل من السهل على الأطعمة أن تحوز السبق على الأطباق الكثيرة والبسيطة المعروفة فى أوربا . أما الخدم الشرقيون ، مثلهم مثل الباعة فى الشوارع والأسواق ، فلم يجدوا صعوبة فى تقديم فنونهم لكل من أبناء البيوتات النبيلة والعادية على السواء . بل إننا نعرف بعض قدامى الصليبيين الذين كانوا يتباهون بأطعمتهم المصرية مثلما يتفاخر المرء حاليا بأن لديه طاهيا يحمل الوشاح الأزرق .

وقد تركت الموضة والملابس تأثيرها أيضا على المجتمع الصليبى ، ولكن الفرنجة جددوا فى هذا المجال ما اتخذوه من أزياء وملابس . وكان الفرنجي مستعداً للاستفادة من ميزة المنسوجات الراقية التى عرفها الشرق الأدنى أو الأقصى . والمنسوجات التى لم تكن متوفرة فى أوربا سوى فى بيوت الملوك والأمراء ، أو التى تظهر بين الآونة والأخرى فى الاحتفالات الكنسية ، كانت فى متناول الناس جميعًا حتى محدودى الدخل منهم فى الشرق ، فالحرير والتفتاه والقصب والقطن والصوف والشاش كانت تنسج بأيدى الفرنجة ونسائهم ، ولكنهم كانوا يقاومون الطرز الشرقية . وكان من الممكن لهم أن يرتدوا الأقمشة الشرقية ، إلا أن تفصيل الملابس ظل أوربيا فلم يكن الفرنجى يرتدى عباءة شرقية أبداً ، أو على الأقل لا يرتديها أمام الملأ . وقد يضع فى بعض الأحيان شالاً صغيرة أو طرحة على خوذته لتحميه من أشعة الشمس القوية . وقد يستخدم عباءة بيضاء كما يفعل الشرقيون وأعضاء المنظمات

العسكرية ، ولكن ملابسه كانت أوربية فى أساسها . وكانت تتغير تبعاً للطرز الأوربية . وكان الفرنجة يستوردون من أوربا قطع الملابس التى لايمكن الحصول عليها من داخل المملكة مثل أغطية الرأس . ومضى إحساس الصليبى بهويته الجنسية بعيدا لدرجة أنهم كانوا يمنعون غير الفرنجة من ارتداء الملابس الأوربية الطراز . وهذا التمسك بالعادات الفرنجية عبر عن نفسه أيضا فى مقاومة العادة الشرقية فى إطلاق الذقون . فبينما كان المشتركون فى الحملة الصليبية الأولى ملتحين ، كما كانت العادة فى بلادهم آنذاك ، فإن الفرنجة فى الأرض المقدسة تابعوا موضة حلق الذقون التى سادت أوربا بعد جيلين (فى منتصف القرن الثانى عشر) وصارت وجوههم بالذقون الحليقة والشعر المسدل على الكتفين علامة مميزة لهم كما كانت موضع احتقار الشرقيين وامتعاضهم .

وكان للمناخ والبيئة تأثيرهما فى مجال الصحة والتجميل . فقد وصف أحد مؤرخى القرن التاسع عشر أوربا العصور الوسطى بأنها مجتمع نسى أن يستحم لمدة ألف سنة . وهذا الوصف لم يكن ينطبق على الفرنجة فى الشرق بالتأكيد ، إذ كان الصابون ينتج محليا ، وربما كان يصدر إلى الخارج أيضا . وقد جلب تردد البولان على الحمامات تهمة "الرفاهية"عليهم ، اذ أشار برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux الزاهد فى فخر بأن الداوية الذين يتمتعون بعطفه وحمايته لايستخدمون الحمام إطلاقا ! وبعدها بخمسين عاما كتب جيمس الفيترى James de Vitry أسقف عكا منددا بهذه البذاءات التى تحدث بين سيدات الطبقة الراقية فى المجتمع الصليبى . فقد كان الجنوية يسمحون حتى بالاستحمام العام فى البالنيوم balneum فى عكا (على الرغم من عدم اختلاط الجنسين) وأياً ما كانت العادة ، فإن الأوربيين كانوا يزورون المملكة كانوا يعودون إلى أوربا بانطباع أن مجتمعا مخنثا قد خلف أبطال الحملة الصليبية الأولى ، الذين كانوا قد أصبحوا آنذاك قدوة أسطورية تتمثل فيها كل صفات الفروسية وقيمها .واليوم ، قد يصف المرء مثل هذا التصرف بالدهاء أو المكر أو الواقعية ، ولكن الأمر كان يختلف أمام ناظرى القادم من أوربا حديثا . وقد كان جيمس الفيترى عنيفا إلى حد ما فى إدانته إذ يقول : "لقد تربوا فى العز ، ناعمين ومخنثين وهم فى الشباب الناعمة" وتحت اليد الثقيلة للقسيس الغاضب يمكن للمرء أن يرصد أسلوب حياة وصفه مراقب معاصر ساخط ، بأنه أسلوب حياة شرقى البحر المتوسط :

"وهكذا تعلموا أن يخفوا ما يعنونه فى كلمات ماكرة ، تغطيها الأوراق ولكنها لاتحمل ثماراً مثل أشجار الصفصاف العاقر ، لدرجة أن أولئك الذين لا يعرفونهم معرفة كاملة من

خلال التجربة لا يمكن أن يفهموا تحفظاتهم وحيلهم الكلامية ، أو يتجنب الوقوع فى شراك خداعهم . إنهم شكاكون غيورون على زوجاتهم اللاتى يحبسونهن ويراقبونهن بطريقة صارمة وواعية بحيث أن إخوتهن وأقاربهن يكادون لا يقتربون منهن ، على حين يمنعونهن كثيرا من ارتياد الكنائس وحضور القداس والصلوات والتبشير بكلمة الرب وغيرها من المسائل المتعلقة بخلاصهن لدرجة أنهم نادرا ما يسمحون لهن بالذهاب إلى الكنيسة مرة كل عام ، وبالرغم مما سبق ذكره فإن بعض الأزواج يسمحون لزوجاتهم بالخروج إلى الحمام ثلاث مرات أسبوعيا فى رقابة مشددة" وبالنسبة للمرأة يقول : "ولكن كلما شدد البولان على زوجاتهم زادت محاولاتهن بآلاف الطرق والحيل للخروج من هذا التضييق . فإنهن تعلمن أساليب الشر التى لايمكن إحصاؤها بشكل يصعب تصديقه ، وهى أساليب تعلمنها من النساء السوريات" .

وعلى الرغم من الحرب الدائرة بشكل يكاد يكون مستمرا مع تتابع الزمن فإن أطايب الأرض المقدسة ونعمها جعلت الحياة أقل قسوة وفظاظة مما كانت علية تحت السماء الرمادية فى شمال أوربا ، فالملابس والمنازل والمقابلات فى الشارع أو فى السوق والثرثرة فى الشؤون السياسية داخل الحمامات كلها تعيد إلى الأذهان ذكرى المدن الهللينستية . والفارس الفرنجى الذى ينمو ويترعرع فى مثل هذا الوسط ، على الرغم من كلامه وملابسه لم يكن فرنسيا ، وإنما هو فرنجى من الشرق الأدنى . ولا يستطيع المرء أن يتهمهم بسهولة بالجبن فقد كانوا محاربين أكفاء . وبينما لم يكن الصليبيون فى القرن الثالث عشر دبلوماسيين مهرة على الدوام إلا أن النبلاء منهم كانوا يولدون سياسيين ويرغبون فى أن يكون لهم أصبع فى كل مؤامرة أو دسيسة سياسية ، شأنهم فى ذلك شأن إيطاليى عصر النهضة فى مدنهم الدول City-states .

ونادراً ما كان الفرنجى النبيل يعيش فى الريف . بل إن النبلاء القلائل الذين كانت لهم حصون يستخدمونها كمراكز للضياع ، عادة ما كانوا يحتفظون بمنزل فى المدينة (عادة فى بيت المقدس ، وفى القرن الثالث عشر فى عكا أو صور) وقليل جداً من النبلاء كانوا يعيشون فى ضيعاتهم . وذلك لأنهم كانوا أساسا فئة من الملاك الذين يجمعون الدخل من ضياعهم الريفية وينفقونها فى أماكن إقامتهم الحضرية ، إذ كان الريف وقراه بالنسبة لهم مكاناً يعيش الإنسان خارجه ويشرف عليه ولكنه نادرا مايقطن فيه . أما العلاقة بين الإقطاعى وحائز الأرض ، أو بين الإقطاعى والقن ، التى عرفتها أوربا العصور الوسطى . فلم تكن موجودة فى الشرق

تقريباً . وكان ناظر الضيعة أو من يماثله فى وظيفته كالكاتب يقوم بالإشراف على ايجارات القرية ، على الرغم من أنه نادرا ما كان يتدخل فى العمل الزراعى نفسه . ولم يكن النبيل الصليبى يقدم على الزراعة والفلاحة لحسابه ، بل نادرا ما كان يحتفظ بأرض عقار . وعادة ما كان يرضى بثلث أو ربع محاصيل القرية ، التى عادة ما كانت تدعمها الدخول الناتجة عن الضرائب المفروضة على سكان المدن . والحقيقة ، أن زيارة النبيل الصليبى لأملاكه الريفية كانت نادرة إذ كان الواحد منهم يخرج إلى الريف للقنص أو صيد الأسماك ونادرا ما كان يخرج لأعمال اقتصادية . فقد كانت مظاهر حياة الريف ، دون تحمل أعبائها ، موجودة فى البساتين الجميلة والكروم ومزارع الزيتون التى كانت تحيط بجميع المدن ، وكان بعض النبلاء يحتفظون بنوع من الأكواخ أو ما يشبه ذلك فى هذه "الضواحى" حيث يقضون أيام الصيف الحارة والأمسيات الأقل حرارة فى رفقة أبناء طبقتهم ، وكان بعضهم أحيانا من طبقة النبلاء المسلمين. ومن هذا المكان قد يخرجون لمطاردة أحد الثعالب أو خنزير برى أو يصيدون بالصقور. وكانوا يقضون شطراً كبيراً من وقتهم فى ركوب الخيل وفى التدريبات العسكرية . وكان النبلاء الصليبيون مثل أقرانهم المسلمين يتباهون على بعضهم البعض ويتفاخرون بجمال خيولهم إذ كانوا ينفقون مبالغ طائلة فى سبيل اقتناء الخيول وتجهيزها بالسروج وأفخر الثياب وبالأدوات الغالية والمعادن النفسية . وكانت الأراضى الفضاء حول المدن تستخدم كمكان لاستعراض الخيل والخيالة . وفى فترات السلم ، كان المسلمون يشاركون فى هذه التدريبات . وكانت المباريات هى المجد الذى يتوج النبيل الفارس ، وهى معارك وهمية يقوم بها النبلاء أو الأبطال الأفراد ، وفى مثل هذه المناسبات كانت السيدات تظهرن فى ميادين المدينة أو القلعة للمشاركة فى هذه العروض التى تعد من أكثر العروض تشويقاً وإثارة فى العصور الوسطى . وهنا يمكن للتابع الإقطاعى الصغير أو الفارس المحنك أن يحصل على المكافأة والشهرة لقاء شجاعته ومهارته العسكرية إذ كانت الخيول والأسلحة والدروع المملوكة للخاسر ، وهى غالبا ذات قيمة مرتفعة ، تصبح من أملاك الفائز . ومع ذلك ، فإنه يبدو أن تلك المباريات ، التى كانت ترتبط غالبا بالأعياد ، كانت أقل فى الشرق الصليبى منها فى أوربا فى ذلك الوقت . وربما يكون السبب فى ذلك هو أن المعارك الوهمية تكثر فى مجتمع تخلص من الحرب لتصبح ظاهرة شبه يومية حيث كان الواقع القاسى يغذى الدافع إلى القيام بهذه العروض التى كانت غاية فى القوة فى أوربا على الرغم من التحريم الكنسى لها .

وكان الشطر الأعظم من وقت النبيل أو الفارس يقضى فى المدينة ، مكان إقامته المعتاد ، وكان وقت صغار الفرسان ينظم وفقا لواجبات كل منهم فى الخدمة فى حامية المدينة كحراسة قلعتها ، والطواف على الأسوار والأبراج ، وحراسة قصر السيد ، أما النبلاء الأعلى رتبة فكانوا يقضون جزءا كبيرا من وقتهم فى مجالسة سيدهم ، وغالباً ما كانوا يجلسون فى بلاطه كمستشارين أو قضاة ، وكمستشارين كان عليهم أن يقدموا المشورة فى المسائل التى تطرح عليهم لمناقشتها ، وكقضاة ، كان عليهم إنجاز الالتزامات الاقطاعية التى تحكم نظراءهم .

وثمة مقالة صغيرة عنوانها "فى العصور الأربعة للرجال" كتبها أحد الفرنجة فى منتصف القرن الثالث عشر ، وتصف الوظائف التى تناسب كل عصر . وتعطينا هذه المقالة انطباعا بأن الفرنجة فى الشرق كانوا يكونون مجتمعاً نبيلاً متديناً . ومن سوء الحظ أن هذه الصورة تصطدم اصطداما عنيفا بالمصادر الأخرى - على الرغم من الأصول الكنسية - التى تقدم لنا رواية مختلفة تماما عن سلوك النبلاء . وأيا ما كانت الحقيقة ، وسواء كان الواحد منهم يحضر القداس اليومى أو لايحضره ، فليس هناك شك فى أنه كان على النبيل أن يشارك فى احتفالات الكنيسة والتى كانت فى مدينة مثل بيت المقدس لاتثير المشاعر الدينية فحسب ، وإنما كانت مظاهر للروعة والفخامة لكل من المشاركين والمتفرجين .

وبالنسبة لوسائل التسلية والعلاقات الاجتماعية الأخرى ، كان المرء يلتقى بأصدقائه فى المنزل ، أو فى الحمام ، أو حتى فى إحدى الحانات . وكان الشطرنج - لعبة الملوك - معروفا ، ولكن النرد كانت التسلية الأكثر شيوعا ، وكان الواحد منهم يقامر بثروته وحياته . وكانت الوجبات الغذائية والشراب - الشراب حتى الثمالة - جزءا لايتجزأ من التسلية ، كما كانت حانات كثيرة وبعض المنازل الخاصة تحتفظ بعدد من المومسات على الطراز الغربى أو بعدد من الفتيات الشرقيات الراقصات ، وكن أحيانا من الإماء أو الجوارى الشرقيات . أما الدعارة التى كانت مهنة شائعة فى كل مدن العصور الوسطى ، وأكثر شيوعاً فى الموانىء ، فقد كانت مكلفة للغاية فى مدينة ساحلية مثل عكا ، حيث كان البابا يحذر رجال الدين من مغبة تأجير المنازل للمومسات . ولدينا وصف حى لهذه المدينة مسجلة بقلم جيمس الفيترى الذى شغل أسقفية عكا لبعض الوقت :

"لايكاد يوجد بين "البولان" واحد فى كل ألف يأخذ زواجه مأخذ الجد . فهم لايعتبرون الزنا خطيئة قاتلة . فمنذ الطفولة وهم مدللون ومستسلمون للملذات الحسية حيث لايتعودون على

سماع عمل الرب ، الذى يستخفون به . وقد وجدت هنا أجانب هربوا فى يأس من أوطانهم بسبب العديد من الخطايا الفظيعة ، وهؤلاء الناس ، الذين لايخشون الله ، يفسدون المدينة بأسرها بأعمالهم الدنيئة . ونماذجهم الخبيثة .

"وفى كل ليلة وكل يوم تقريبا يقتل أناس سراً أو جهراً . ففى الليل يخنق الرجال زوجاتهم إذا كانوا يكرهونهن ، على حين تستخدم النساء فن السم القديم والشراب السحرى لقتل الأزواج حتى يستطعن الاقتران برجال آخرين . وهناك فى المدينة باعة للسموم حتى أنه لايمكن لأحد أن يثق فى أحد فأعداء الإنسان هم أهل بيته" .

"وتعج المدينة ببيوت الدعارة ولأن المومسات يدفعن أعلى الإيجارات فلهذا فإنه ليس فقط المدنيون فحسب ولكن القسوس ، بل وحتى الرهبان ، يقومون بتأجير منازلهم فى جميع أنحاء المدينة للعاهرات" .

ومن الصعب التأكد من درجة تعليم النبلاء الفرنجة . ويبدو أن الشرائح العليا من النبلاء كانوا متعلمين وقد كتبوا بعض مؤلفات قليلة ، وبعض الشهادات التى توضح أن مستواهم التعليمى كان مساوياً لمستوى أقرانهم الأوربيين . ولدينا معلومات عن الاحتفالات التى كانت تمثل فيها مشاهد من ملحمة آرثر والقصص الخرافية الشائعة فى أوربا . ولكن هناك شك حول ما إذا كانت نفس درجات التعليم متوفرة لدى الشرائح الدنيا من النبلاء ، وبالمثل ، فإن معلوماتنا قليلة جدا عن الاهتمامات الثقافية للنبلاء . ويبدو أن عددا قليلاً جداً منهم كانوا يهتمون بالتراث الشرقى الفنى المحيط بهم ، كما أن قليلين منهم أتقنوا اللغة العربية التى كانت اللغة الشائعة فى الشرق ومفتاح كنوزه . وعلى العموم ، يبدو أن هذه السلالة الأوربية التى تربت فى الشرق لم تكن لها اهتمامات ثقافية كبيرة .

ويتأكد قصور الاهتمامات الثقافية بالحقيقة القائلة بأنه لم تنشأ فى المستعمرات الصليبية مراكز للدراسة ، أو مراكز ثقافية ، أو مدرسة ، أو جامعة ، وذلك فى عصر كانت كل المراكز الأوربية العظمى تزخر بالكليات والجامعات . وكان الذى يرغب فى تعليم أرحب أفقا يذهب إلى أوربا ، على نحو ما فعل مؤرخ المملكة الوحيد وليم الصورى ، الذى كان واحداً من البولان واحتل مكانته بين أكبر مؤرخى العصور الوسطى . وهذه الظاهرة فى حد ذاتها تشرح السبب فى أن المستعمرات الصليبية لم تصبح أبدا معابر بين الشرق والغرب ، على الرغم من أن هذه المستعمرات ظلت على مدى مائتى عام طلائع أوربا فى شرق البحر المتوسط .

وثمة استثناء واحد كبير فى المستوى المنخفض فى مجال الفكر والروح ، وهو الاهتمام الخاص للنبلاء بالقوانين العرفية للمملكة ، أى القانون الإقطاعى كما كان يمارس فى بيت المقدس وقبرص . وكان النبلاء الوطنيون هم المفسرون الرئيسيون لهذا القانون ، وعلى الرغم من أنه يبدو أنه كانت لديهم بعض المعرفة بالقانون الرومانى - بالقدر الذى يكفى للاقتباس منه على الأقل - فإن قانون المملكة كان قانونا عرفيا ينتمى إلى العصور الوسطى . وكانت سيطرتهم على الموضوع محكمة بحيث أن بعض مؤلفات المشرعين الصليبيين بقيت فى الأعمال القانونية الأوربية . وكلها تقريبا كتب تحوى نصوص القانون الإقطاعى وظلت تستخدم ويقتبس منها حتى عصر الثورة الفرنسية حين حل القانون الجديد محل القانون الإقطاعى . وعند قراءة مقالات جان الإبيلانى Jean d'Ibelin أو فيليب النوفارى Philip of Novara يتأثر المرء بصيحة الفرح التى يطلقها أولئك المشرعون وهم ينكبون على معالجة دقائق وتفاصيل القانون وتفريعاته وحالات التطبيق الممكنة - وهى نوع من المعالجة الحصيفة المأثورة لدى اللاهوتيين المدرسيين . ويبدو أن هذا الاهتمام بالقانون قد احتوى كل الطاقات الثقافية للنبلاء الصليبيين إذ كانوا يتعلمون القانون وهم فى طور الشباب بحضور المقابلات فى البلاط الملكى أو بلاطات الأمراء ، وخلالها يلقنهم الكبار المبادىء القانونية . بل إن الشاب منهم كان يتعلم تقاليد البلاد القانونية أثناء إحدى الحملات العسكرية . وليس أقل أهمية من الاهتمام بالقانون السابق الإشارة إليه حقيقة أن المقالة القانونية غالبا ما كانت تكتب كدليل على كيفية التحايل على القانون ، وهى ممارسة فى الدقائق لاتهتم بتحقيق العدالة بقدر اهتمامها بكسب القضية ، ولا يبدو أن مثل هذه الأنشطة كانت تناسب النبيل الفارس ، الوريث الجدير بفرسان المائدة المستديرة أو لرفاق رولان Roland . ويمكن للمرء أن يقول إذا كان النبلاء الصليبيون لم يتأثروا بجراثيم الفلسفة اليونانية ، فانهم على الأقل أدركوا مواهب الشرق وقد يكون ذلك حكماً طائشا إلى حد ما إذا ما تحقق المرء من أن هذه الدراسة للقانون كانت ترتبط بحاجة النبلاء الأساسية إلى تأمين "حرياتهم وحقوقهم الانتخابية" التى كانوا يرون فيها أمرا يرتبط بالحرية الدستورية فى المملكة .

وإذا كان بمقدور النبلاء الفرنجة أن يتتبعوا شجرة نسبهم حتى موطنهم الأوربى - وإن لم يكن أحد البيوتات الشهيرة فى العالم المسيحى - فإن سكان المدن على الرغم من ألقابهم لم يكونوا من سلالة سكان المدن الأوربية . أما الطبقة الدنيا من الجماهير الفرنجية فقد كانوا فى

غالبيتهم من سكان الريف . وقد تركوا أوربا ، إما برفقة وأحدى الحملات الصليبية ، أو كجزء من موجة الهجرة ، وكانت هذه الطبقة من المجتمع هى التى تؤلف غالبية السكان الفرنجة ، ولم يكن التحول من حياتهم الريفية والتقلب فى الوظائف أمرا هينا . أما الصناع والحرفيون الوطنيون الأصليون سواء من المسيحيين الشرقيين أو المسلمين ، فقد كان فى مقدروهم أن يقدموا منتجات تتفوق كثيرا وتتوافق مع الحاجات المحلية . ومن المؤكد أن منتجاتهم كانت أكثر رقيًا من أى شىء ينتج فى مشاغل الضياع الإقطاعية فى أوربا . وعلى أية حال ، فإن سكان المدن كانوا يتمتعون بأنهم قادرون على إنتاج البضائع التى تلائم الذوق الأوربى وابتكار الأنماط التى يقبل عليها المستوطنون الجدد فى سهولة . كما أنهم كانوا يتمتعون بحقيقة أن المهاجرين الجدد يفضلون أبناء جلدتهم . إلا أن هذه الميزة كانت سريعا ماتختفى فى مواجهة منافسة الأسعار المحلية .

كانت هذه الطبقة من المهاجرين هى التى تؤلف الطبقة الوسطى فى المجتمع الجديد من الحرفيين والتجار وهى وظائف نادرا ما كانت متميزة . وكان هؤلاء يلبون حاجة المجتمع إلى الحائكين وصناع الأحذية ، والصاغة والنجارين والحدادين والطحانين والطباخين والخبازين ، والحلوانية وصناع الشموع . وفى الموانىء والأماكن الساحلية ظهرت وتطورت حرف تزويد السفن بالمؤن التى تكفيها طوال رحلة الأسابيع الثلاثة إلى أوربا . كما ظهرت حرف أخرى جديدة مثل المكارية وسائقى الجمال والسقائين ، وباعة التوابل والبخور والعطور ، كما كان من الطبيعى أن تظهر حرف الأدلاء وبائعى الذخائر المقدسة ، والخمارين ، وكان أصحاب الخمارات معروفين فى شتى أنحاء العالم المسيحى . وكان الحجاج والمهاجرون يشكون دائما من وقوعهم فى براثن المحتالين . وكانت بعض الحانات ، التى تستخدم كفنادق فى الموانىء وفى مراكز تجمع الحجاج ، تستخدم أيضا كبيوت للدعارة ، وفى هذه الأماكن ازدهرت حرفة الدعارة والمقامرة بالنرد مما أدى إلى انتهاك حرمة أولئك الذين جاءوا سعياً وراء التوبة والمطالب الروحية .

ومن ناحية أخرى ، كان سكان المدن يحتلون مراتب الوظائف الدنيا فى المملكة سواء فى المدينة أو فى الإدارة الريفية التابعة للسيد الإقطاعى . وكان بعضهم على قدر من الإلمام باللغة العربية يمكنه من العمل كترجمان ، على حين كان البعض الآخر ، الأكثر تعليماً ، يشغلون وظائف الكتبة أو كتبة الشكاوى (العرائض) . ويمكننا أن نتصورهم يجلسون بجوار أماكن

إقامة السيد أو الأسقف ، ومعهم مناضدهم وزجاجات الحبر وريشهم وشرائط الرق يدبجون الطلبات المتواضعة للناس البسطاء ، ثم هناك الواجبات الإدارية المنتظمة ، إذ كانت كل من المؤسسات الإقطاعية والكنسية تحتاج إلى النظار لإدارة الضياع والإشراف على الخدم . وعند بوابات المدينة وعلى مدخل الموانىء كان هناك مجموعة من الكتبة وجباة الضرائب ورسوم الجمارك يقومون بهذه الواجبات وسط ضجيج المساومة والمهاترات .

وكان سكان المدن يستأجرون الأركان والسقائف والدكك التى يبيعون عليها من سيد المدينة أو من المؤسسة الكنسية ليستخدمونها فى أسواق بيت المقدس الثلاثة ، وفى أسواق أنطاكية وطرابلس وعكا . وفى السوق كانوا يبيعون بضائعهم ، وثمار حدائقهم والفواكه أو المنتجات المشتراة من الريف لكى يعاد بيعها إلى سكان المدينة . كذلك كان هناك صرافو النقود من سكان المدن . وغالباً ما كانت هذه المهنة ترتبط بإقراض النقود ، كما كانت هى أول مهنة يحتك بها الفرنجى فى عالم المال ، أما الأنشطة المالية العليا فقد كانت بعيدة عن متناوله لأن الظروف التاريخية إبان الفترة الباكرة من الغزو الصليبى جعلت من الميدان احتكارا حقيقيا للتجار الإيطاليين (ثم البروفنساليين والكتلان فيما بعد) .

وإذا ما بدأنا بالحملة الصليبية الأولى وبالعقد الأول من حياة المملكة على وجه الخصوص ، حين كان الصليبيون يقاتلون القوى الإسلامية من صقلية حتى البحر الأحمر ، كانت أساطيل البندقية ، وبيزا وجنوه - أكبر متاجر أوربا - أساسية ولاغنى عنها فى غزو المدن البحرية فى سوريا ولبنان والأرض المقدسة . وقد طلب الإيطاليون - الذين تحركوا بمزيج من الدوافع والمثل الدينية والحسابات المادية - مكافأة عن خدماتهم . والإعلان الدينى بأن هذه الأساطيل قد أبحرت إلى الشرق لكى تخوض حرباً مقدسة وفى خدمة المسيحية لم يمنع أن تضمن هذه الأساطيل لنفسها نصيبا من الغزو ليس فقط فى النهب السريع ، الذى لم يكن تجنبه ممكنا ، ولكن أيضا فى الأرباح الأكثر دواما فى شكل الحصول على شوارع أو أحياء فى المدن وإعفاءات ضريبية وجمركية ، وامتيازات الحكم الذاتى ، والحصانة فى حكم مواطنيهم ، والحفاظ على املاكهم . وهكذا فإن كل مدينة فرنجية رئيسية فى شرق البحر المتوسط - باستثناء مدينة بيت المقدس - كانت كلها مدناً بحرية ، وكان يوجد بها عدة شوارع أو شارع واحد على الأقل ينتمى إلى أى من الجماعات الإيطالية المختلفة . وكان الإيطاليون يشكلون الطبقة الثالثة المميزة بين الفرنجة (إلى جانب النبلاء وسكان المدن) ، وكان وجودهم إضافة إلى ذلك الاختلاف فى الأوطان والمزيج من اللغات .

ولم تنشأ المستوطنات الإيطالية مباشرة بعد الغزو إذ لم يستقر هناك سوى عدد قليل جداً من التجار في السنوات الأولى من عمر المملكة ، ولكن نواة النشاط الإدارى من الموظفين الذين تم إرسالها من المدن الإيطالية لحماية حقوقها وامتيازاتها أصبحت شكلا ثابتا منذ ذلك الحين حيث كانت بمثابة موضع للقدم . إلا أن مستقبلهم كان يعتمد على قدرتهم على استخدام الأملاك فى أنطاكية أو صور أو عكا كقاعدة لأعمالهم التجارية ولم يكن الواقع مطابقا لتطلعاتهم . وذلك لأن المدن الصليبية الكبرى لم تكن مراكز للإنتاج ، ولا يمكن مقارنتها بالقسطنطينية أو الإسكندرية . كما أنها لم تكن متنفسا لبلاد داخلية غنية . ومن ثم لم تكن التجارة الأوربية بقادرة على إقامة علاقات مباشرة مع هذه المراكز الإسلامية أو البيزنطية . ومع ذلك ، فإن الوضع المميز لجماعات المستوطنات الصليبية قد عوض العقبات الاقتصادية الواضحة ، فعلى سبيل المثال كانت الإعفاءات الضريبية التى تتمتع بها هذه الجماعات التجارية تجعل من المراكز الصليبية محطا مثاليا للتجارة المستوردة من داخل البلاد الإسلامية- مثل الموانىء الحرة فى البحر المتوسط فى العصور الوُسطى . ومع نمو حجم التجارة وارتياد الأراضى الإسلامية فى عمقها ، بدأ التجار الإيطاليون ، الذين كانوا يستخدمون الموانىء الصليبية كمجرد محطات على الطريق ، يطيلون مدة إقامتهم فى شرقى البحر المتوسط، وقامت جماعات معقولة الحجم من التجار الإيطاليين باستيطان جميع الموانئ الرئيسية فى الكيان الصليبى فى الشرق .

وكانت الكوميونات ، كما أطلق على مثل هذه الجماعات المستوطنة ، عالما غريبا ؛ إذ كانت نوعاً من المستعمرات داخل المستعمرات ، فهى أقلية تحيط بها أغلبية ناطقة بالفرنسية. وقد استخدم الإيطاليون وأساءوا استخدام "اللغة الأجنبية" كما فعل غيرهم فى اتصالاتهم مع رفاقهم الفرنجة . ولكن داخل أحيائهم وفى الساحة ينتقل المرء إلى ايطاليا المحبوبة ، فإذا ما تم لهم الحصول على بضاعة من أحد البيزنطيين أو المسلمين ، غالباً ما يكون العمل بين الإيطاليين أنفسهم . وهنا يتحدث كل بلهجته الخاصة ، سواء أكان من البندقية أو تسكانيا أو ليجوريا . وكان الموثقون يكتبون باللاتينية أو بفرنسية القرن الثالث عشر فى بعض الأحيان ، ولكنهم كانوا يفكرون على الطريقة الإيطالية . وكانت كل الظروف مواتية لتساعد الإيطاليين على الاحتفاظ بهويتهم . وكان السيد الأعلى للكومون ليس فقط مجرد أحد سكان الحى ، ولكنه كان أيضًا المالك لكل الممتلكات الحقيقية داخل نطاق الكوميون . وقد تحولت المبانى

الكبيرة المتألقة التى كانت يومًا ما سكناً للحاكم المسلم أو البيزنطى أو التركى ، وكذلك البيوت التى كانت ملكا للأرستقراطية التجارية المسلمة فى المدينة .. كل هذه تحولت إلى قصور فى قوائم الجرد الإيطالية واستولت عليها إدارة الكوميون ، أما المبانى الكبيرة جدا التى لاتنفع لغرض عملى فقد كانت تقسم إلى غرف تؤجر لفترات محدودة ، وإلى محلات لتخزين البضائع . وكانت تظل خالية طوال معظم العام ولكنها كانت تمتلئ إلى نهايتها حين يصل أسطول من أوربا قرب عيد الفصح .

وأصبح الشارع الرئيسى أو الميدان الرئيسى فى المدينة هو السوق حيث كانت البيوت المحيطة بها تضم عادة بعض الحوانيت والسقائف والمحلات حيث تنتظر البضائع الشرقية دورها فى التصدير إلى أوربا . أو حيث تعرض البضائع المستوردة من أوربا فى انتظار المشترين . وكان التجار يسكنون فى الأدوار العليا . وكانت الخانات والفنادق التى تقدم الوجبات على الذوق الإيطالى تنتشر فى كل مكان . وبالإضافة إلى ذلك كانت هناك المناضد التى أقامها صرافو النقود وبائعو الأطعمة . وإلى جانب الدكاكين والمحلات كان هناك مكان للسوق والبازار المغطى ، وكان لكل حى مخابزه الخاصة ، وأفرانه وحماماته . وكانت بعض العائلات الإيطالية العاملة فى المال والمصارف ترى أنه من المناسب فتح فروع لها فى المدن الصليبية . وكانت العائلات التجارية المصرفية ترسل أفراداً من الأسرة التجارية إلى فلسطين للقيام بالأعمال المالية الكبرى التى كانت ماتزال أعمالا تقوم بها العائلة .

وكان مركز الحى هو البلاتزو أو قصر الكوميون الذى يقيم به من يديرون شؤونه ففيه يسكن القنصل أو الفيكونت Vicomte وهو حاكم مرسل من المدينة الأم . ويدعمه مجلس فى تمثيله لمصالح الكوميون لدى سيد المدينة أوالحاكم أو الملك ، وهو الواسطة بين الكوميون والسيد أو الحاكم أو الملك ، كما أنه مسئول عن إدارة ممتلكات الكوميون والحفاظ على امتيازاته فى المدينة ، وكان على الموثقين التابعين له أن يقوموا بإعداد الاتفاقيات بين التجار ، وعقود الزواج ، وكان على المحلفين أن يجلسوا للحكم أو للفصل فى القضايا التى تخص مواطنيهم ، وقد يصدرون أحكامهم فى بعض القضايا على الآخرين من سكان الحى . وكانت الجرائم التى يعاقب عليها بالموت كالقتل والاغتصاب تستثنى أحيانا من هذا النظام ويقوم حراس السلام المأمورون بالقبض على المتهم ويحيلونه إلى السلطات العامة ، وكانت تحدث دائما بعض المشاجرات فى مثل هذه القضايا لأن الإيطاليين كانوا بطبيعة الحال لايرغبون فى أن يسلموا

أحدهم إلى سلطات خارجية . ولم يكن قانون المحاكم الكوميونية هو نفسه القانون المطبق فى المملكة ، وإنما كان هو القانون السائد فى المدينة الإيطالية الأم . وكانت الإجراءات تتم بلغة التجار الوطنية ، كما كانت إجراءات التنفيذ معروفة من الوطن الأم فضلاً عن أن الأحكام كانت تتم بواسطة أقرانهم . وكان لرئيس الكوميون جهازه المساعد من الكتبة والمأمورين . وكانت مسؤولية الكتبة تنحصر فى جرد ممتلكات الكوميون كما كان مأمورو المدينة يعلنون مراسيم مجلس الكوميون ويشرفون على تنفيذها . ومن آن لآخر كانت تصدر المراسيم التى تحظر ممارسة الدعارة والقمار ، ولكن فى مثل هذه الجماعات التى تتكون من التجار الرحل ، لم تكن مثل هذه المراسيم ذات تأثير حقيقى .

وعلى الرغم من أن المدن الإيطالية الأم جنت بعض المكاسب من هذه المستعمرات ، فإن دخلها الرئيسى من عالم الشرق الأوسط كان يأتى بطريق غير مباشر عن طريق فرض الضرائب الجمركية على أولئك التجار الذين أثروا من تجارة شرق المتوسط فى إيطاليا . بيد أن هذه المزايا غالبا ما كانت تصبح عبئا إذا كانت الكوميونات تدخل فى منافسة حرة فى البر والبحر. وكان كل منها يحارب الآخر فى سبيل الحصول على الامتيازات ، والأكثر أهمية من ذلك أنهم نقلوا المنافسة التجارية من إيطاليا إلى عالم شرق البحر المتوسط . وعلى مدى أكثر من جيل خلال القرن الثالث عشر ، كانت أية مواجهة بين الأساطيل الإيطالية القوية تنتهى إما بالقتال أو القرصنة ، على حين كانت أسوار عكا وصور تردد أصداء ارتطام القذائف الحجرية . وكانت الأحياء الكوميونية تحيط نفسها بحزام من الأسوار المحمية بالأبراج المحيطة حين تصبح الأحياء المجاورة أرضا للعدو . وفى مثل هذه الأحوال يصبح التاجر محاربا كما كان كل مسافر بالبحر يصبح بحاراً .

وعلاوة على ذلك ، كانت السفن والإمدادات المرسلة من إيطاليا تضيف رعب الحصار البحرى إلى القتال الدائر بين الإخوة داخل أسوار المدينة . وغالبا ما كانت الأبراج والأسوار تنهار وتحرق البيوت وتدمر ، ويحمل عمود حجرى من الأنقاض إلى المدينة الأم فى ايطاليا لكى يزين الميدان الرئيسى . وهكذا كانت مدن الشرق فى الغالب تصبح صورة مصغرة للحياة فى إيطاليا نفسها .

أما المستوى التعليمى بين الإيطاليين ، فمن المؤكد أنه كان أعلى منه بين الفرنجة فى المتوسط . وكان هذا هو الوضع أيضاً فى أوربا ، ولكن المقارنة تصبح حقيقة أكيدة فى أوساط

التجار العالميين فالمراسلات والحسابات كانت جزءا من العمل التجارى اليومى ، كما كانت المعرفة بالجغرافيا والاقتصاد متقدمة بشكل يثير الدهشة إذا حكمنا بالكتيبات التى خلفها لنا التجار أو بالاختراع الجديد البورتولانى Portolani وهو عبارة عن خرائط بحرية لتسهيل الملاحة . وبينما كانت الحرب تتمخض عن قدر قليل من المعرفة بالعدو وأرضه ، فإن التجارة كانت تخلق حلقات متصلة من اسكندنافيا حتى الصحراء ، ومن أسبانيا إلى بلاد ما بين النهرين . ومع منتصف القرن الثالث عشر من فارس إلى الهند والصين . ولم يكن الإيطاليون على معرفة نظرية بالبلاد والأراضى فحسب ، وإنما كانت لهم أيضا معرفة عملية بالطرق عبر الجبال والوديان والصحارى وفوق مياه الأنهار والبحار . كما أنهم طوروا معرفة دقيقة بوسائل الإنتاج والبضائع التى تشترى أو تباع ، والضرائب والجمارك التى يجب دفعها فى الموانىء الأجنبية . فضلا عن أنهم كانوا يتمتعون أيضا بمعرفة العملات النقدية وقيمتها المعدنية وأسعار الاستبدال حول العالم .

وغالبا ما كانت الأحياء الكوميونية تصبح مستودعاً لمثل هذه المعارف التى كانت تتداول شفهيا ، ثم تدون وتجمع فى كتيبات لتصبح دليلا لتعليم الجيل الجديد بأساليب فن البيع والشراء والقروض والشؤون المالية . وقد يرسل الشاب الإيطالى إلى سوريا أو أرمينيا أو القسطنطينية لكى ينال تدريبه . وقد يستقر حينذاك فى أحد هذه الإماكن ويتاجر لحسابه وإذا لم تلح له فرصة الزواج أثناء إقامته فى شرق البحر المتوسط ، أو اذا لم تتوج محاولته بالنجاح، فقد يعود إلى وطنه الأصلى بحثا عن عروس ودوطة ، وهى كانت تدفع عادة فى صورة توابل لاتقبل التلف مثل الفلفل الأسود أو فى صورة أحجار كريمة . وفى بعض الأحيان ، كانت بعض العائلات الإيطالية التى لاترتبط بموطنها الأصلى برباط قوى تضرب بجذورها فى تربة الشرق وتصبح أسرة عريقة هناك .ومن الدكان إلى السوق ، أو من البنك إلى الدكان كانت حياة الإيطاليين دائما تمضى بين أبناء جلدتهم ، بل إن الكنيسة فى الحى كانت ترتبط ارتباطاً جزئيًا بالنظام الكنسى المحلى ، ولكنها تعتمد على الكاتدرائية فى الوطن الأم ؛ إذ كان القسس والشماسون يرسلون من البندقية أو جنوه أو بيزا ، وكان الإيطاليون أو البروفنساليون يخاطبون القس بلغته الوطنية الدارجة ، كما كان قداس الأحد يتم باللغة التى يفهمونها .

وعلى الرغم من أن سكان الكوميونات كانوا مواطنين فى المملكة الصليبية من الوجهة النظرية ، فالحقيقة أنهم ظلوا مواطنين لمدنهم الأوربية الكبرى ، وعلى الرغم من أن ألف رابطة

كانت تربط الفرنجة بفرنسا . فإن أحدا منهم لم يكن يعتبر نفسه فرنسيا . ومع ذلك لم يتخل أعضاء الكومبونات عن هويتهم الأصلية . فالاستقرار سويا ساعدهم على الاحتفاظ بهذه الهوية . وكانت هناك أسباب مادية تدفع بالواحد منهم إلى الارتماء فى أحضان بنى وطنه . فبعد مائه سنة وحتى بعد مائتى سنة من تأسيس المملكة ، كان الإيطاليون لا يزالون يتمتعون بنفس الإمتيازات التى تمتع بها أولئك الذين شاركوا فى غزو البلاد . ومع أن المرء يستطيع أن يبرر حقوقهم العقارية (لأن كل الممتلكات الفرنجية ليست فى حقيقة الأمر سوى نتيجة للفتوحات التى تمت خلال العقد الأول من عمر المملكة) ، فإنه كان من الغريب إلى حد ما أن تظل تتمتع بالإعفاء من الضرائب والرسوم الجمركية على مدى ثمانية أو عشرة أجيال . وهذا الوضع المتميز للإيطاليين جعل أية منافسة مع الفرنجة المحليين ، الذين كانوا يدفعون رسوماً جمركية كاملة ، أمرا لايمكن التفكير فيه ببساطة . ولاشك أن هذا الموقف ولد كثيرا من الاحقاد لأنه كان من الصعب تفسير سبب وجوب تمتع الإيطاليين بوضع متميز دون إسداء أية خدمات ملموسة للملكة .

ومن آن لآخر ، كان حكام المملكة يحاولون التخلص من هذه الإمتيازات الفادحة وإلغائها . وكانت الكوميونات تكافح بدورها عن طريق البابوية (للمحافظة على امتيازاتها) التى كانت لها مصلحة واضحة فى أن تحتفظ برابطة التحالف مع المدن البحرية القوية . وهاجم البابوات حنث الملوك بعهودهم هجوماً مريراً ، مهددين إياهم بالحرمان ، وغالباً ما كان الحكام الصليبيون يستسلمون للضغوط . وكان الجنوية ، بحذق أكثر منه كياسة ، يدونون مضمون امتيازاتهم بحروف ذهبية على نصب ويقيمونه فى كنيسة القيامة ! وكانت الطريقة الوحيدة لسحب امتيازات الكوميونات هى انتزاعها بواسطة القضاء العالى من الكوميونات ، ومنع بيع المنح أو الأراضى التى يحوزها سكان المدن لهذه الكوميونات ، بل إنه حتى عند استخدام مثل هذه الأساليب لم تكن المعارضة تحرز إلا نجاحاً جزئياً ، لأن الزيجات المختلطة كانت تعود على الإيطاليين بالأراضى والممتلكات الإقطاعية والمدنية من خلال الوراثة .

أما عن مدى درجة اختلاط المواطنين من الأصل الإيطالى بالفرنجة المحليين فمن الصعب التأكد منها . فنحن نعرف بعض الإيطاليين الذين كانوا يبحثون عن العرائس فى أوربا ، إلا أن الزيجات مع الفرنجة المحليين كانت شائعة إذ ربما كانت العائلة الفرنجية ترى أنه من المفيد لها أن تزوج بناتها إلى التجار الإيطاليين والبرونسالبين . ولم يكن مثل هذا الاتحاد يعتبر زواجا

غير متكافئ ، بل كان يعنى خطوة أعلى على السلم الاجتماعى والاقتصادى . وقصة التاجر الثرى البيزى الذى تزوج إحدى بنات الأرستقراطية الفرنجية فى طرابلس لابد أنها ترددت فى الأسواق الشرقية ، فللحصول على إذن بالزواج من السيدة الشابة دفع التاجر البيزى إلى أهلها النبلاء ما يساوى وزنها ذهبا ! وهكذا استطاعت مائة وعشرون رطلا من الذهب الخالص أن تسقط هذه الحواجز الطبقية .

وكانت بعض العائلات الأخرى تدخل الحياة الفرنجية ليس عن طريق الزواج ، وإنما عن طريق الأوضاع الإقطاعية فإن عائلة من جنوة مثل عائلة أميرياتشى ، التى أجر الكوميون أملاكها فى مدينة جبيل ، قطعت روابطها مع المدينة الأم وصارت جزءا من الأرستقراطية الفرنجية . وعلى أية حال ، فإنه كان من المتوقع أن يستمر أفراد هذه العائلة فى التعاطف مع بنى جلدتهم ومحاباتهم . وعلى مستوى اجتماعى أدنى ، كانت العائلات الإيطالية تدخل فى دائرة الطبقة الفرنجية الوسطى من خلال الزيجات التى علمنا عنها من الوثائق الخاصة بالمجادلات القانونية حول ما إذا كان العقد يجب أن يكون وفق العادات المحلية أو الإيطالية . ومهما كانت درجة التكافؤ فى الزواج ، فقد ظل الإيطاليون قوة فى أنفسهم ، يحافظون على عاداتهم ولغتهم ومؤسساتهم الأصلية فى الأرض المقدسة .

قصص الفرسان والأنظمة العسكرية

الفروسية هى أكثر مظاهر روح العصور الوسطى روعة وسموا ، إذ لم تكن هناك فضائل قد مجدت أكثر ، ولا مآثر تكررت روايتها ، ولاصور أكثر تأثيراً من فضائل مآثر وصور أولئك الفرسان النبلاء . فالكلمة تثير صورة عالم بأثره ، له أسلوب حياته ونظامه الخاص بالتربية ومجموعة من وجهات النظر وقواعد السلوك ، كما توحى بالماديات المحيطة من بيوت الضياع والحصون والقلاع .وقد سادت أخلاقيات الفروسية لأكثر من ثلاثة قرون ، ولا تكاد توجد فكرة أخرى فى الثقافة الغربية ، فيما عدا السلام العالمى ، استطاعت أن تنافس حيوية الفروسية على مدى مثل هذه الفترة الطويلة من الزمان . بل إنه حتى عندما اختفت الفروسية كأيديولوجية متميزة لطبقة بعينها ، ظلت مثلها ومبادؤها باقية . وعندما تحجرت بعض هذه المثل وجمدت وأصبحت طقوسا بلا روح انتهى بعضها الآخر إلى مجرد روابط طنانة مفتعلة على حين تكومت مثل أخرى فى أهرام من الرموز لم تلبث أن انهارت تحت وطأة ثقلها ، ومع ذلك ظلت الفروسية تحيا فى وجدان الرجل الجنتلمان وفى مراسم البلاط وقواعد السلوك التى تناسب المجتمع المتحضر ، وحين خلعت الفروسية ثيابها الخارجية الموشّاة ، وفقدت مكانتها وخاصيتها الاستقطابية عند الطبقة الحاكمة ، ظلت الفروسية قوة حية تغلغت فى المجتمع ككل.

والفروسية التى يمكن وصفها أحسن وصف بأنها نظام من الأفكار لدى الطبقة الوراثية المحاربة فى العصور الوسطى ، لم تكن من خلق الصليبيين بقدر ما كانت الحروب الصليبية من نتاج الفروسية . ومع ذلك فإن الذهاب فى حملة صليبية أصبح جزءاً من مثل الفروسية السامية.

وتعبير الفروسية الذى اكتسب صفة رسمية ، عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك ، وجدت على مدى عدة قرون قبل تدوينها وتقنينها ، والحقيقة ، أنه حين بدأ التقنين عند منعطف القرن الرابع عشر ، كان نظام الفروسية يقترب من مرحلة نهايته . بيد أن التعبير الأدبى عن المثل الفروسية ، على شكل أساطير تدور حول البطل المسيحى النبيل كان معاصراً لفترة الحروب الصليبية الكلاسيكية أى الحروب التى تمت خلال القرنين الثانى عشر والثالث عشر . وعلاوة على هذا ، فإن أكثر مظاهر مثل الفروسية ، وهو تطوير النظم العسكرية ، كان هو الآخر من أكثر إبداعات الحروب الصليبية والوجود اللاتينى فى الشرق أصالة .

والقانون غير المكتوب الذى ينظم سلوك الطبقة العليا فى مجتمع العصور الوسطى (أى الطبقة المحاربة) يضرب بجذوره فى المصادر الجرمانية القديمة التى كانت معروفة وشائعة لدى كل الطبقات المحاربة فى المجتمع القبلى . وكان ذلك قانونا يمجد ويثنى على فضائل الشجاعة والولاء . وكانت الشجاعة والمهارة الكبيرة فى استخدام السلاح هى الفكرة الرئيسية فى الملاحم الجرمانية الباكرة ، سواء فى القارة أو لدى الأنجلو سكسون . ولكن حتى فى تلك المرحلة الباكرة ، كانت القوة البدنية والجسارة والمهارة فى استخدام السلاح والخداع فى المعارك مصحوبة بضرورة الولاء والعصبية . فالولاء للرئيس ، سيد الحرب وقائد المعركة والعصبية مع رفاق السلاح كانت القواعد العادية التى تحكم المقاتل . ومن الممكن اقتفاء أصول بعض هذه الخصائص إلى ثلاثمائة سنة تقريباً قبل الغزوات الجرمانية وذلك فى وصف تاكيتوس Tacitus لقبائل جرمانيا المشاغبة . وقد ساعدت الغزوات الجرمانية ، أو الهجرات الكبيرة التى غيرت خريطة العالم المتحضر فى فجر العصور الوسطى ... ساعدت على تقوية وتدعيم مبادىء المحارب الجرمانى الجسور ومثله . فقد اختفت القيادة الفردية البطولية إبان الغزوات إلا أن المثل ظلت باقية . وربما يكون الحرس الخاص للملك أو القائد قد أصبح مستودع هذه المثل التى لم تكن احتكاراً لطبقة بعينها ، وذلك لأن الطبقة النبيلة التى برزت إلى الوجود كانت طبقة نبلاء فى خدمة الملك أو السيد الكبير .

ولم يحدث إلا فى القرن التاسع والقرن العاشر أن صارت الحرب وقفاً على طبقة خاصة وبذلك انتزعت من جماهير العامة . ومنذ ذلك الوقت انحصرت مثل المحارب فى جماعة من الصفوة التى أصبحت وراثية تقريبا عند مطلع القرن الحادى عشر . وقد ساعدت الوراثة على ظهور عناصر جديدة خلال عصر تشكيل مثل الفروسية . فالفخر بمآثر الأجداد قد خلق مفهوم تقاليد العائلة وأسطورة الأسرة النبيلة . وبينما كان أحد العامة يستطيع أن يدخل فى الطبقة النبيلة عن طريق إثبات جداراته من خلال عمل من أعمال الشجاعة إلا أن هذا كان مثالا استثنائيا وليس القاعدة فى التغير الاجتماعى . أما طبقة النبلاء نفسها ، التى كانت مستقلة عن التطور المقابل للنظام الإقطاعى ، فقد كانت ذات بناء هيراركى على قمته أمير المقاطعة أو الملك ، أما النبلاء فى المستويات الأدنى ، وصولا إلى قاعدة الهرم ، فكانوا يعبرون عن مثلهم من خلال الولاء للأسرة الحكمة المحلية ، وهى فكرة أقوى بكثير من الولاء للملكيات الإقطاعية الصاعدة . وقد وجد هذا البناء الجديد للمجتمع ومثل صفوته المحاربة التعبير عن نظامه فى التبعية الإقطاعية وفى علاقة السيد الإقطاعى بالفصل . وقد أصبحت هذه العلاقة هى بمثابة الرابطة العاطفية التي ضمنت التماسك فى عالم مضطرب .

وعلى الرغم من أن الصيد والقتال كانا هما الشاغلين العاديين لتمضية وقت النبلاء ، فإن فترات السلم كانت تتيح الفرصة للقاءات الاجتماعية غير لقاءات الجيش المحارب أو جماعة الصيد . ففى هذه اللقاءات - غالبا فى الأعياد أو لإنجاز الأعمال - فى بلاط السيد أو فى القلعة يتم تبادل الأسلحة ببعض الحلل من الكتان أو أحيانا من الحرير والتفتاه الثمينة المجلوبة من الشرق على أيدى التجار الإيطاليين . وفى هذا المناخ الجديد ، بدأت تتطور قيم جديدة ، على حين ظلت القيم القديمة باقية . وأكثر التعبيرات دلالة على هذا التطور هو ظهور النساء فى ردهات القلعة ليس كخادمات أو مشرفات ، ولكن غالبا كمركز للحياة الاجتماعية وبؤرة للحياة المنزلية لدى النبلاء .

لقد أصبحت العائلة النبيلة الكبيرة الإطار الرئيسى لحياة الفصل ، وحتى إذا لم يكن الأفصال أقارب من دم واحد ، فإنهم كانوا يعتبرون جزءاً من الأسرة النبيلة . وقد أضيفت العلاقات الأبوية إلى العلاقات القائمة أساساً على الولاء الاجتماعى . وكانت رابطة الولاء لمجموعة المحارب السابق تظل قائمة وطيدة غير منفصمة . ولكنها الآن تعنى ما هو أكثر من ذلك ، إذ أنها خلقت "معنى الانتماء" فالواحد يعطى من ذاته ومن عائلته ومن أملاكه ، ومن قدراته وعواطفه . ومهما كانت هذه العلاقات أبوية فى مظهرها إلا أنها لم تستدع التنازل لأن التعهدات فى كليتها كانت تعهدات متبادلة . فالسيد مدين لرجله أو تابعه بقدر ما يدين الرجل لسيده - فيما عدا التبجيل - وقد كان هذا التعبير المستخدم لتعريف نوعية هذه العلاقة . وقد كانت هذه العلاقة أكثر عمقاً من تلك العلاقة التى عرفها العصر السابق . ذلك أنها كانت تعكس نمطاً جديدا من العلاقات الإنسانية ، تلك هى علاقات الأسرة الإقطاعية الكبيرة ، التى يتحمل المرء فى ظلها مسؤولية الحرب من أجل الآخرين وليس فقط فى لحظات الحرب المحرجة .

وعلى الرغم من أن هذا الشكل الجديد من العلاقات كان يضرب بجدوره بعيداً فى أعماق الماضى ، فإنه سرعان ما خلق مجموعة من القيم وأنماط السلوك الخاصة به . إذ أن التجمع فى البلاط أدى إلى ظهور فن المجاملات وهو السلوك المناسب لوجود النساء اللاتى صرن سيدات آنذاك . وإذا ما استعرنا مصطلحات النظام الإقطاعى ، فانهن أصبحن dominae أو فى تعبير آخر Les dames . إذ كن يزين الاستقبالات فى البلاط ويجلسن على رأس المآدب ويضفين الرونق والبهاء على الاحتفالات . وسرعان ما لعبن دورا رئيسيا فى أكثر مظاهر

الفروسية روعة وهو المبارزات أو المباريات . وهكذا ظهر إلى الوجود عالم جديد من السلوك والأحاسيس والأذواق فى أروقة القلعة الإقطاعية فى أوربا العصور الوسطى . فالأروقة المظلمة الكئيبة التى كانت تنار بأضواء المشاعل التى تلقى بظلالها والتى تفوح منها رائحة الوشيك على الوجبات الهائلة التى ينكب عليها المحاربون فى نهم - هذه الأروقة صارت مليئة بالضوء والضحكات . والمطرب المتجول أو الشاعر الذى كان مايزال حتى ذلك الحين يغنى للبطولة ومهارة الأبطال فى استخدام السلاح ، وقتالهم الضارى وشهيتهم النهمة ، أخذ يقدم موضوعات جديدة فيما يقدمه. إذ أخذ يتغنى بالحياة والحب ، والطبيعة والشباب . وصار شاعر الملحمة البطولية هو المغنى المتجول أو التروبادور Troubadour وتهذبت صورة البطل البربرى العملاق ، كما صارت المشاعر الجياشة كالتفانى فى الحب والإخلاص موزعة ما بين السيد الإقطاعى وسيد القلب أى من يملكه .

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر ، خضعت صور الحرب والقتال لتعديلات جوهرية فأعمال نيبيلونج Nubeilunge ، ومأثر بيوفولف Beowulf ، ومعارك القادة والزعماء الحربيين للقبائل ، اتخذت منذ ذلك الحين معنى جديداً كان بمثابة البشير بروح الحركة الصليبية؛ فقد حدد مجرى القتال فى اتجاه بعينه ، فالحرب الفوضوية المستمرة بين الجيران ، الأعداء ، قد كبح جماحها بفعل أيديولوجية جديدة لاتسمح لأحد أن يحارب جارا مسيحيا أو يهاجم بغية الثأر أو تحقيق المجد . وعلى أية حال ، فقد تمثل التحول الحقيقى فى أن الحرب منذ ذلك الحين فصاعداً ، لم تجد قبولا فحسب بل بوركت وشجعت إذا ما كان لها هدف أخلاقى . إذ أن الكنيسة أخذت تعارض أى نوع من إراقة الدماء التزاما منها بتعاليم الكتاب المقدس . وعلى الرغم أنه منذ عصر أوغسطين وجدت الحرب مبررا لها فى مبدأ الدفاع عن النفس أو الحرب العادلة ، فإن الكنيسة شجبت النشاطات العسكرية من حيث المبدأ . بيد أن مثلها كانت قليلة الجدوى أو لم تكن ذات جدوى حين غزا البرابرة الإمبراطورية الرومانية وأخذت القبائل المتصارعة تقتل بعضها البعض . وحتى عندما استعادت أوربا قدرا من الاستقرار تحت حكم شارلمان ، لم تفعل الكنيسة شيئا سوى إعادة طرح موقفها السلبى من إراقة الدماء . وفى القرن التاسع ، دعا البابا المحاربين المسيحيين إلى الدفاع عن روما ضد المسلمين الكفار الذين استولوا على البحر المتوسط وأقاموا رؤوس معابر على الأراضى الأوربية فى أسبانيا وفرنسا وصقلية . إلا أن هذا كان موقفاً استثنائياً ، ولم تغير موقفها العام . وفى القرن الحادى عشر

بدأت حملة شعبية لإدانة تجاوزات النبلاء . وحوالى الوقت نفسه ، على أية حال ، وقبل الحملة الصليبية الأولى بثلاثة أجيال تقريبا ، حدث تحول ملحوظ فى موقف الكنيسة ، أو على الأقل فى موقف بعض من يمثلونها . ولم تكن هذه هى المرة الأولى أو الأخيرة التى تعدل فيها الكنيسة من رأيها لتضفى صفة الشرعية على أمر واقع . فقد كانت على استعداد لقبول واستيعاب النظام القائم فى المجتمع ، على الرغم من أنها أملت شروطها الخاصة لاستسلامها الجزئى . إذ أن الكنيسة كانت على استعداد لمباركة الحرب والمحاربين إذا استطاعت أن تحدد دوافعهم وأهدافهم .

وحسب هذا المفهوم الجديد ، كان الرجل المحارب أو "رجل الدماء" منوطاً بوظيفة اجتماعية: هى أن يدافع عن الفقراء والأرامل واليتامئ . ومرة أخرى لجأت الكنيسة إلى مبادىء الكتاب المقدس واشترطت أن تكون الحرب من أجل سبب عادل ، مثل حماية الضعيف من عدوان القوى. وهكذا فإن الدافع البدائى إلى القتال قد وجه ليصبح ذا فائدة اجتماعية . وحين طبق هذا على الظروف القائمة ، كانت هذه فكرة ثورية . ذلك لأنه فجأة ، أصبحت طاقات المحارب غير المحدودة وسلوكياته الجامحة وتعطشه لإراقة الدماء ، أمراً مستهجناً ، وتحول مفسدو الأمس ومشاغبوه إلى حراس للمجتمع . وبينما كان النظام الكنسى يضمن الرعاية الربانية ويبشر بالأخلاقيات الأساسية فى مجتمع نصف بربرى ، باتت الطبقة المحاربة نظاما فى المجتمع وظيفته حماية غير القادرين والضعفاء . ولم يعد استخدام السلاح غاية فى حد ذاته ولم يعد مدعاة للفخر ، بل صار وسيله لغاية ، وأصبح الحق فيه مرتبطا باستخدامه فى قضية عادلة .

ويبدو أن طبقة المحاربين كانت على استعداد لمواجهة التحدى حالما ترفعه الكنيسة . وتمثلت النتيجة فى التحول الجوهرى الذى طرأ على الرجل المقاتل . فالجندى الرومانى كان قد أصبح إسماً مميزاً خاصاً بصفوة المقاتلين من الفرسان (لأن ذلك اللقب كان لايشمل المشاة أى الجنود الذين يحاربون على أقدامهم) ، ومن ثم فإنه فى العصور الوسطى الباكرة كانت كلمة "جندى" تعنى الفارس Chevalier أو Ritter كما أسماه الأنجلو ساكسون والفرنسيون والألمان . وخلال القرن الحادى عشر صيغ تعبير جديد هو Miles Christians ومعناه الفارس المسيحى ، الذى كان يجمع مابين أخلاقيات المسيحية والتقاليد الحربية الجرمانية . وسرعان ما شقت أيديولوجية الفروسية المسيحية الجديدة طريقها بسهولة من خلال تراث شعراء العصور الوسطى. فإدانة الأفعال الشريرة ، وحماية الضعيف والدفاع عن شرف السيدات وعفتهن ،

أصبحت هذه هى الموضوعات التى تدور حولها أشعار القرن الثانى عشر ، ووجدت أروع تعبيراتها الأدبية فى الروايات التى نسجت حول الفروسية . وأيا ما كانت أصول هذه الروايات، فإنها جميعا كانت تحتفي بالمثل نفسها لأن الفروسية الأوربية لم تكن مرتبطة بوطن واحد ، إذ كانت نوعا من الأخوة العالمية ، وسمحت للفارس أن يشعر بأنه فى وطنه فى أى بلاط فى العالم المسيحى . ولم تكن الحروب ممنوعة ، إلا أن القتال كان يسير وفق قواعد متفق عليها . وفضلا عن ذلك كله ، فإن الفروسية كانت تعنى ضمناً مجتمعاً من الرجال الذين يربطهم شعور بالانتماء إلى طبقة مشتركة ، يعيشون وفقا لأنماط سلوكية معينة ، ويشتركون فى العمل من أجل أهداف ومثل مشتركة .

وسرعان ما يجد بطل الروايات الخيالية التى تدور حول الفروسية نفسه مضطراً إلى ترك وطنه للوفاء بالالتزامات الملقاه على أفراد طبقته . ولابد له من محاربة عمالقة متعطشين للدماء أو ليقاتل تنينا شريرا ، منقذا بذلك عفة السيدات وشرفهن ، وأرواح الضعفاء من كارثة أوشكت أن تحل بهم . ولكنه يجب أن يجوب طول البلاد وعرضها ، ويقوم بأعمال الشجاعة والجسارة بحثا عن الكأس المقدسة الأسطورية (النرافية) ، التى استقبلت دم المخلص المقدس وهو على الصليب . كما أن أسماء بلانشفلير Blanchefleur ، وايزولدا Isolda ، وبرسفال Pereeval ، وتريستان Tristan ، والملك آرثر King Arthur ، وجاوين Gawain ، ولانسلوت Lancelot(*) وكثيرين غيرهم سوف تشغل عالم التجربة المكتشف حديثا والذى يشمل المغامرة والحب والأراضى المجهولة والسعى وراء أهداف لايمكن تحقيقها . وحلت محل أروقة القلاع المظلمة حقول الربيع والزهور والجداول المائية والمقابلات المرحة السارة .

لقد كانت للحروب الصليبية بصمات واضحة فى تطور الفروسية ، ذلك أن هذه الحروب قدمت الفرصة الأولى للفرسان فى جميع أنحاء العالم المسيحى لكى يجتمعوا سويا من أجل هدف مشترك . فالحروب الصليبية غذت الإحساس بوجود أخوة مسيحية عالمية فى السلاح ، وغيرت مفهوم أوربا من منطقة جغرافية إلى تراث ثقافى مشترك . وسرعان ما وجدت الأعمال البطولية طريقها إلى المدونات التاريخية ، ثم تسربت إلى المغنين المتجولين الذين أخذوا فى تمجيد نمط جديد من الأبطال ، هو الفارس المسيحى ، مبعوث الكنيسة فى الحرب الظافرة

(*) أسماء أبطال الروايات الخيالية التى نسجت فى العصور الوسطى حول مواضيع المغامرة والحب والترحال فى بلاد غريبة لتحقيق طموحات وأهداف مستحيلة .

ضد الكفار من أجل الكنيسة وتحت رايتها . ومالبث الذهاب فى حملة صليبية أن صار جزءا من قانون الفروسية . وجعلت الضغوط الإجتماعية ، والأنماط التربوية ، ومتطلبات الرأى العام من المشاركة فى الحرب الصليبية التزاماً واجباً على كل نبيل يعتد بنفسه .

وكل مجتمع يهتم باستمرار مثله وأسلوب حياته ، وهو كلام يصدق أيضاً على مجتمع النبلاء فى العصور الوسطى . فمثال الحياة من ناحية ، والتعليم الرسمى من ناحية أخرى كانا يؤكدان على نقل المثل من جيل إلى جيل وعلى استمرار أسلوب حياة النبلاء . فالمدارس بالمعنى الحديث للكلمة لم تكن معروفة تقريبا فى المجتمع العلمانى . وكان التعليم متأثرا بالبيئة لدرجة أكبر كثيراً مما هو الحال الآن . ولكن البيئة كانت بيئة مختارة لأداء مهمتها . ففى سن مبكرة للغاية ، حين يكون الطفل قادرا على البقاء بعيدا عن رعاية الأم يجب إرساله إلي منزل آخر من منازل السادة الإقطاعيين . وهنا يتعلم أصول العقيدة على يد قسيس ، ويتعرف على حياة الأسياد التي سيحياها مستقبلا . وعلى الرغم من أن أى بيت من بيوت السادة الإقطاعيين كان يضم عدداً كبيراً من الخدم ، فإن أولئك الأطفال الصغار كانوا يعينون لخدمة أحد الفرسان ، وغالبا ما يكون من عائلة السيد أو أحد أفراد حاشيته . وهكذا يعتاد على أشغال النبيل اليومية ، ابتداء بالعناية بالخيل وتلجيم الفرس حتى العناية بالسلاح والدروع . كما كان يركب للصيد – لقضاء وقت الفراغ وتدريب شبه عسكرى فى نفس الوقت- مع معلمه وأهل المنزل . وفى سن مبكرة يبدأ التدريب على ركوب الخيل والقتال بالسيف والرمح والدرع . وفى الوقت نفسه يقدم التابع الصغير إلى مجتمع النساء ، كما يتعود على جوانب أكثر رقة من الحياة الاجتماعية .

وعلى الرغم من أن التعليم الدينى لم يكن شاملاً ، فإنه كان بكل تأكيد التجربة الروحية الكبرى التى يمر بها الشاب الصغير . فإن تعاليم العقيدة وقصص الكتاب المقدس ، وترتيل المزامير ، وطقوس الأعياد الكبرى فى التقويم المسيحى ، وتراث القديسين المحليين ، والأديرة والكنائس كانت هى أكثر المؤثرات قوة على مستقبل حياته من عدة وجوه . ولم تكن القراءة والكتابة شائعة حتى فى أوساط النبلاء ، وإن كان بعض النبلاء قد أعدوا للحياة الكنسية مما يسر لهم فرصة التعليم منذ الصغر . وعلى أية حال ، فإن عددا قليلا للغاية من النبلاء هم الذين كتبوا خطابات شخصية أو رسمية ، فغالباً ما كان يقوم بهذا العمل كاتب أجير . وقد كانت القراءة أكثر شيوعًا ، وكانت القراءة تعنى معرفة اللغة اللاتينية ، التى حفظت لنا معظم تراث أوربا . فضلا عن أنه لما كانت اللاتينية هى لغة الكنيسة ، فإن معرفة اللغة ولو بشكل

سطحى على الأقل ، كانت ضرورة لابد منها ، على الرغم من أنه ليس من المشكوك فيه أن يكون النبيل عارفا حافظا لأكثر الصلوات والابتهالات شيوعا .

وفى زمن الحملة الصليبية الأولى ، وربما قبل ذلك بجيل أو جيلين ، بدأ تدوين الأدب باللغات الوطنية - بالألمانية أولا ثم بالفرنسية فالأسبانية ثم الإيطالية - التى لقيت منافسة قوية من اللغة اللاتينية . ولأن اللغات الوطنية قد وجدت استجابة لنمط جديد من المجتمع ، فإن الأدب الشعبى قد عكس ازدياد أعداد من يستمعون إليه . كما عكس عادات جديدة وأشكالا جديدة للحياة الإجتماعية . وهذا بدوره ، أوجد مطالب جديدة بتعليم أبناء البيوتات النبيلة . ولأن التجمعات التى كانت تحضرها السيدات كانت كثيرة ، فقد تعين على التابع الإقطاعى الشاب أن يكون ملما بعادات وأخلاقيات البلاط . ولم يكن هذا يتضمن السلوك الخاص فحسب ، ولكنه كان يتضمن المهارات والمعرفة المطلوبة بالأنماط الجديدة للسلوك الاجتماعى أيضا . وكان يتوقع من التابع الإقطاعى أن ينظم الأشعار ، أو على الأقل أن ينظم قصائد المناسبات ، وأن يغنى لصحبته . وهذه المهارات الثقافية ، مع ضروريات اللطف والمجاملات ، كانت القاسم المشترك لتعليمه المادى والذى كان أهم شىء على الإطلاق بالنسبة لمستقبله .

ووفقا لمقولة شائعة ، فإن ركوب الخيل كان يبدأ حالما يستطيع الطفل المشى ، إذ كان الركوب ضرورة باعتباره رمزاً للمكانة الاجتماعية ، كما أن أداء الرجل فى القتال ومهارته كانا يعتمدان على مدى قدرته فى السيطرة على فرسه . وكان الركوب من أجل المتعة والصيد بمثابة تدريب للشبان الصغار على استخدام السلاح . فالسيطرة على القوس والسهم ، وهو أقل أهمية فى التدريبات العسكرية ، كانت هامة أثناء الصيد بالكلاب أو الصقور . ثم يتبع ذلك إمساك الحربة أو الرمح وقذفهما مستخدما درعا ، وممسكا بقضيب أو سيف أو خنجر . وكانت عناصر الاستراتيجية والتكنيك يتم تحصيلها عن طريق المثل الحى حين يرافق التابع الإقطاعى الصغير أحد الفرسان فى واحدة من الغارات الإقطاعية التى لاتحصى ، والتى يتم فيها تدمير المحاصيل فى حقول أحد السادة الإقطاعيين المجاورين . ويراقب معارك الحصون وفن الحصار ، على الرغم من أنه نادراً ما كان يشهد فن نصب آلات الحصار ، مما كان ينمى معارفه العسكرية .

وهكذا كان الرجل الشاب يترعرع فى إطار مزدوج للحياة ، القتال وحياة البلاط . وتقدم الروايات الخيالية التى تدور حول الفروسية وأغانى العصور الوسطى ، وأشعار البلاط هذين

الجانبين للتعليم ، والهدف المزدوج للحياة ، كما تقدم مستويين مختلفين للوجود ، وتوقفنا على قيم البطولة ومثل مجتمع البلاط المترف . فالجانب الأول يعلن عن فضائل الأسلاف من أنصاف البرابرة على حين يكشف الجانب الثانى عن فضائل مجتمع يعاصر الصحوة الأدبية وسرعان ما سيخلق أعاجيب الرومانسية والقوطية فى العمارة والنحت والرسم .

ونادرا ما كان السلوك فى البلاط يتأثر بالدين . وقد اتخذت أكثر من رؤية شاكة لبعض مثل البلاط كتلك المثل التى تفصل الحب عن الزواج . فالحب الذى يدفع بالرجال إلى الإتيان بالمعجزات ، كان من المفروض أن يوجد بين زوجة السيد الإقطاعى التى يصعب الوصول إليها وبين التابع الشاب . وسواء أكان هذا الموقف ، الذى غالبا ما يرد وصفه فى أشعار ذلك العصر، إبداعا أدبيا قصد به أن يضيف عنصر الدراما أو المأساة ، أو أنه كان يعكس ممارسة عامة للبلوغ والمراهقة ، فإن حقيقة الأمر لاتزال مجالا للتخمين . ومن المحتمل أن الحنين والشوق بين السيدات النبيلات والشباب لم يكن يصل إلى حد التنهيد والغراميات ، ولكنه كان يخلق إطارا مزدوجا من التناسق الوثيق : الزواج العرفى وإنشاء عائلة من أجل استمرار السلالة الحقيقية ذات الدم الأزرق ، والحب (الحب الرومانسى) الذى يترعرع خارج إطار الزواج. ومن المؤكد أن الكنيسة لم تكن تتعاطف مع هذا الأسلوب فى الحياة ، بيد أنها لم تكن تستطيع التدخل بأكثر من الدعوة إلى العفة والتهديد بالحرمان. ومع ذلك ، فعلى المرء أن يضع دائما فى اعتباره حقيقة أن مثل هذا النمط من العقلية والسلوك كان محصوراً فى دائرة محدودة جداً فى المجتمع .

ومن ناحية أخرى ، كما ذكرنا من قبل ، كانت الكنيسة تتولى زمام تحويل الرجل المحارب إلى فارس مسيحى . وعندما أصبحت مهنة العمل فى السلاح مهنة معترفا بها ، أخذت الكنيسة تتدخل فى أعظم حدث فى حياة النبيل ، وهو تتويجه فارسا . فلم يكن هناك ماهو أقرب إلى قلب الناس فى العصور الوسطى من المراسم والطقوس والرموز . فقد كانت هذه العقلية جزءاً من تراث الاعتقاد السابق فى سحر الطقوس والكلمة المنطوقة ، كما كانت حصيلة الحياة فى عالم توجهه العناية الألهية ، ومع ذلك فما يزال الشيطان وأتباعه يسكنونه ويؤثرون فيه ، وهو عالم لايمكن للغة أن تصفه إلا بصعوبة ، على حين يمكن للرموز أن تعبر عنه فى سهولة ، وغالباً ما كانت هذه الرموز تؤخذ من الحقيقة ذاتها . وفى هذا الخصوص ، صار تنصيب الفارس إعلانا عن أن الشاب قد أصبح رجلاً ، كما صار هذا التنصيب أيضًا طقساً يؤدى بالرموز والإشارات الرمزية ، وهو نوع من التعليم الدينى المكثف وتلقين للفضائل التى ينبغى أن يتمسك بها الشاب الذى أصبح فارسا .

وعلى الرغم من أن تنصيب الفارس كان يرتكز فى أساسه على العادات القبلية الخاصة بطقوس البلوغ ، فإن عناصر الاحتفال الأصلية اختلطت آنذاك بالإضافات التى حولت الفعل الاجتماعى والعسكرى إلى طقس تعميد مسيحى - تعميد ثان ، يتم من خلاله إقرار البالغ بالالتزامات التى يفرضها عليه تلقيه للسر المقدس . ومثل زى طقس دينى كان لتنصيب الفارس جوانبه التأملية والطقسية . ففى أكثر أشكاله تفصيلا كان التنصيب يبدأ بقضاء التابع ليلة فى الكنيسة ، وفى أثناء هذا كان المفروض عليه أن يتأمل حياته المستقبلة ويفكر فى الفضائل التى ينبغى عليه أن يتمسك بها والرذائل التى يجب أن يتحاشاها . وكان هذا العزل الليلى فى رحاب معبد الرب هو المقابل للندم فى طقس التوبة ، كما كان فى الوقت نفسه علامة تحول فى حياته . والحمام الذى يأخذه صباح يوم التنصيب يقابل طقس التعميد فى أنه طقس طهارة من الناحية الرمزية والطقسية ، وهو يعتبر مدخلا للتابع الإقطاعى إلى المجتمع الجديد ، ليس جماعة المؤمنين فى هذه المرة ، وإنما هو مجتمع الأخوة المسيحية للمحاربين الأرستقراطيين . وكان الاعتراف وصلاة القداس فاتحة الحدث الكبير . وتعلن الملابس الجديدة المتألقة فى بياضها ، والتى كانت تلبس فى هذه المناسبة ، عن طهارة القلب والقصد . وكانت جميع هذه الاستعدادات مأخوذة من الكنيسة . وعلاوة على ذلك ، كانت الكنيسة تتدخل فى جوهر الطقس ، فمنذ نهاية القرن الحادى عشر فصاعداً كان القسيس (ويمكن القول القسيس الذى يشرف على حفل التنصيب) يبارك الرموز المادية للفروسية كالسيف والحربة أو الرمح الطويل التى كانت تشمل تقريبا جميع حاجيات المحارب ، فيما عدا المهماز ، وكانت كلها تسلم أثناء حفل التنصيب .

وكان الجزء الفعلى من الإنعام بالفروسية يتم على يد رجل مسن من الفرسان . وقد يكون والد الشاب أو أحد أقاربه . ولكن غالبًا ما يكون أحد من اشتهروا بمسلك الفرسان ، وفى بعض الحالات كان تنصيب الفارس يتم على يد أحد رجال الكنيسة . وكان الرجل الذى يقوم بالاحتفال يساعد التابع الإقطاعى الشاب فى تقلد السيف ، ثم يعطيه حربته وخوذته ومهمازيه ، ويركع الشاب على ركبتيه ويتقبل منح درجة الفروسية أو ضربة على كتفيه ، وهو عمل رمزى معناه ليس معروفا بشكل واضح . ووفقا لإحدى النظريات ، كان المقصود به تذكرة الشاب بالحادث الجليل فى حياته ، وحسب نظرية أخرى ، كان ذلك برهاناً على أن الرجل يستطيع أن يتحمل الضربة . وأيا كان الأمر ، فقد كان من المفروض أن هذه هى المرة الوحيدة فى حياة الفارس التى يتحمل فيها الضربة دون هجوم ودون أن يردها .

ومن الطبيعى أن روعة احتفال تنصيب الفارس كانت تعتمد على مكانة العائلة . ففى بيوت الأمراء يصير احتفالاً رئيسياً ، على حين أنه كان احتفالاً متواضعاً فى المستويات الأدنى ، وعلى الرغم من الميل إلى تقنين شكل الاحتفال ، فإن ثمة تقليد آخر أقدم ، وربما أكثر أصالة ، لتنصيب الفارس وتدشينه فى ساحة القتال حين يثبت شجاعته ، كان لايزال موجوداً . وظل هذا طريقا ، وإن كان ضيقا ، للانتقال ، وقد سمح حتى لأبناء العامة بالدخول فى زمرة النبلاء .

ومع طلوع فجر القرن الثانى عشر ، صار الدفاع عن الدين وحمايته من بين الواجبات الجديدة المنوطة بالفارس ، إذ كان رجل العصور الوسطى يتطلع إلى الإمبراطور هرقل وإلى شارلمان باعتبارهما مثالين لامعين للمدافعين عن الدين . وسرعان ما ظهر مثال جديد فى الخيال الشعبى ، ذلك هو مثال المكابيين ، الأبطال العظام فى التاريخ المقدس الذين دافعوا بأجسادهم عن العقيدة ضد الوثنيين الدنسين . وكان فى مقدور المرء أن يقاتل البروسيين الوثنيين على حدود ألمانيا أو بولندا ، أو يحارب المسلمين فى أسبانيا ولكن لم يكن هناك شىء أكثر تمجيدا للمرء من الخروج إلى الحرب فى الأرض المقدسة . فالحرب من أجل الدين ، ومن أجل تحرير قبر المسيح المقدس أو الدفاع عنه قد صار جزءا لايتجزأ من قانون الفروسية . وقد كان ذلك التزاماً دينيا بقدر ما كان التزاماً على الفارس . فالرحيل عن الحبيب فى زمن الحملة الصليبية الثالثة ، جعل كانون دى بيتون Canon de Béthune يعلن : "وا أسفاه أيتها الحبيبة الجميلة ، يا له من فراق يمزق القلب .. فراق بعيد عن أجمل وأروع من حظى بالحب والخدمة منذ الأزل . يجب على أن أذهب إلى سوريا متنهداً وعاشقاً لأنه لاينبغى لأحد أن يخذل خالقه.. ولكنه معلوم للعظيم والحقير على السواء أنه هناك يقوم المرء بأعمال الفروسية . فهناك يربح المرء الفردوس والشرف ، والمكافأة والثواب كما ينعم بحب الحبيب" .

الفردوس والشرف ، الثواب والحب - هى مكافآت الحياة الدنيا والبركة الأبدية . فقد تداخلت التعاليم الدينية مع مبادىء الفروسية ، وارتبط السماوى بالأرضى فى قانون منسجم متسق للحياة . ومرة بعد الأخرى تظهر المثل المتداخلة فى الشعر المعاصر ، مؤكدة على أن شرف العالم المسيحى فى خطر . فإن سيطرة أعداء بيت المقدس الأبديين عليها يجعل من الحياة المسيحية حياة كلها الخزى والعار . والفرسان الذين ينضمون إلى الحملات الصليبية يفون بواجباتهم ليس تجاه أنفسهم فحسب ، وإنما تجاه العالم المسيحى بأسره . ولنقتبس من كانون

دى بيتون مرة أخرى حيث يقول : "إن القساوسة والشيوخ الذين سيقومون بأداء الأعمال الطيبة وفعل الخيرات سيكون لهم جميعا نصيب فى الحج ، وكذلك السيدات ، إذا ما عشن حياة العفة واحتفظن بالولاء لأولئك الذين فارقوهن هناك " ويضيف مستدركا وكأنه يضيف عدة سطور لاشك أنها كانت ماثلة فى عقول كثير من الصليبيين ، إذ يقول : "ولكن إذا ما ارتكبت السيدات الخطيئة - فيا للأسف - لأنهن سوف يخطئن مع الجبناء والأشرار ، لأن كل الطيبين من الرجال سيكونون فى رحلة الحج" . وسيتردد هذا التفكير الإنسانى مرة أخرى بعد ذلك على لسان شاعر التروبادور الفرنسى بوتيبيف Butebeuf، الذى تعرض بالإهانة لكل من عارض الحروب الصليبية ، بما فى ذلك أولئك الذين كان الرحيل عن شخص يحبونه يمثل عقبة كبرى فى سبيل مشاركتهم .

ومنذ لحظة حمل الصليب والقسم بالمشاركة فى الحرب الصليبية حتى لحظة الرحيل كان الوقت يستغرق فى تمويل البعثة ، والعثور على الرفاق ، وربما أيضا فى اختيار قائد للرحلة . وقد كانت هذه المهام سهلة عندما كانت الحملات الصليبية الكبرى تعلن من قبل البابا ، ويقوم على رأسها الملوك أو الأمراء . ولكن فيما بين هذه الحملات الكبرى ، شقت أعداد لاتحصى من الفرسان وعامة الناس طريقهم إلى الأرض المقدسة ، مستمتعين بمكانتهم الخاصة كصليبيين وهى المكانة التى أنعمت بها الكنيسة عليهم . وكانت هذه الامتيازات تتضمن ليس فقط غفران الخطايا والذنوب وحماية أرواح المشاركين وأملاكهم ، بل وتجميد الديون والمصالح حتى عودتهم ، والذهاب فى حملة صليبية - مثل كل شىء آخر فى قانون الفروسية - تحول إلى طقس يتم فى احتفال خاص . وكان هذا الاحتفال يبدأ بأن يقطع الفارس على نفسه قسما بالالتزام بالرحيل إلى الأرض المقدسة ، ويدير الاحتفال قسيس أمام جمع من الناس فى القلعة أو الضيعة . وكان على الصليبى أن يخيط صلباناً حمراء فى معطفه أو سترته ، غالباً ما تكون على كتفيه وظهره وصدره . وكانت هذه علامة على أن الصليبى عازم على الحرب لا لسبب سوى مجد الدين والصليب . ولكن غالبا ما كانت تمضى سنة أو أكثر قبل أن يتمكن الفارس من الاستعداد الحقيقى للسفر .

وكان الاحتفال بالرحيل يتم فى كنيسة القلعة أو فى كنيسة أو دير قريب . وبعد الاعتراف والتناول يأخذ الصليبى أسلحته ، والسيف والحربة ، والدرع والعلم التى باركها القس فى المذبح . ومن هنا يتوجه فى صحبة العائلة والجيران والفلاحين إلى بوابة القلعة أو حدود

ضيعته، وكان الفراق صعباً فالناس فى العصور الوسطى ، على الرغم من أنهم كانوا دائماً على سفر ، نادراً ما كانوا يتغيبون عن بيوتهم مدة طويلة ، ما لم يكونوا تجارا محترفين (وحتى فى مثل هذه الحال كانت عدة شهور بعيدا عن المنزل تعتبر مخاطرة خارقة للعادة) فالذهاب إلى الأرض المقدسة عادة ما كان يعنى غياب سنتين ، وغالبا ما كانت السنتان تمتدان لفترة أطول . وبطبيعة الحال ، كان هذا يحدث إذا كان الرجل محظوظا بحيث يقدر له أن يعود؛ لأن آلافا وعشرات الآلاف لم يعودوا أبدا ، إذ مات البعض على الطريق من المرض أو الإرهاق ، على حين وقع البعض الآخر فى عرض البحر أسير القراصنة المسلمين (والمسيحيين أحيانا) ، ناهيك عن أولئك الذين قتلوا فى ساحات المعارك فى أرمينيا وسوريا ومصر والأرض المقدسة ، أو وقعوا فى يد المسلمين ينتظرون سنوات طويلة حتى تحين الفرصة لكى يعلم أقرب ملوكهم بأمرهم ويطلب افتداءهم بالمال . ويصف جوانفيل Joinville ، كاتب قصة حياة القديس لويس الشهير ، رحيله للمشاركة فى الحملة الصليبية بقوله :

"فى يوم جمعه قلت لهم : أصدقائى ، إننى سأرحل قريباً عبر البحار ، ولا أعلم إن كنت سأرجع على الأطلاق . ولهذا فهل لى أن أسأل إذا كان أى منكم له دعوى ضدى فليتقدم . وإذا كنت قد أخطأت فى حقكم فسأحول خطأى إلى حسنة ، ولكى لا أؤثر على قرارهم انسحبت من المناقشة ، ثم وافقت بعد ذلك بدون تردد على ما أوصوا به . ولأننى لم أكن أرغب فى أن أحمل معى نقوداً لا أستحقها ، فإننى رهنت الشطر الأكبر من أرضى . وأستطيع أن أؤكد لكم أنه فى يوم رحيلى عن بلدى للذهاب إلى الأرض المقدسة لم يكن معى دخل يزيدعن ألف ليفر من ضياعى . وفى اليوم الذى تركت فيه جوانفيل أرسلت إلى رئيس دير كيمينون ، الذى قيل عنه أنه أحكم رهبان النظام المسترشيانى وأكثرهم أمانة . وهذا الراهب نفسه هو الذى ناولنى عصا الحج ورقعة الشهادة . وتركت جوانفيل بعد ذلك مباشرة – فليس لى أن أدخل قلعتى ثانية ثانيا حتى عودته من الرحلة عبر البحار – ماشياً على الأقدام وساقاى عاريتان وأنا أرتدى قميصى ، وقد ذهبت وأنا فى هذا الزى إلى بليكورت Blécourt وسان اربان Saint Urban وإلى أماكن أخرى حيث توجد بعض الذخائر المقدسة . وعلى طول الطريق إلى بليكورت وسان أربان لم أدع عينى تلتفتان إلى جوانفيل مرة أخرى على الإطلاق ، خوفاً من أن يمتلئ قلبى بالشوق لقلعتى الحبيبة وطفلى اللذين تركتهما خلفى" .

هكذا كان الواحد منهم يترك وطنه بقلب مثقل بالهموم وهو يرحل عن أهله وبيته قصيدة ساحرة مؤثرة صاغتها سيدة شاعرة مجهولة ربما كان اسمها جان دى نيفيل (Jeanne) de Neuville وتتكون القصيدة من السطور التالية :

أورشليم ، لقد سببت لى الكثير من المعاناة

لقد أخذت من تملكنى حبه

لذا إعلمى أننى لن أحبك أبداً

لأنه ما من شىء مثله أدخل على البهجة

وغالباً ما أشعر بمدى كآبتى وغضبى

لأننى أقف فى وجه الرب

الذى انتزع منى أعظم أفراحى

أيها الحبيب الحلو كيف تسمح

بعذابى وأنت هناك عبر البحر الملح ؟

لا شىء يستطيع وصف الألم الذى يعصف بقلبى

حين أتذكر وجهك الحلو الصافى

الذى اعتدت تقبيله ومعانقته

إنها لمعجزة أننى لم أفقد صوابى

مثل هذه المشاعر فى سياق الحملات الصليبية تشرحها لنا قطعة فنية فريدة من ترجع إلى القرن الثانى عشر محفوظة فى متحف الكوردلييير فى نانسى ، ومن المحت تمثل شخصية تاريخية هو الكونت فندوم Vendome الذى التحق بجيش مليكه لويس فى الحملة الصليبية الثانية ، ولكنه لم يعد مع العائدين بعد ذلك بسنة (١١٤٨) . أقيم الحداد عليه ، وأعلن أنه مفقود ، ونسى الناس ذكره عاد إلى موطنه بعد خمس عاما . والنحت يصور إعادة جمع شمل الكونت العائد .. وهو مايزال فى ثيابه الم مرتدياً الصليب ومعه عصا الحج - وزوجته . وتبدو الأجساد المتعانقة فى اللوحة المنح لو كانت اندمجت فى كتلة صخرية واحدة - صخر صامت ولكنه أكثر تعبيراً من أى ف رواية من روايات الفروسية .

ويمكن قياس مدى قوة الرابطة بين الفروسية والحروب الصليبية من خلال الحقيقة القائلة بأن هذه الرابطة ظلت على قوتها لمدة قرنين من الزمان . هذه الرابطة ظلت - بحساب العصور الوسطى ومصطلحها - هى القوة الدافعة لحركة مستمرة تجاه الشرق على مدى ما يقرب من عشرة أجيال متتابعة . بل إنها ستبقى حية على مدى قرنين آخرين حين أخذت شكل حملات صليبية عسكرية ضد المماليك ، والمغول والأتراك ، على الرغم من أن نهايتها كانت تلوح فى الأفق .

وهناك شىء يأخذ بالألباب حول أولئك النبلاء الذين جذبتهم مغامرة الفروسية فى العصور الوسطى . فلا شك أنهم كانوا يتحركون بدافع من عقيدة مسيطرة على الرغم من أن المرء قد يشك فى مدى عمق تدينهم ، إذ كانت العقيدة جزءا من نظام تربيتهم وحياتهم اليومية ، وهى حقيقة لا يرقى إليها الشك كانت تفرض نفسها على الأعياد والمواسم وعلى كل الأحداث الجسام فى حياة الناس من المهد إلى اللحد . لقد ولدت الحركة الصليبية من رحم الدين كما أن الدين استعاد توقده بفضل الحروب الصليبية ، ذلك أن محاربة الكفار وتحرير الضريح المقدس أو الدفاع عنه لم يكن مجرد شعار ، أو مجرد تبرير للحرب والقتال ، وإنما كان جانبا من جوانب الحياة الداخلية وشعوراً بالالتزام داخل كل إنسان .

وأيا ما كان الأمر ، فإن أولئك المحاربين العظماء الذين تربوا على الكتاب المقدس وقصص الفروسية الخيالية ، كانوا هم أيضا جمهور رؤية التروبادور الطائشة للحياة ، وهى نظرة كانت تبشر صراحة بالإباحية والزنا . ولم تكن ثمة علاقة موضوعية رابطة بين الاثنين سوى واقع الحياة التى يمكن للمرء أن يمارس فيها الاثنين دون أن يضطر إلى المواءمة بينهما . ومهما كانت الاحتمالات ، فإن كثيرين كانوا ينتهجون السبيل الذى أوضحته بعض الكتابات ذات الصبغة الأخلاقية فى ذلك العصر - وهو سبيل الندم عما حدث فى سن الطيش وتجاوزات الشباب ، ومع ذلك فالممارسة المزدوجة للفروسية ومطارحة الغرام لم تكن هى الشكل الوحيد للسلوك . وإذا كانت مطارحة الغرام أضافت سحر الحب ومتعة الجنس إلى الواجبات القاسية للمحارب المسيحى عند الغالبية العظمى ، فإن البعض كانوا يرون ذلك أمراً دنيئاً . وكان رجال الكنيسة والعلمانيون المتزمتون يرون فى هذا المستوى المزدوج للأخلاق أمراً ممقوتاً .

وإذا كانت بروفانس ، بما اشتهرت به من إعلاء لشأن الحب ، قد أسرت الشمال ، فالأرض المقدسة تفاعلت مع الغرب بأسره ووضعته رهن محبسها حين خلقت أيديولوجية جديدة من الفارس المسيحى الكامل . فإن أحلام هذا الفارس لم تكن حافلة بصورة الحب الفانى ، وإنما

بروى الحب المقدس ، حب الله الخالد الذى لا يفنى . وكانت التعاليم الأخلاقية والفضائل المسيحية التى يلقنها المرء فى طفولته تقوى ويشتد أزرها من خلال الارتباط بالأرض المقدسة، التى صارت مهد النظم العسكرية .

وأكثر ابتكارات الصليبيين والحملات الصليبية أصالة هى النظم العسكرية التى كانت مجالا لتحقيق الأيديولوجيتين الكبيرتين فى أوربا العصور الوسطى فى أدق صورة - وهما حياة الرهبنة الديرية وحياة الفروسية - وأصبحت نظم الرهبنة العسكرية واحدة من أكثر التعبيرات شمولا عن طباع العصور الوسطى .

والفكرة الكامنة وراء نظم الرهبنة العسكرية لم تنشأ بين القساوسة أو الرهبان ، فقد كان المبادرون بإنشائها من العلمانيين . وكانت هذه النظم أحد المجهودات الباكرة الخلاقة لطبقة النبلاء فى مجال الأخلاقيات والأيديولوجيا . فبعد أن استولى الصليبيون على بيت المقدس مباشرة ، جمع فارس بروفنسالى يدعى جيرالد Gerald مجموعة من الفرسان لرعاية المرضى والجرحى . فقد كانت الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى الملقاة فى الشوارع ماتزال تملأ المدينة ، حين بدأت مجموعة من الفرسان الصغيرة عملها الخيرى فى مستشفى مؤقت . ولم يكن مفهوم العلاج والمستشفى مفهوما جديداً . ففى سنة ١٠٧٠م تقريبا قامت مجموعة من تجار أمالفى Amalfi الذين كانوا يترددون على شرق البحر المتوسط باستمرار ، بتأسيس مستشفى للحجاج الغربيين فى بيت المقدس . وتوقفت أعمال العلاج والمستشفى أثناء فترة الحصار ، وتم إجلاء الرهبان والراهبات الذين كانوا يعنون بالمرضى إلى خارج المدينة . والحقيقة أن إعادة إحياء هذه المؤسسة الجديدة إنما تم على يد العلمانيين - وليس الرهبان والراهبات - الذين أخذوا على عاتقهم مهمه رعاية المرضى والفقراء والمعوزين . فالإحسان ، كما كانت نظرة النبلاء إليه ، كان يعنى إعطاء الصدقات للمحتاج ، وعادة ما كان هذا مرتبطاً بالعطف والإكرام . وقد أعطى التصوير الكلاسيكى المتأخر للصراع بين الفضائل والرذائل مناظر تصور الملك والنبيل فى زيارة مريض . ومن المؤكد أن الرعاية لم تكن تنصب على المرضى شخصياً . وهكذا حققت المجموعة الصغيرة التى التفت حول جيرالد فى بيت المقدس مساهمة فريدة من نوعها فى مجال الوعى الإجتماعى .

وتمركز الفرسان من المدخل الجنوبى حتى منطقة الضريح المقدس ، واستولوا على كنيسة بيزنطية عجيبة من دورين تميزها كنيسة صغيرة ثلاثية الأضلاع . وكان القديس الحامى للكنيسة هو القديس حنا مانح الصدقات John Almsgiver السكندرى . ولكن الصليبيين

استبدلوه بيوحنا المعمدان الذى كان أكثر شعبية - بطبيعة الحال - من سلفه . ثم أدمج مبنى الاستشفاء الذى كان يتبع تجار أمالفى من قبل باسم سانت مارى فى مجموعة من مبانى المستشفى سرعان ما امتدت لتشغل حيا كاملا من أحياء المدينة. وفى دولة فى حالة حرب يزورها آلاف الناس كل عام ، كانت العناية بالمرضى والجرحى ضرورة ملحة . وما لبثت أن وصلت الهبات والعطايا من الحجاج والبيوت الملكية والنبيلة فيما وراء البحار لتدعم المركز المالى للجماعة .

وهذه الرابطة المتطوعة من المثاليين اتخذت لنفسها القواعد التى تحكم أية رابطة ديرية . وقطع أعضاؤها على أنفسهم قسما ثلاثيا بالفقر والعفة والطاعة . وعلى مدى ما يقرب من جيل بدا وكأن مستقبل هذا التنظيم سيكون مؤسسة ديرية له أهداف علاجية . وقبل ذلك ،وفى داخل أية مؤسسة ديرية لايختلف النبيل - على الأقل من الناحية النظرية - عن أى راهب آخر. على الرغم من أن مولده وتعليمه قد يكونا من عوامل ترقيه ووصوله إلى مكان مرموق ، مثل رئيس الرهبان أو مقدم الدير . ولكن فى بلد يتسم بهذا القدر الكبير من المهاجرين مثل المملكة اللاتينية فى فلسطين كان من الصعب الحفاظ على القواعد التى تفرق بين النبلاء وغير النبلاء . والخلاصة أنه إذا لم يكن تنظيم القديس يوحناقد انتهج هذا المنهج فى التطور وظل يحافظ على التفرقة بين الإثنين ، فقد كان ذلك لأن رابطة جديدة من النبلاء أخذت فى الظهور فى الوقت نفسه ، وهى جماعة الداوية .

وتنظيم الداوية (المعبديين Templars) وقد سموا بهذا الاسم لأن مقرهم الأول كان فى هيكل سليمان فى القدس (فى المسجد الأقصى) قام على أسس مختلفة فى افتراضاتها ولكنها كانت أكثر ملاءمة للطبقة الاجتماعية التى انضم أبناؤها إلى هذا التنظيم . وقد أسسه هوف البابنزى Hugh de Payns ، الذى جمع مجموعة صغيرة من الفرسان فى رابطة متطوعة لتقدم خدماتها فى شكل قوافل مسلحة تخدم الحجاج فى طريقهم من القدس إلى مدينة أريحا ومنها إلى الإماكن التى شهدت تعميد المسيح فى الأردن . ولم تكن حالة عدم الأمن العامة التى سادت خلال العقدين الأولين من عمر المملكة ترجع فقط إلى الحدود التى تفتقر إلى وسائل الدفاع والتحصينات . فقد كان هذا الشعور بعدم الأمن مسيطراً تماماً داخل حدود المملكة ، لأن جماهير سكان الريف ظلوا من المسلمين ، ولم تكن الدولة الصليبية قادرة على فرض سيادتها على السكان إلا بقدر ما لديها من قوة . وظل المسلمون على عدائهم للصليبيين، بل إن بعضهم غادروا مواطنهم وهاجروا إلى سوريا ومصر ، بينما البعض الآخر ،

كما نعلم من إحدى المدونات الصليبية ، تركوا فلاحة أراضيهم مفضلين العيش على حافة الموت جوعاً ، وبذلك يحرمون الغزاة المكروهين من مصادر الدخل . وكان السفر يمثل مخاطرة جسيمة فى الأراضى الجبلية والتلية فى منطقة الجليل ، ولم يكن الموقف أفضل على الطريق الرئيسى من ميناء يافا إلى بيت المقدس عبر سهل الرملة . ولحماية الحجاج ، نظم الداوية قوافل مسلحة أصبحت جزءا من الوجود الصليبى .

هذه الرابطة العسكرية الباكرة سرعان ماتطورت إلى جماعة من المتطوعين ، وربما تكون بعض القواعد الأولية قد وضعت بالفعل على يد مؤسسها عام ١١١٨م . وأدمجت رسميا فى قواعد التنظيم عند حصوله على موافقة الكنيسة . ولقيت الرابطة الجديدة مساندة معنوية من سان برنار الكليرفوى St. Bernard de Clairvaux الذى كان يمثل أعلى سلطة روحية فى ذلك العصر . وفى كتيب صغير يسمى "فى مديح الفروسية الجديدة" ، ترك لنا برنار وصفاً للنمط النموذجى للفارس من نظام الداوية ، الذى يختلف عن الفارس العلمانى . فقد كتب يصف الفارس الدنيوى الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن المجد الشخصى ، يقول :

"إنكم تكسون خيولكم بالحرير ، وتغطون دروعكم بكسوة براقة . كما أن حرابكم ملونة ، وكذلك دروعكم وسروجكم . كما أنكم تطعّمون مهاميز خيولكم وألجمتها بالذهب والفضة والأحجار الكريمة . ومع كل هذه الفخامة تتحركون فى غضب مخز وغباء قح إلى ميدان المعركة. هل هذه هى المظاهر التى تناسب الفارس ، أم هى زينة تناسب النساء أكثر ؟ هل تظنون حقا أن سيف العدو سوف يحترم الذهب ، ويبقى على الأحجار الكريمة ، ولا يخترق الثياب الحريرية ؟ لقد علمتنى التجربة أن المحارب يحتاج إلى أشياء ثلاثة : يجب أن يكون فارسا شجاعا ، يقظا حريصا حتى يحمى نفسه ، كما يجب أن يكون سريعاً خاطفاً مستعداً على الدوام لتوجيه ضرباته إلى الخصم . ولكنكم على النقيض تماما ، فقد أرسلتم شعوركم لتطول كشعور النساء لدرجة أنها تحجب نظركم ، كما أنكم تقيدون حركتكم بسبب السترات الطويلة الفضفاضة وتدفنون أياديكم الناعمة الرقيقة فى أكمام طويلة ترفرف حولكم .

أما "فارس الرب" من الداوية فيصفه ويزكّيه زعيم أوربا الروحي بقوله : أولا ، نظام وطاعة لا مثيل لهما ، فكل واحد منهم يغدو ويروح وفقاً لمشيئة قائده . وكل منهم يرتدى الملابس المعطاة له ، ولا يبحث أحد عن طعام أو ملابس إرضاء لنزواته . ففى مسائل الطعام والملابس يقنع الواحد منهم بما هو ضرورى متجنباً كل ماهو زيادة عن الضرورى . وهم يعيشون فى

جماعة ، ينعمون بالسرور فى رزانة دون زوجة أو ولد . ولكى يصلوا إلى الكمال الإنجيلى ، فهم يعيشون فى البيت نفسه وبالطريقة نفسها دون أن يدعوا ملكية شىء ، حريصين على الحفاظ على وحدة الروح فى ظل روابط السلام .

أما الكلمات البذيئة ، والمشاغل التى لا معنى لها والضحك الخارج ، والضحكات البلهاء الهامسة أو حتى المكتومة، فهى غير معروفة . وهم يكرهون الشطرنج والنرد ، ولا يحبون الصيد ولايستمتعون بتطيير الصقور . وهم يحتقرون الممثلين الصامتين والحواة ، والقصاصين ، والأغانى الماجنة وألعاب المهرجين - فكل هذه أمور يعتبرونها عبثا ولهوا باطلا ، وطيشا سخيفاً . وهم يقصرون شعورهم لأنهم يعلمون أنه من المخزى للرجل أن يرسل شعره . وهم لايزيدون أبدا فى ملابسهم ، وهم نادرا مايستحمون ، وهم لذلك قذرون مشعرون وقد لوحت جلودهم الشمس وطول السفر .

وقد أحرز التنظيم الجديد نجاحا هائلا . فقد جنده الملك والنبلاء المحليون لأنه كان يسد إحدى حاجات المملكة الملحة . وقد ظل قسم الفقر الذى قطعه الفرسان المؤسسون على أنفسهم باقيا كقوة دافقة للفرد . ولكنه لم يكن كذلك على المستوى الجماعى . فالأعلام البيضاء والصلبان الجديدة للفرسان الداوية سرعان ما أصبحت رمزا للقوة والثروة . وربما كان نجاح التنظيم متوقعا ، لأنه أدمج الأيديولوجيتين الكبيرتين فى ذلك العصر - الرهبنة والفروسية . وكان عضو الداوية قادرا على ممارسة معظم ميوله الطبيعية - التى كانت نتيجة لبيئته الاجتماعية ولتعليمه - تحت رعاية الكنيسة مع معرفته التامة بأن وظيفته العسكرية مكرسة لمجد الرب العظيم . وهنا كان ثمة إدماج للفروسية والأخلاقية بالنسبة لأولئك الذين تبنوا رأيا أكثر جدية لمعنى الحياة المسيحية وواجبات النبيل المسيحى . وكان النبيل والفارس اللذان يقبلان فى شغف على الالتحاق بالتنظيم لمدى الحياة سرعان ما يجدان الوسيلة التى تمكنهم من الالتحاق به بشكل مؤقت حيث يخدمان لعدة سنوات . وكان الشعار المرسوم على لواء الداوية، البوسان Beauseant ، يحمل آية من المزامير تقول : "ليس لنا ، أيها الرب ، ليس لنا ولكن لإسمك أمنح المجد" .

وسرعان ما خرجت أسطورة تحكى عن العراقة الإعجازية للتنظيم ولم يعد Hugh de Payns هو مؤسسه وإنما أرجعت أصول هذا التنظيم عبر الزمان إلى ألف ومائتى سنة إلى أيام المكابيين الذين أعادوا تأسيس الهيكل وتولوا الدفاع عنه . فأولئك الأبطال الوطنيون اليهود

الذين حرروا بلادهم من الحكام الهيللنستيين فى سوريا فى القرن الثانى قبل الميلاد ، والذين طهروا بيت المقدس وأعادوا بناء الهيكل قد صاروا أسلافا للفرسان الداوية .

وكان لظهور الداوية ونجاحهم المدوى انعكاساته السريعة داخل تنظيم القديس حنا . فهذا التنظيم الذى كان قد تأسس منذ جيل مضى كان عليه أن يواجه منافسة قوية بسبب حرارة القبول الذى لقيه التنظيم الجديد تنظيم الداوية . وقد واجه الاسبتارية هذا التحدى بأن أضافوا أعباء عسكرية إلى التزاماتهم ، وسرعان ما أخذت الرايات السوداء والصلبان ذات النقط الخمس مكانها كعلامة مميزة لفرق الاسبتارية وسوف تشكل ، ليس فقط جزءا من جيش المملكة، وإنما أصبحت – هى وفرق المنظمات الأخرى – تشكل جيش المملكة الضارب . وحين تكون هناك ضرورة لتعبئة الجيش الإقطاعى لمواجهة أية طوارىء ، تكون نظم الرهبنة العسكرية جيشا من الفرسان المتأهبين دائما والمستعدين دائما للعمل .

ومنذ منتصف ثلاثينيات القرن الثانى عشر لم يقم التنظيمان فقط بإمداد المملكة بالفرق العسكرية ، ولكنهما أيضا كانا منوطين بالدفاع عن المواقع العسكرية الرئيسية . فالنقط القوية والأبراج والحصون سلمت جميعها للتنظيمين . وما لبثت شبكة الطرق والمواصلات كلها أن خضعت لدورياتهم التى تولت أعمال الحراسة . فضلا عن أنه منذ النصف الثانى من القرن الثانى عشر ، ومع تفاقم التهديد الإسلامى ، تمركزت فرسان الداوية والاستبارية فى القلاع والحصون الضخمة التى كانت تحمى حدود المملكة والمستوطنات الصليبية الشمالية . ففى إمارة أنطاكية ومقاطعة طرابلس ، كانت مناطق الحدود كلها تقريباً مواجهة بالدول الإسلامية وتولت حراستها فرق الفرسان من نظم الرهبنة العسكرية . وفى ظروف المستوطنات الشمالية خلقت نظم الرهبنة العسكرية دويلات مستقلة لها سياستها الخارجية المستقلة . وكان على الأمراء الصليبيين أن يعترفوا بأن معاهداتهم مع المسلمين المجاورين لن تكون سارية المفعول بدون موافقة نظم الرهبنة العسكرية .

وإزاء الأهمية المتزايدة لنظم الرهبنة العسكرية وقوتها وثروتها المتنامية يعجب المرء لما حدث للمثل الراقية فى نكران الذات والفقر– وهى المثل التى كانت تتأكد بقوة بألقاب مثل "فرسان المسيح الفقراء " أو "خدام الفقراء والمسيح" ، ومن خلال الامتيازات والهبات أصبحت النظم العسكرية ثرية ، فقد كان الاستبارية يملكون ثمان عشرة ضيعة فى أوربا . أما الداوية الذين كانوا لايكادون يقلون عنهم ثراءاً فمن سخرية الأقدار أنهم أصبحوا صيارفة أوربا الكبار

فى القرن الثانى عشر ويتنافسون مع البيوت المالية فى إيطاليا بل ومع اللمبارديين -Lom bards وCahorsins أشهر مرابيى العصور الوسطى . فمن ناحية ، كانت سلامة حصونهم وأراجهم ذات الحراسة القوية والمسماة بالمعابد على سبيل الاختصار ، تضمن أمن الودائع ، كما أن مكانتهم كأعضاء فى الكنيسة حولت أملاك النظم إلى ملاذ وملجأ ضد التدخل العلمانى . ومن ناحية أخرى ، سهلت فروع التنظيمات العديدة عملية نقل الالتزامات والديون من مكان لمكان دون نقل المال نفسه عبر الطرق والبحار المحفوفة بالأخطار . فالودائع والمنقولات كانت تدرّ ربحاً ، على حين استخدم رأس المال السائل المتراكم فى إقراض الملوك والأمراء . ولا غرو، إذن فى أن أوربا كانت تكيل المديح وتصب اللوم على هذه التنظيمات فى آن واحد . فقد كان المديح يوجه إلى شجاعة أعضائها ، ومهاراتهم العسكرية وإخلاصهم للعالم المسيحى . ولكن هذا الثناء كان يقابله انتقادات مريرة لثراء هذه التنظيمات وأطماعها وإدانة للصراع الذى كان يضعف من استقرار المملكة الصليبية ويؤثر على استمرارها فى الوجود .

ولم يؤسس الاسبتارية أو الداوية دويلات مستقلة فى أماكن المستوطنات الصليبية الأصلية، ولكن الداوية أصبحوا تقريبا هم حكام قبرص فى القرن الثالث عشر ، على حين كان الاسبتارية يحكمون رودس ومالطة حتى فتحها نابليون . ولكن ثمة تنظيم مشابه كان ينمو فى بطء مكونا تنظيماً جديداً مع نهاية القرن الثانى عشر ، إلا أن مصيره كان مختلفا . فقد واجهت سوريا ولبنان والأرض المقدسة – التي كانت أرض الهجرات والاستعمار الصليبى – مشكلة اندماج القادمين الجدد . فقد كانت سيادة العنصر الفرنسى الاجتماعية والثقافية شاملة تقريبا . وعلى الرغم من أن اللغة اللاتينية كانت تستخدم فى المراسلات ، فقد كانت اللغة الفرنسية منذ البداية هى اللغة التى يتحدث بها السكان . وكان الإيطاليون يتكلمون بلهجاتهم فيما بينهم ولكنهم كانوا يستخدمون الفرنسية فى اتصالاتهم الخارجية . وبينما كانت اللغة الفرنسية المستخدمة فى وسط وجنوب فرنسا هى اللغة المستخدمة فى المملكة اللاتينية ، كانت أنطاكية تستخدم الفرنسية النورماندية ، على حين استخدمت طرابلس الأوكسيتانية Occitan أو البروفنسالية . وظهرت مواقف لم يكن استخدام اللغة الفرنسية فيها كافياً ، فقد كان المرضى والحجاج ، ولاسيما العامة منهم ، يبحثون عن أحد يتحدث بلغتهم الوطنية . وفى مثل هذه الظروف نشأت فى القرن الثانى عشر مستشفى ومجموعة علاجية مكرسة لسان مارى ، التى هى جزء من تنظيم القديس حنا ، وهو ما أصبح نقطة تجمع للحجاج المتحدثين باللغة الألمانية .

وكان المستشفى الألمانى ، على الرغم من كونه جزءا من تنظيم القديس حنا ، يتمتع بنوع من الاستقلال الذاتى . فقد كان له رئيسه الخاص . وقد توقفت أنشطته بسقوط القدس فى يد صلاح الدين عام ١١٨٧م . وقد أثار سقوط العاصمة أوربا فأخذت تنظم حملة عسكرية جديدة هى الحملة الصليبية الثالثة . وفى أثناء الحصار الذى استمر حول عكا لمدة ثلاثة أعوام وبين آلاف الجرحى الذين أصيبوا فى المعارك أو المرضى الذين سقطوا بسبب المناخ أو الجوع ، ظهرت الحاجة إلى مستشفى خاص للعناية بالصليبيين المتحدثين بالألمانية ، فقام التجار والبحارة الوافدون من البحر البلطى ، وبريمن وهامبورج ، بتأسيس مستشفى ميدان أولى ، وهو عبارة عن مبنى خشبى تم بناؤه من أخشاب السفن المحطمة وتحميه أقمشة الأشرعة من الشمس والمطر . وعندئذ ، كما حدث منذ مائة سنة قبل ذلك فى تنظيم القديس حنا ، كرست مجموعة من الفرسان والقساوسة الألمان أنفسهم لعمل الخير ، وبعد ذلك بسنوات قليلة صارت المؤسسة الأولية نظاما عسكريا جديدا هو نظام الفرسان التيوتون – فرسان سان مارى التيوتون – الذى مزج الأغراض العسكرية بالخدمات الخيرية .

وهكذا أصبحت التنظيمات الثلاثة تحكم فى العالم الصليبى فى القرن الثالث عشر ، وبينما كانت الاسبتارية والداوية يحافظون على هويتهم العالمية صار التنظيم التيوتونى الأداة الفولاذية للتوسع الألمانى . وشارك الفرسان التيوتون ، كما هو الحال بالنسبة لفرسان التنظيمين الآخرين ، فى جميع الحروب والحملات العسكرية فى الأرض المقدسة ، فقد استحوذوا على الأرض والقلاع مثل قلعة مونتفورت Montfort فى الجليل ، بيد أن قلوبهم كانت فى مكان آخر ، فإن روابطهم المباشرة مع ألمانيا قد وجهتهم تجاه ألمانيا الشرقية بدلاً من المسيحية الشرقية . وقد حاولوا دون جدوى أن يقيموا لأنفسهم رأس جسر فى هنغاريا ، ولكن عندما دعاهم كونت ماسوفيا Masovia البولندى (١٢٣١) تمركزوا بنجاح فى حزام بروسيا البلطيقى واضعين بذلك أساس مملكة بروسيا فى المستقبل وحجر الزاوية فى ألمانيا الإمبراطورية .

وسرعان ما وجد مفهوم المقاتل – الراهب سلسلة من المقلدين . فثمة نظام عسكرى على وجه الخصوص ، على الرغم من أنه لم يصل أبداً إلى مكانة التنظيمات الكبرى ، له من الغرابة ومن نمطية بيئة الصليبى ما يجعله جديرا بالاهتمام . هذا التنظيم هو تنظيم سان لازاروس St. Lazarus الذى قام فى بيت المقدس فى منتصف القرن الثانى عشر . ويشير إسمه إلى سماته وخاصيته المتميزه ، لأنه كان تنظيم الفرسان المجذومين . فقد كان مرض الجذام الرهيب مرضاً بلا علاج ، ويبدو أنه كان منتشراً فى الشرق الأدنى ، ولأنه كان يعتبر مرضاً معدياً فقد كان

ضحاياه يعزلون عن العالم خارج أسوار المدينة وبوابات القلعة . وقد توصل الصليبيون إلى حل آخر ، هو مستشفى مغلق خارج القدس ولكن ملاصق لأسوارها وأصبح مستعمرة للمجذوبين . ولكن فرسانه وعامته نظموا أنفسهم فى تنظيم عسكرى . ويمكن للمرء أن يتصورهم وهم يهاجمون المسلمين ، ويبثون الرعب بسبب بسالتهم العسكرية من ناحية ، والتهديد بالعدوى من ناحية أخرى .

ويجب أن نمر سريعا على التنظيمات الأصغر التى قامت فى المملكة الصليبية - مثل التنظيمات العسكرية للفرسان الإيطاليين أو التنظيم الإنجليزى لفرسان سان توماس الكتانتبورى - على الرغم من أن أيا من هذه التنظيمات لم يلعب أبداً دوراً رئيسياً فى المملكة. والأهم من ذلك تلك الحقيقة القائلة بأن الفكرة التى نبعت أصلا فى الأرض المقدسة ، تمسكت بها أوربا . وبالإضافة إلى التنظيمات الدولية الكبرى ، ظهرت نظم رهبنة عسكرية محلية ، لاسيما فى الأراضى التى واجهت عدواً مسلماً أو وثنياً . وهكذا ، فإن أسبانيا والبرتغال ، ثم ليتوانيا وبولندا فيما بعد ، كانت لها تنظيماتها المماثلة التى قامت على غرار المثال الفلسطينى . وقد لعبت بعضها دوراً فى تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية ، بينما لعب البعض الآخر دوراً فى تاريخ شرق البلطيق . فقد كانت هذه التنظيمات العسكرية قوة محورية للملكية التى استعانت بها فى بناء الدولة والمجتمع فى جميع الأحوال تقريباً . واختفاؤها عند غروب شمس العصور الوسطى أو بداية حركة الإصلاح الدينى لم يثر أى احتجاج لدى الرأى العام . فمنذ ذلك الحين لم تعد الرهبنة والفروسية ذات أهمية . وفى القرن السادس عشر نزل سرفانتس Cervantes بالفارس العظيم إلى مجرد دون كيشوت ، الفوضوى المضلل الذى قام بمغامراته فى عصر يهتم بوصف الفارس الدنيوى ، الذى ينكب على الحياة الناعمة ويبحث عن النهضة .

القلاع والشؤون الحربية

إن الأقلية التى تسعى إلى حكم أغلبية معادية ليس أمامها من سبيل لضمان وجودها سوى أن تتمركز فى أعداد صغيرة نسبياً وفى أماكن حصينة ، سواء كانت مدناً أو قلاعاً . وعلى الرغم من ذلك فإن هذه الوسيلة لم تكن كافية لإحكام السيطرة على المناطق الريفية ، ولضمان الاتصالات وجعل الوجود الفرنجى فى الأرض المقدسة حقيقة ملموسة . ولهذا ، فبالإضافة إلى المدينة المحصنة والقلعة الضخمة ، فإن الصليبيين رصعوا شبكة الطرق الرئيسية والثانوية فى البلاد بالحصون ونقاط المراقبة التى هى أقرب إلى مراكز الشرطة منها إلى القواعد العسكرية . فقد كان من السهل أن تتصل الحصون والحاميات من الجبل إلى السهل عن طريق الإشارات بالنيران أو الحمام الزاجل ، وهو أسلوب تعلمه الفرنجة من المسلمين فى الشرق . وبهذه الوسائل كانت الأخبار تنتقل بسرعة من الأردن ، عن طريق بيت المقدس إلى يافا وعكا . وكانت المواقع الصليبية الحصينة بمثابة مؤسسات عسكرية ثابتة ، على حين كان الجيش هو العنصر المتحرك فيها .

فالحصن أو القلعة أو المدينة فى المملكة اللاتينية لم تكن جديدة تماماً . فقد كانت المدن على وجه الخصوص مدنا استولى عليها الصليبيون من حكامها المسلمين ، وهو ما يعنى أن الصليبيين لم يقوموا ببناء هذه المدن ، وانحصرت مساهمتهم عادة فى تطوير نظام الدفاع الموجود بها . وغالباً ما كان الصليبيون يبنون الحصون والقلاع ، ولكن حتى هذه الأبنية كانت تقام فى أماكن كانت بها تحصينات سابقة ثم هجرها أهلها خلال فترة الثلاثة آلاف سنة التى يمتد تاريخ البلاد بطولها . وفى مثل هذه الأحوال ، فالراجح أن الصليبيين قد ساروا على التخطيط الذى قامت عليه التحصينات السابقة . كما أنه من المؤكد أيضاً أنهم قد استفادوا من المبانى التى أقيمت فى الموقع من قبل . فقد كان منطق الصليبى المحلى يقول : "إن قلعة مدمرة هى قلعة نصف مبنية بالفعل . وقد تفاوتت التحصينات الصليبية بين الأبراج الصغيرة المقامة على الطرق ، والقلاع العملاقة مثل صفد فى الجليل حيث كانت حامية فرسان الداوية والجهاز الإدارى العامل فى خدمتهم يصلون إلى حوالى ألف نسمة . ومثل هذا العدد من السكان كان من الممكن أن يشغل إحدى مدن أوربا آنذاك . وكان حجم الحصن يتوقف على موقعه ، وعلى الأموال والقوى البشرية المتاحة ، وعلى الوظيفة المنوطة بهذا الحصن . فمركز الشرطة الذى يتولى حراسة أحد الطرق ، أو المركز الإدارى للأملاك الشاسعة لأحد التنظيمات

العسكرية ، أو القلعة القائمة فى الأحراش فى مواجهة تهديد إسلامى مستمر عبر الصحارى الممتدة ، كلها يجب أن تبنى بشكل يختلف تبعاً لمهامها المختلفة .

والأساس أن كل التحصينات كانت لها ثلاث وحدات دفاع رئيسية : الدفاعات الخارجية وهى عبارة عن الأسوار المحيطة والأبراج والحصن المركزى . وعادة ما كانت الدفاعات الخارجية تتألف من خندق بجرف وجرف مقابل ، وأحيانا برج خارجى أو نقطة مراقبة . وكان يلى هذه ستائر من الحوائط بها فتحات ونوافذ بارزة ، وعادة ما تكون الأبراج مستديرة . وأكثر نظم الدفاع تعقيدا هو الذى كان يتركز بالقرب من بوابة القلعة الرئيسية . ولم تكن الخنادق الصليبية تملأ بالمياه ، لأن "أرض اللبن والعسل" لاتسقط بها الأمطار التى تكفى لملئها . وكانت مهمة هذه الخنادق الرئيسية هى منع المنجنيقات أو أبراج الحصار من الاقتراب من الأسوار . وكانت الخنادق تبنى بدقة شديدة وباتساع حوالى ٤٥ قدما وعمق يتراوح بين ٢٤ و٣٦ قدما . ومن قاع الخندق تبرز الحوائط الخارجية للحصن وكانت قاعدة هذه الحوائط عبارة عن لوح مائل مصقول ثقيل بالقدر الذى يمنع أية محاولات لحفر نفق فيه . وعادة ما كانت القاعدة تمثل جرف الخندق وعلى هذه القاعدة القوية الهرمية الشكل ترتفع الأسوار المنتظمة إلى ارتفاع حوالى خمسين قدما (أو ثمانين قدما من قاع الخندق) وتبرز منها شرفات للدفاع . وترتفع الأبراج من ستائر الحوائط ، ويراعى أن تكون المسافات بينها بالقدر الذى يسمح للسهام أو غيرها من المقذوفات بتغطية كل المنطقة المحيطة بالقلعة . وإذا ما وجد حائط ثان ، فغالباً ما كان يبلغ ارتفاعه ضعف ارتفاع الحائط الخارجى ، ويجهز بأبراج عالية تملأ الفراغات الموجودة بين أبراج الحائط الأول .

وثمة وحدة منفصلة فى منتصف القلعة ، أو فى أكثر نقاطها ضعفاً ، وربما يكون أحد أبراج الحائط الثانى مقرا للحاكم أو القائد . وكان هذا هو الحصن المركزى donjon . والحصن المركزى الباقى فى بلفوار Belvoir بالجليل عبارة عن مبنى مستطيل الشكل من دورين يضم فناء داخلياً فسيحاً . ولأنه مبنى من الحجارة الضخمة الممتازة ، فإنه كان بمثابة الخلية الأساسية فى الحصن . وكانت حجرة الاجتماعات هذه تؤدى إلى القاعة الداخلية التى تحيط بها أماكن إقامة الفرسان ، والمطبخ والبئر وغيرها من لوازم الحياة اليومية . وفى الطابق الثانى ، الذى يتوصل إليه من سلم خارجى ، توجد الكنيسة والمكاتب ، وحجرة القادة ، وأماكن الإقامة الإضافية . وكانت أركان الحصن المركزى مدعمة بالأبراج العالية التى يتم الصعود إليها بالسلالم الداخلية.

وكانت دفاعات البوابات توجد فى العادة بين الأبراج ، وهى تعلو الستائر الحائطية . وكان يوجد فى قيصرية ثلاثة طوابق عالية وبها شرفه فسيحة للمدافعين وأسلحتهم الثقيلة . وكانت الحوائط والأبراج مثقوبة بالمنافذ . وقد أحصى فى حصن قسطل ثمانون من رماة السهام الذين يستطيعون القذف بسهامهم فى وقت واحد من المنافذ العديدة . وكانت البوابة فى حد ذاتها وسيلة دفاع معقدة . فثمة قنطرة تمتد على الخندق أمام القلعة وتؤدى إلى البوابة . وكان الجسر كله أو جزء منه يشيد من الخشب تدعمه أقواس أو عامود قائم فى منتصف الخندق . وكان هذا يساعد المدافعين على حرق الجسر فى حالة تعرضهم للهجوم وبذلك يعزلون المدينة عن المنطقة المحيطة بها . وللبوابة ذاتها جناحان خشبيان يدخلان فى فراغ بالحوائط . وخلف البوابة الخشبية المقواة بالمعادن كان هناك حاجز حديدى يتم تشغيله من الطابق العلوى بواسطة رافعة يدوية . وكثيرا ما كانت البوابة على شكل حرف "L" لكى تحول دون الاقتحام المباشر فى حالة نجاح الهجوم الذى تتعرض له القلعة ، وتحميها من الداخل شرفة عليا يستطيع المدافعون أن يصبوا منها وابلاً من سهامهم على الأعداء المهاجمين .

إن الصدام بين الشرق والغرب فى الأرض المقدسة ، والذى حدث على كل المستويات ، قد وضع الصليبيين فى مواجهة تحديات أكبر من طاقة خبراتهم العسكرية الأصلية . فعلى الرغم من أن فن الحصار كان معروفا فى العصور الوسطى الباكرة ، فإن الشرق واجه الصليبيين بمشكلات نادراً ما واجهتهم من قبل فى أوربا . فإن حجم القلاع ، وحجم المدن التى تمتد حوائطها فى نطاق يبلغ عدة أميال ، جعل حصارها والالتفاف حولها حتى يموت السكان جوعاً (وهو الإجراء العادى فى الغرب) أمراً غير مناسب فى حوض البحر المتوسط ، بل إن المشكلة التى خلقتها المدن البحرية كانت أكثر حدة ، لأن الصليبيين باعتبارهم سكان منطقة برية ، كانوا يفتقرون إلى الأساطيل وإلى الخبرة البحرية . وفى هذه الظروف ، تطور فن الحصار حول الاقتحام ، أكثر منه حول عمليات الحصار العادية وإحكام سد المنافذ على المدينة المحاصرة . حقيقة أن المرء كان يستطيع أن يرشق رؤوس الأسرى على الحراب ويستعرضهم تحت استحكامات المدينة ، كما جرت العادة بذلك فى كل من الشرق والغرب ، بيد أنه على الرغم من أن ذلك كان يخفض من الروح المعنوية للمحاصرين إلا أنه لم يكن ينتهى بدمار أسوار القلعة .وبما أن مؤن المدن والقلاع كانت تكفيها ، لا لعدة شهور ، بل لعدة سنوات ، وبما أن الفرصة لتجويعهم عن طريق الحصار كانت ضئيلة ، فقد كان يتعين الاستيلاء عليها عن طريق الاقتحام .

وفى نظام التسليح الهائل المستخدم فى حصار المدن ، يحتل البرج المتحرك مكان الصدارة، وغالباً ما كان يسمى "برج الناقوس" بسبب شكله وارتفاعه . وهذا البرج يتكون من عدة طوابق، وكان أعلى من الاستحكامات المحاصرة ، ويتكون من سلسلة من المنصات يقف عليها المهاجمون، حيث يجهز الطابق العلوى بمنجنيقات صغيرة وجسر يمكن خفضه إلى مستوى الشرفات التى يقف بها المدافعون ، وكانت صعوبة استخدام مثل هذه الأبراج ، إلى جانب ماتتطلبه من نفقات باهظة ، متعددة الجوانب ، فلم يكن هناك نجار من نجارى الضياع الإقطاعية كان يمكنه أن يبنى برجا يتراوح ارتفاعه بين ٤٥ و ٦٠ قدما ، يمكنه حمل عشرات من المحاربين ، ومن ثم كان لابد من الاستعانة بالمهندسين الخبراء ، ومن المحتمل تماماً أنه فى المرحلة الباكرة من الغزو استفاد الصليبيون من المسيحيين المحليين (يرد ذكر الأرمن فى هذا الخصوص) الذين يعرفون كيف يشيدون آلات الحصار . وثمة صعوبة أخرى تمثلت فى إحضار برج الحصار ، الذى كان ينقل علي عجلات أو جذوع الأشجار ، وتقريبه من السور بقدر الإمكان . وكان هذا يتطلب ملء الخنادق التى كان عرضها يتراوح بين ٤٥ و٦٠ قدما ، ويبلغ ستة وثلاثين قدما وتكويم الأحجار والأنقاض والأخشاب لملء أجزاء من الخندق . وقد كان هذا عملاً شاقاً مرهقاً . وكانت القوانين الصليبية فى المملكة تنص على أن الفارس ليس مضطرا للنزول عن فرسه حتى فى وقت الحصار . ثم كان هناك الخطر الدائم وهو الزمن وقد شهد على ذلك كتاب المدونات التاريخية ، وكان من الممكن للمحاصرين أن ينجحوا فى حرق البرج فى هجمة مفاجئة على قوات الحصار أو بإستخدام "النار الإغريقية" التى كانت مزيجا كيميائيا من الكبريت والراتنج وغيرهما من المواد القابلة للاشتعال من اختراع البيزنطيين . وكان هذا التركيب الكيميائى يوضع فى آنية فخارية ثم يشعل ويقذف ، أو يلصق بالبرج ويكون تأثيره قاتلاً ، وغالباً ما كان يستخدم فى المعارك البحرية حيث كان يحرق كلا من الشراع والسفينة ، كما أنه أثبت فعالية تامة فى معارك الحصار الأرضية. وفى بعض الأحيان لم تكن الآنية بسيطة بالقدر الذى يجعل المرء يسميها قنابل يدوية ، بل كانت براميل متفجرة كانت تقذف بواسطة المنجنيقات . ويجب أن نقرر ما كتبه جوانفيل عن تجربته فى مصر لكى يقدر الانطباع الذى كان هذا النوع من النابالم الذى عرفه عالم العصور الوسطى يتركه على الغربيين ، فهو يقول :

"كانت النار الأغريقية تبدو مثل برميل كبير من العصير ، وذيله المشتعل فى طول السيف الطويل ، وأثناء طيرانها يصدر عنها صوت كالرعد ، وتبدو كتنين طائر فى الهواء ويصدر عنها ضوء قوي بدرجة تجعلك ترى معسكرنا كما لو كان فى وضح النار" .

وكانت وسيلة حماية البرج الوحيدة ضد هذه النار هى الجلود الرطبة المأخوذة من الحيوانات المذبوحة حديثاً أو اللباد المبلل بالخل ، وان كان ذلك لايجدى كثيرا إذا ما طال الحصار .

وحين تعجز أبراج الحصار عن السيطرة على الحصون ، كان المسلمون والصليبيون يستخدمون أجهزة أخرى لأحداث نقب فى الأسوار . وأقدم هذه الأجهزة ، ولايزال يستخدم بتأثير فعال ، هو الكبش الذى استخدم لدك الأسوار ، وهو عبارة عن آلة ذات رأس حديدية مدببة وقطعة خشبية تشبه الصارى معلقة بسلاسل وموجهة إلى الأسوار ويدفعها عدة رجال . ولا يستطيع المحارب الواقع تحت الحصار حماية نفسه بدرعه لأن ذلك لايجدى نفعا ، كما أنه كان يعوق نشاطه . وفى مرحلة تالية تمت تغطية الكبش بنوع من البناء أو الغطاء الذى كان يراعى أن يكون قويا بحيث يقاوم الحجارة والسهام والقذائف الناريه التى يرميها الواقعون تحت الحصار . وكانت هذه الآلة الفعالة فى الحصار تشارك البرج أو "الناقوس" إحدى مساوئه الرئيسية ، إذ كان لايمكن المناورة به عبر الخنادق الكبيرة المحيطة بالحصون ما لم يتم ردم الخندق جزئياً أو كلياً .

وكانت هناك طريقة أخرى للحصار ، مأخوذة عن القدماء ، وهى استخدام قطع من القاذفات لقلقلة الأحجار فى الأسوار وفتح ثغرة ينفذ منها الجيش المهاجم . وكان من المعتقد أن هذا الأسلوب يرجع فى أصله إلى الفرس أو الأتراك ، على الرغم من أنه كان معروفاً لدى الجيوش الرومانية والبيزنطية ، وربما يكون دور الشرقيين قد اقتصر على تحسينه وتطويره . وكان هذا الأسلوب يلعب دوراً حاسماً فى الحصار ، وكانت المدفعية من نوعين أساساً ، كان أحدهما عبارة عن قوس عملاق يتم تشغيله بحبال متينة لطلق المقذوفات والتى غالباً ما كانت قطعا ملتهبة من المعادن ؛ وكان الآخر هو المنجنيق الذى يطلق الأحجار أو غيرها من المقذوفات من تركيبة تشبه الملعقة . وأخيراً كان هناك فن حفر الأنفاق ، أى استخدام الأنفار فى سلاح المهندسين لحفر الأنفاق تحت أسوار المدينة ، وإذا ماتم الوصول إلى نقطة أسفل الأسوار تحرق الدعامات الخشبية وينهار النفق فتنهار معه أجزاء من الأسوار .

وعلى الرغم من أن حصار القلاع والمدن والاستيلاء عليها كان يحدد فى النهاية مصير المملكة لأن فقدانها كان أشبه بسحب الأرض من تحت أقدام الصليبيين ، فإن المعارك التى كانت تدور على الأرض المفتوحة كانت هى أكثر الأحداث أهمية فى الحوليات العسكرية للملكة اللاتينية . وكانت المشاكل التى تواجهها الجيوش الصليبية مشاكل معقدة للغاية ، فلم

يكن على هذه الجيوش أن تتعامل مع خصم يتفوق عليها من ناحية العدد فحسب ، وإنما كانت تواجه الجيوش الإسلامية التى كانت تنتهج أسلوباً قتالياً مجهولاً تماماً فى الغرب المسيحى على الرغم من معرفة جيرانهم البيزنطيين له .

وكانت القوة الأساسية فى الجيش الصليبى تشكل من الخيالة الثقيلة التسليح . وكانت هذه الحقيقة نتيجة لتطور حدث فى الغرب انبثق عن النظرية العسكرية السائدة وعن الوسط الاجتماعى الذى تطورت النظرية فى رحابه فى آن واحد . وكان هذا التطور قائما على أساس التفرقة بين الصفوة العسكرية وبين صفوف العامة والأقنان . فالخيال الثقيل التسليح ، وهو من الفرسان عادة ، كان دائماً من أبناء الطبقة الأرستقراطية الحاكمة . وسواء كان سيدا أو تابعا إقطاعيا ، فإن حياته بأسرها كانت تتركز حول الحرب والقتال . وكان فرسه الذى كان قد تم عزله منذ زمن طويل عن حيوانات الزراعة ، يلقى تدريبا خاصا على حمولته الثقيله المكونة من الفارس ومعداته العسكرية . وربما كانت تستخدم خيول إضافية لنقل الفارس إلى ميدان المعركة ، بيد أنه كان ملزماً على الدوام بأن يمتطى صهوة جواد حرب فى المعركة . وكانت الخيول القوية السريعة تستخدم فى المواجهة المباشرة بين الخيالة .

هذه السمات الأساسية لم تكن راسخة تماماً على أية حال . فالفرسان والجيوش الصليبية ، التى كانت على اتصال دائم بكل من الجيوش الأوربية والجيوش الإسلامية ، قد خضعت لعملية من التعديل والتغيير اتضحت فى التكتيك وفى التغييرات الخاصة بمجال التسليح . فعلى مدى مايقرب من مائتى عام ، ظل الغرب يرسل زهرة فرسانه إلى المملكة اللاتينية ، وكانت هذه الإمدادات ذات تأثير فعال فى مواكبة التسليح الصليبى للتطورات الأوربية . وكان قرار الاسبتارية يفرض على الفرسان القادمين من أوربا إحضار خيولهم وأسلحتهم التى كانت تكلف هذا التنظيم مبالغ طائلة . وكان هذا القرار مفيداً فى تلك الفترة . ومن ناحية أخرى استعار الصليبيون من المسلمين بعض أساليبهم ، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون هذا أقل مما يتوقعه المرء .

فالتغيرات فى مجال التسليح لدى المسلمين ، إذا كانت قد حدثت أية تطورات على الإطلاق ، كانت على ما نعلم محدودة بالأجزاء الناعمة من لباس الحرب ، مثل الملابس الداخلية وطريقة تفصيل الثياب الخارجية (وعلى الأقل هذا ماحدث فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر تحت حكم المماليك) وكانت معداتهم العسكرية تعتمد على التقاليد المحلية،

ففتح مصر على يد صلاح الدين واستقدام قواته الكردية ، إلى جانب القوات التركية من سوريا ، ربما يكون قد ساعد على قدر أكبر من الاتساق فى المؤسسة العسكرية الإسلامية . ومع بروز قوة المماليك إبان حملة لويس التاسع على مصر صار التسليح المغولى هو السائد . وبعد ذلك بحوالى جيل ، حين استولى السلطان بيبرس المملوكى على سوريا وأعالى بلاد ما بين النهرين ، ودفع بالمغول إلى داخل المملكة الإيرانية توحد الزى والتسليح العسكرى فى مملكة المماليك ، بل لقد تحدد شكلها وأصبح ثابتا بحكم القانون .

وكانت الخوذة ، والدرع الكامل حول الجسد ، ودرع الذراع هى أهم القطع الدفاعية لدى كل من المسلمين والمسيحيين ، وفى المعكسر الصليبى ، تعرضت هذه القطع الثلاث لتغيرات منذ زمن الحملة الصليبية الأولى . فالدرع الجسدى الذى كان فى الأصل جامدا وغير مريح ، أصبح أكثر خفة ومرونة وأمانا فى نفس الوقت ، أما الدرع المسمى Broigne ، (وهو عبارة عن سترة علقت بها حراشف معدنية) فقد كان يلبس فوق سترة من الجلد أو القماش ويصل إلى أسفل ركبتى الفارس ، وغالباً ما كان يصل إلى كعبيه . وكان مفتوحا فى الجزء السفلى حتى يسمح بالركوب وكان يغطى جزءا من الساقين ، على الرغم من أن الفارس كان يرتدى أحيانا جوارب طويلة من نفس التركيبة لتغطية ساقية . وهذا الشكل من درع الجسد استبدل بما يسمى الهوبيرك hauberk وهو عبارة عن سترة من الزرد الذى كان أغلى كثيراً من سابقة ، إذ استبدلت الحراشف المعدنية بحلقات أو سلاسل متداخلة من الزرد وأصبحت مستقلة عن الملابس الداخلية . وغالباً ما كانت لهوبيرك ياقة وأكمام طويلة تنتهى بقفازات .

أما درع الجسد لدى المسلمين فقد كان أكثر خفة ومرونة . ففى زمن الحملة الصليبية الأولى كان المسلمون يرتدون سترة تسمى بالزردية كانت تكمله جوارب وأغطية للساقين ، وعلى الرغم من أن الزردية مثل الدرع الأوربى آنذاك ، غالباً ما كانت تصل إلى كعبى المحارب . وسترة الزرد ، التى طرأت عليها التحسينات بفضل فن البرشمة أو التثبيت بمسمار ، ظلت تستخدم حتى مطلع العصر الحديث . ولأنها كانت باهظة التكاليف ، كانت العائلات تتوارثها جيلا بعد جيل دون أى تغيير يذكر . وكان الدرع الخشبى ودرع الرقائق لدى المسلمين يختلف إلى حد ما عنه لدى الأوربيين ، ويبدو أنه موروث عن المغول والتتار الآسيويين ، فقد كانت كل قطعة فى هذا الدرع تثبت فى الثياب التى تحتها ، وغالباً ما كانت تزينه الصور أو الكلمات المقدسة، فكان يصلح للاحتفالات أكثر من الاستخدام العملى . وكان الدرع الخشبى يحمى الجسد تماماً،

ولكن لابد أنه كان يعوق الحركة مثل البروين broigne لاسيما بالنسبة للفارس . أما الرداء الأكثر راحة فكان عبارة عن سترة قصيرة من الزرد تعرف باسم بريجاندين Brigandine فى أوربا والقزاغند Kazaghand (القرقل فيما بعد) فى الشرق . وكانت هذه السترة تصنع إما من سلاسل الصلب أو المسامير المعدنية الصغيرة المثبتة فى بطانة من اللباد أو غيره ، وأحيانا من الثياب الملونة الغالية .

أما الخوذة لدى الصليبيين فقد طرأت عليها تغييرات كثيرة . إذ كان نمطها الشائع إبان الحملة الصليبية الأولى عبارة عن خوذة حديدية مخروطية الشكل بزوائد جلدية لكى تغطى الرقبة ، وغالبا ما كانت لها قطعة أمامية لحماية الوجه . وبينما أصبح درع الجسد أكثر قوة ولكن أكثر لينا ، تطورت الخوذة فى اتجاهين مختلفين : فمن ناحية اتخذت شكل غطاء رأس صغيرة من الحديد بحافة سميت باسم Chapeau de fer ؛ ومن ناحية أخرى أصبحت خوذة ضخمة لها قمة كبيرة مسطحة أو دائرية وثقيلة للغاية وتغطى الأذنين والرقبة وتستقر على الكتفين . واستبدلت قطعة الأنف بقناع به فتحات للتنفس . وكان غطاء الرأس الحديدى ، مثل الخوذة ، يلبس فوق قلنسوة من الزرد تتصل بالهوبيرك .

أما الخوذة الإسلامية فلم تتغير كثيراً خلال فترة الحروب الصليبية . وكان شكلها الأساسى يشبه البيضة المستطيلة ومن ثم أطلق عليها اسم "البيضة" وكانت هذه الخوذة علامة على المكانة العالية عند المسلمين وغالبا ما كانت تزين وترصع بكتابات من القرآن . وكان لبعض هذه الخوذات قطع للأنف وأغطية للرقبة على هيئة الجمل ، ولكنهم لم يبتكروا قناعاً للوجه مثل القناع الأوربى . وفى بعض الأحوال كانت سلاسل الزرد تستخدم لتغطية الوجه ولكن هذا كان يمثل استثناء إلى حد ما ويبدو أن الريش أو الأعراف كانت إضافة متأخرة .

وقد خضع الدرع اليدوى الصليبى لأكثر التغييرات عمقاً وجذرية . فخلال الحملة الأولى ، كان عبارة عن قطعة كبيرة صلبة من الخشب المغطى بالجلد أو الخشب بالروابط الحديدية التى تنبثق كالأشعة من نقطة مركزية . وكان على شكل الحدأة ، مستدير عند أعلاه ويغطى المحارب من رقبته حتى قدميه . ولاشك أن الدرع كان أكثر عملية فى القتال على الأقدام منه على ظهور الخيل ، حيث كان يعلق فى الأكتاف بحزام جلدى ، وقد كان ذلك مربكاً للمحارب ولكنه مفيد طالما أن الدرع الجسدى كان غير كاف . وفى حالة إحكام الدرع الجسدى ، أصبح الدرع الطويل لاجدوى منه واستبدل بدرع دائرى أو مثلث صغير الحجم يغطى صدر وبطن

الفارس . أما الدرع الإسلامى فكان يختلف منذ البداية . فحينما كان مقاتلو الحملة الصليبية الأولى مايزالون يحملون دروعهم الكبيرة ، كانت الخيالة الإسلامية تستخدم درعا خفيفا مستدير الشكل يسمى الترس . وكان من المعتاد ان يشبك بحزام أفقى من الداخل وكان من السهل استخدامه . وكانت هذه الدروع تختلف تمام الاختلاف عن دروع الصليبيين بحيث صارت من ملامح التصور الغربى التقليدى للمقاتلين المسلمين .

والأدوات الثلاث الرئيسية للدفاع عن الجسد - الخوذة والدرع والترس - أضيف إليها مع الوقت سترة خارجية وهى عبارة عن قميص أبيض بلا أكمام يلبس فوق الدرع الجسدى . وفى وقت ما قرب نهاية القرن الثانى عشر ، صارت السترة والدرع وغطاء الرأس ، فى أغلب الأحوال ، تحمل العلامات المميزة للفارس . وكان هذا ميلادا لفن الدروع وعلاماتها لدى كل من المسلمين والصليبيين . وهو الفن الذى استمر فى الوجود بشكل أو بآخر حتى وقتنا هذا . فالرسوم الهندسية ، والزهور ، والوحوش وما شابه ذلك توضع على السترة ، والدرع والبيارق. ومصطلحات "شعار النبالة" ودرع النبالة مستمدة من السترة الخارجية والدرع اللذين كانت ترسم عليهما العلامات المميزة للسلاح . ويبدو أن شعار النبالة كان يستخدم فى الأصل لتسهيل التعرف على الفارس المدرع ، ولكنه تطور إلى شعار عسكرى للعائلة النبيلة . وقد أصبح فن الدروع العسكرية فنا تعليميا وكانت الشعارات العسكرية إعلاناً عن الأصل وتذكرة دخول فى طبقة النبلاء . ولم يقتصر هذا الفن على أوربا على أية حال ، فقد ظهر بين المسلمين فى القرن الثانى عشر وصار شائعاً تماماً بين أفراد الأرستقراطية الملوكية الحاكمة . وغالبا ما كان يرتبط بالوظائف التى يقومون بأدائها فى القرن الثالث عشر . وفى ذلك الوقت ، أضاف فن رسم الشعارات النبيلة الألوان والتصميمات إلى جيوش الغرب والشرق ، وأصبح المظهر العسكرى نموذجاً مألوفا يتضح فى البيارق التى كانت ترفرف على الحراب ، والسترة الخارجية وعلى كسوة الحصان .

وكانت الأسلحة الهجومية لدى كل من المسلمين والصليبيين متماثلة . باستثناء القوس الذى كان يستخدمه الفرسان المسلمون . وكان الرمح أكثر شيوعاً لدى المحاربين المسلمين ، وكان يستخدم كسلاح للطعن وإن كان يستخدم فى القذف كذلك . وقد استخدم المسلمون ، وربما الصليبيون كذلك ، رمحاً طويلاً مركباً فى بعض الأحيان . أما السيف ذو الحدين والمقبض المستدير أو المفرطح ، فكان يوضع فى جراب جلدى يعلق فى الرقبة والكتف . ولكنه صار

يعلق فى الوسط فى مرحلة لاحقة . وكان السيف التقليدى مستقيماً ، ولكن بعض أسلحة المسلمين كانت مقوسة . أما السيف الأحدب ذو الحد الواحد ، والذى صار فيما بعد سلاحاً شرقياً نمطياً فلم يظهر إلا بعد الحروب الصليبية . وكان الجراب الخشبى الذى يستخدمه المسلمون يغطى بالجلد أو القماش الفاخر ، على حين كان السيف ذاته يزين ويحلى بالمجوهرات. ومن الغريب تماماً ، على الرغم من شهرة السيوف الدمشقية ، أن السيوف الإسلامية الممتازة كانت مجلوبة أصلا من الهند أو الصين . وكان تعبير "دمشقى" ينطبق فى الواقع على الزخرفة وتزيين السيف بالجواهر ، وهو ما كان يتم فى سوريا وليس النصل المعدنى نفسه (الحديد والصلب أو السيف الحديدى المحفوف بالصلب) .

أما الدبوس ، فكان يصنع من الحديد أو الصلب ، ويستخدمه المقاتل المسلم والمقاتل الصليبى على حد سواء . وهو عبارة عن قطعة سلاح كروية الشكل بها نتوءات وتجاويف ، وكانت تستخدم لسحق الخوذات أو كسر العظام . أما البلطة المسماة بالبلطة الدنماركية ، وهى بلطة ذات حدين فقد كان يستخدمها الصليبيون ، ولم يعرفها المسلمون الذين كانوا يفضلون استخدام "الطبر" وهو عبارة عن بلطة ذات حد واحد وعلى شكل نصف دائرة . وكان للقوس والقوس المنجنيقى مكانة فى ترسانة الأسلحة الإسلامية واشتهرت دمشق بصناعة الأقواس الجيدة وقد ذهب إليها حنا الأرمنى الذى كان مدير المراسم للملك لويس التاسع لكى يشترى الغراء والقرون من أجل صناعة الأقواس المنجنيقية .

ولم يكن التغيير الذى طرأ على التكتيك العسكرى لدى الصليبيين أو حتى التعديلات اللازمة لمواجهة الجيوش الشرقية ، نتيجة للصدام مع القوة العسكرية المصرية - التى كانت أقوى خصم فى الشرق - وإنما كان نتيجة للصدام مع الجيوش السورية وجيوش ما بين النهرين. إذ لم يكن المصريون أبداً أمة عسكرية . ومنذ القرن الثانى عشر حتى الغزو التركى العثمانى لمصر ، كان كل أوربى يزور مصر يخرج بانطباع عن طبيعتها المسالمة . وقبل الفاطميين بوقت طويل ، كان حكام مصر يجندون قواتهم المحاربة الرئيسية من بين القبائل البدوية فى المقاطعات الشرقية وشبه جزيرة سيناء . وكانت بعض القبائل مثل بنى كنانة لهم شهرة ذائعة لمهاراتهم القتالية وشجاعتهم ، واستخدمهم الحكام المصريون للدفاع عن حدود مصر الشرقية . ومن الغريب أن الصليبيين الذين اعتادوا على قتال البدو ؛ بل ونجحوا فى تحويل بعضهم إلى حلفاء (حول عسقلان وغزة على حدود صحراء سيناء وفيما وراء نهر الأردن عند مدخل شبه

جزيرة العرب) كانت فكرتهم قليلة عن صفاتهم العسكرية والأخلاقية . فقد كان البدو يعتبرون أدلاء ممتازين وقوات مساعدة ، ولكن حين يشتعل القتال فإنهم لم يكونوا يصمدون أمام الأسلحة الغربية . وكان الصليبيون يعتقدون أنهم جبناء لايعتمد عليهم ينضمون إلى الجانب الرابح فى اللحظات الأخيرة لكى يساهموا فى القتل وينالوا نصيبهم فى نصر لايستحقونه . وبالإضافة إلى قواتهم المحلية ، كان حكام مصر يعتمدون على القوات المرتزقة إلى حد كبير ، أو على الجماعات العسكرية من العبيد الصغار الذين اعتنقوا الإسلام وتدربوا منذ الشباب على المهارات العسكرية ، وكان أولئك هم أسلاف المماليك ، الذين استولوا فى النهاية على المملكة المصرية من أيدى خلفاء صلاح الدين الضعاف (١٢٥٠م) ، كما أنهم أيضا كانوا أسلاف جيوش الانكشارية القوية . وكانت مثل هذه الفرق تجلب من داخل أفريقيا ويجلب الرقيق الأبيض من مناطق البحر الأسود . وكان الأفارقة يعرفون بأسم العبيد ، وغالبيتهم من أصل سودانى (السودان اسم مشتق من الكلمة العربية سواد) على حين كان يطلق على العبيد البيض اسم المماليك .

وقد واجه الصليبيون القوات المصرية برماة السهام الرجالة والفرسان من حملة السلاح الخفيف . ولم يكن أى من هذين النمطين من الجنود جديداً على الصليبيين ، على الرغم من أنه عند نهاية القرن الحادى عشر كان رماة السهام الرجالة قد فقدوا أهميتهم في فن القتال الغربى. وكانت الخيالة الخفيفة عند المصريين أكثر حركة منها لدى الصليبيين ، ولكن عند القتال المتلاحم قلما كسب المصريون معركة، ما لم يكن عددهم ساحقا فى كثرته ، أو يقوموا بهجمة ناجحة أو يحتلون موقعا يجعل لهم ميزة واضحة . وعادة ما كانت القوة المركزية فى جيش الخليفة أو وزيره (نادراً ما كان الخلفاء الفاطميون يتركون قصورهم وحريمهم) تتكون من قوات ذات أصول مملوكية . وكانت هذه القوات تتفوق فى مهاراتها القتالية ، وعادة ما كانت تدين بالولاء لقائدها . وغالبا ما كانت المعركة تحسم بهذه القوات المختارة ، إذأن فرارها أو نجاحها كان يؤثر بشكل مباشر على بقية فيالق الجيش المصرى .

وكان الموقف مختلفاً تماماً وعلى النقيض من ذلك بالنسبة لجيوش ما بين النهرين وسوريا وفارس ، التى كانت تشترك أحيانا فى القتال ضد الصليبيين . فبالإضافة إلى القبائل العربية التى كانت تقطن ربوع بلاد ما بين النهرين وسوريا وحاميات المدن المحلية ، كان العسكر ، وهم القوة الأساسية لهذه الجيوش ، من الأتراك السلاجقة . وعلى الرغم أن أكثر من مائة سنة كانت قد مضت على تركهم لموطنهم فى وسط آسيا بحثا عن حياة أفضل فى الشرق الأدنى

فإن هؤلاء البدو لم ينسوا أبداً أساليبهم التقليدية فى القتال ، وكان العنصر الرئيسى فى هذا الأسلوب القتالى a la turque هو رامى السهام الراكب ، وهو نمط من القتال قديم ، بل وورد وصفه فى الكتاب المقدس : "هكذا قال الرب . هو ذا شعب قادم من أرض الشمال وأمة عظيمة تقوم من أقاصى الأرض . تمسك القوس والرمح . هى قاسية لاترحم . صوتها كالبحر يعج . وعلى خيل تركب مصطفة لمحاربتك" (ارميا ٦:٢٢-٢٣) . وكان الأتراك بتجهيزاتهم الخفيفة وخيولهم السريعة القوية يمثلون التحدى الحقيقى أمام الجيوش الصليبية ، فلم يكونوا أكثر حركة من خيالة الغرب الثقيلة فحسب ، ولكن مفهومهم عن الحرب والقتال كان مختلفا .

وكانت قوة الجيوش الصليبية تكمن فى خيالتهم الثقيلة ، التى كانت مهمتها القضاء على أى شىء فى طريقها . وكانت صدمة قوتها والتأثير الذى يتركه الفرسان المدرعون بالحديد لايمكن مقاومتهما . وغالبا ما كانت نتيجة المعركة تتحدد خلال المواجهة الأولى ، ما لم يستطع الخصم أن يدفع بتعزيزات جديدة أو تقوم أجنحة جيشه بالإطباق على الجيش المهاجم ومهاجمته . ولكن الخصم التركى كان يفتقر إلى التعاون ونادرا ما اتفق على معركة خاطفة وكون جبهة مغلقة لكى يدمرها الصليبيون . ولم يكن الأتراك خفيفى الحركة فحسب ، ولكنهم أحضروا معهم من برارى منغوليا القوس القاتل . ولم يكن الأتراك يلتحمون فى قتال مباشر ولكنهم يطلقون وابلا من السهام من مسافة تقرب من ثمانين متراً حيث لاتستطيع أسلحة الصليبيين الوصول إليهم . ولم تكن السهام لتخطىء تلك الجمهرة الكبيرة من الفرسان المتجمعين سويا . وكان الصليبيون فى وضع ثابت كالبط الراقد ، وكانت محاولة الهجوم على جيش إسلامى أشبه ما تكون بمطاردة الريح ، ذلك أن هذا الجيش كان يختفى ببساطة وراء خط الأفق . ولم يكن الموقف أفضل إذا ماتحرك الجيش الصليبى . فبين الآونة والأخرى ، كان الخيالة المسلمون يظهرون وكأنما انشقت عنهم الأرض ويدورون حول الجيش الصليبى المتحرك ويطلقون عليه سهامهم ، ثم يختفون ليظهروا مرة أخرى بعد وقت قصير وقد امتلأت جعابهم بالسهام من جديد .

وفى هذه الظروف كانت سلامة الفارس الصليبى تعتمد على درعه وخوذته وترسه . فلم تكن السهام لتخترق خوذته أو ترسه بسهولة . كما لم تكن تنفذ خلال درعه المكون من السلاسل ببساطة ما لم تضرب فى نقطة ضعيفة مثل الرقبة أو الوجه . بيد أن التغييرات التى أدخلت على الدرع الجسدى وعلى الخوذة سرعان ماجعلت هذه الأهداف صعبة إلى حد ما . إلا

أن هذا لم يمنع المسلمين من قذف الخيول من أسفل الفرسان . فالفارس المترجل لايكون فارسا على الإطلاق . إذ لا يكون كبرياؤه قد جرح فحسب ، ولكن فعاليته القتالية أيضا تتضاءل إلى لا شيء .

وسرعان ما استجاب الصليبيون للتحدى الإسلامى بانتهاج أسلوب الأتراك فى القتال بشكل جزئى . ولم يكن هذا بالأمر السهل ، فالصليبيون الذين لم يتميزوا بالمرونة فى أساليبهم عولوا على الموهبة المحلية وكونوا فرقا من السكان المحليين أطلقوا عليهم اسم التركوبلى Turcoples (أى أبناء الأتراك) الذين كانوا يقلدون الأتراك السلاجقة فى تسليحهم وأسلوب القتال عندهم. فالخيول السريعة والأسلحة الخفيفة وجعبة السهام والقوس كانت أهم ما يميزهم . وربما جندوا فيما بعد من السكان الصليبيين أى البولان . ولم تكن هذه القوات تحارب فى المعارك الصليبية الحقيقية ، ولكنها كانت تلقى تقديرا أكثر كوحدات إضافية احتياطية مساعدة ، على الرغم من أن مهمتها الرئيسية كانت دفع الهجمات المفاجئة التى يشنها الأتراك السلاجقة ومنعهم من الإفادة بميزة القوس والسهم . كذلك كانت لفرق الرهبنة العسكرية فيالقها الخاصة من التركوبلى وكان هناك ضابط خاص مسؤول عن تجنيدهم وقيادتهم .

وإلى جانب النجاح الذى يمكن أن يكون قد حققه استخدام فيالق التركوبلى فإن الصليبيين استجابوا للتحدى التركى عن طريق ابتكار طريقة جديدة للقتال تقوم على رد الاعتبار لرامى السهام العادى . وقبل مائتى سنة من حسم أقواس الويلزيين الطويلة المعارك لصالحهم فى مواجهة الفرسان الفرنسيين ، كان الصليبيون قد جعلوا من رماة السهام الراجلين جزءاً أساسياً فى جيوشهم . وبينما كان القوس والسهم فى أوربا القرن الثانى عشر يرتبطان بالصيد أو يتركان لاستخدام العامة كطريقة قتال مستهجنة إلى حد ما ، أنشأ الصليبيون فيالق من رماة السهام لجيوشهم . وقد صار الرماة هم طليعة الجيوش فى المواجهة بتجهيزاتهم الخفيفة التى تشتمل على غطاء الرأس الخشبى أو الجلدى ، وصيرى ، ودرع خشبى والقوس ، والسهام . وكان المشاة الذين يحيطون بفيالق الفرسان من الأمام والجانبين والخلف مسؤولين عن إبقاء العدو على مسافة معقولة ، ومنع الرماة الراكبين السلاجقة من استخدام أسلحتهم على نحو فعال. وفى المعارك الكبيرة كانوا يقومون بدور الحائط الواقعى الذى يتجمع الفرسان داخله حتى يحين الوقت المناسب ويصبح الوضع مناسبا للقتال . وإذا ما أطلقوا سهامهم ، أفسحوا

الطريق أمام الفرسان الثقيلة التسليح من الصليبيين لكى يتحركوا ضد العدو . وكان الرماة يجندون من بين سكان المدن والمؤسسات الكنسية أى من الفرنجة دون مستوى النبلاء . وعادة ما كانت المدن والمؤسسات الكنسية تضطلع بواجب تجهيز فيالق الرماة للجيوش وكان أولئك هم الجنود المشاة الذين كان بعضهم يقوم بالقتال أيضا ضمن الخيالة الخفيفة .

وكان استخدام الرماة المشاة ، سواء أثناء السير أو فى خضم المعركة ، يعتمد على وجود نظام محكم بين مختلف التشكيلات . وكانت هذه مشكلة صعبة تجابة كل الجيوش فى العصور الوسطى والتى كانت تتألف من النبلاء الذين يصعب قيادتهم . فالشباب الذين تستحوذ عليهم الرغبة فى إثبات وجودهم والصعود إلى المجد أمام أقرانهم لم يكن من السهل أبدا السيطرة عليهم . بل إن المشكلة كانت أكثر صعوبة فى الجيوش الصليبية ، لأن معدل السير ولحظة الهجوم كانت مرهونة إلى حد كبير بالرماة وحاملى الحراب بخطواتهم الوئيدة . وكان هذا يعوق حركة الفرسان ، وفى مواجهة العدو لم يكن من السهل كبح جماح حماسة المقاتلين العسكرية ، لاسيما أولئك الذين تجشموا عناء الطريق الطويل من أوربا لمحاربة الكفار . ومع ذلك فقد كان هناك نظام يحتم عدم اختراق صفوف النبالة وعليه كانت تتوقف سلامة الجيش بأسره .

وسرعان ما اكتشف العدو نقطة الضعف فى التشكيلات الصليبية . وبقدر الإمكان ، كان المسلمون يتحاشون أية مواجهة مباشرة مع الصليبيين ، لأن ذلك كان يعنى أن تكتسحهم الخيالة المدرعة الثقيلة . وكان هذا يعنى تجنب المعارك فى السهول المفتوحة ، والتى كانت تسمح باستخدام الخيالة المدرعة بشكل فعال ، وكان المسلمون يفضلون الأرض التلية والجبلية أو الأغوار لما توفره لهم من ميزات . ومن ناحية أخرى كانوا يناورون لضرب الأجنحة وفصل النبالة المشاة من فرسان الصليبيين . وإذا ما تم الفصل بينهما كان الفارس الصليبى يتجرد من حماية الرماة وبذلك يصبح هدفا لسهام الخيالة الأتراك . وقد وعى المسلمون هذا الدرس تماماً ، وكانت هذه المناورة هى السبب الرئيسى فى هزيمة الجيوش الصليبية فى معركة حطين الفاصلة .

مغامرة التجارة والعالم المتنامى

"إذا كان هناك من يقصد الرسو فى مدينة عكا السالفة الذكر ، دعه يبحر على مسافة ثلاثة أميال من كنيسة سان أندرو بسبب الصخور القريبة من سطح الماء والتى عند مرتفع تلك الكنيسة . ثم ليبحر بعد ذلك مباشرة حتى يرى ما وراء "برج الذباب" الذى كان يوما مقرا لرئيس الشرطة . ثم يستطيع بعد ذلك أن يدلف إلى الميناء . وحين يدخل الميناء المذكور فليجر من هناك بطريقة تجعل قلعة حيفا أو بورفوريا Porphyria تبقى فى منتصف مؤخر السفينة وتجعل "برج الذباب" فى منتصف مقدم السفينة طوال الوقت وإذا ما حافظ على هذه الاتجاهات يمكنه أن يبحر فى سلام داخل الميناء" .

كانت هذه هى التعليمات التى تضمنها دليل ملاحى يرجع إلى القرن الثالث عشر لإرشاد السفن التى تقترب من شاطىء البحر المتوسط الشرقى . وفى اللحظة التى تظهر فيها إحدى السفن على خط الأفق فى نهاية رحلتها ، التى كانت تستغرق ثلاثة أسابيع من إيطاليا حتى هذا المكان ، يرسل حراس البرج أو حراس القلعة إشارات إلى رؤسائهم، وتبدأ أجراس الكنائس فى الدق ، ويشق ممثلو مواطنى السفينة وجمع غفير من سكان المدينة طريقهم إلى منطقة الميناء. وكانت الألوان الحية التى كان قباطنة السفن فى العصور الوسطى يفضلون طلاء سفنهم بها ، تتوج بصاريات تخفق عليها أعلام القديس مرقص ، أو القدس بطرس أو القديس لورانس؛ وهم القديسون الرعاة الروحيون للبحرية الإيطالية ، وذلك إلى جانب البيارق التى تحمل الصليب الأحمر الذى كان يعلن عن عقيدة الصليبيين وعن الامتيازات التجارية فى نفس الوقت . وكان يوم وصول السفينة أو الأسطول البحرى ، وهو ما كان يحدث عادة ، يوم عيد بالنسبة لأصحاب الحانات والفنادق والتجار وكل من عداهم فى المدينة . فالحجاج والأقارب ، ورجال الأعمال الذين يحملون الأنباء من الوطن سرعان ما كانوا يتركون السفينة إلى ميناء المدينة الداخلى .

ولا تلبث الصفقات التجارية أن تعقد وتتحدد مواعيد المقابلات ، وتتداول الأيدى صكوك التبادل ، وصكوك القروض - جميع لوازم التجارة - وتسرى الحركة فى الشرايين التجارية فى المدينة . وغالبا ما كان فى وسع المرء أن يرى عددا قد يصل إلى مائة سفينة فى موانىء صور وعكا وفى ميناء يافا الصخرى الخطر . وكانت السفن الأكبر حجما تستطيع أن تحمل ألفا من التجار والحجاج ، فضلا عن حوالى خمسمائة طن من البضائع .

وكانت البضائع التجارية تفرغ على السلالم الخشبية أو ألواح الخشب المحمولة على ظهور الحمالين ، الذين كانوا فى الغالب من الأوربى - آسيويين الذين كانوا يعرفون باسم بولان الميناء Poulain of the Port لكى توضع على الأرصفة المزدحمة فى منطقة الميناء الضيقة جدا. وكانت هذه المنطقة تتميز برائحة كريهة نفاذة تفوح فى أرجائها ، لأن الساحل كان المكان الطبيعى لتصريف فضلات وبقايا المدينة والمذابح والدباغين والصباغين الذين كانوا يسكنون المنطقة . وإذا ما تم تفريغ بضائعهم ، كان التجار يؤدون عليها الرسوم المعتادة فى شرق البحر المتوسط بعد مساومات مع سلطات الجمارك . ولم يكن هناك شىء يتفوق فى التعقيد والفوضى على الرسوم الجمركية فى العصور الوسطى ، لاسيما فى الموانىء الصليبية . فلم تكن الرسوم تختلف فقط حسب نوع البضاعة ، وإنما كانت هناك رسوم مختلفة وفقا لأماكن جلب البضائع وجنسية سفينة التاجر . فقد كان على نفس البضائع المنقولة على السفينة نفسها أن تخضع لرسوم جمركية تتراوح ما بين ٢٪ إلى ١٥٪ حسب جنسية السفينة وجنسية مالكها.

وحيثما توجد الرسوم الجمركية ، توجد محاولات التهريب والشهادات الزائفة بقيمة البضاعة ، فضلا عن الشهادات المزيفة الخاصة بالهوية والجنسية التى يتبعها التاجر ، وغالباً ما كان تمييز هذه الأمور متروكا للتخمين الذكى : وغالبا ما كانت رشوة موظفى الميناء تدفع من أجل الحصول على إعفاء من الضرائب . فقد كان أهم التزامات المسؤولين عن الكوميونات أن يضمنوا أن مواطنيهم المحترمين - البنادقة والجنوية وأهل بيزا وغيرهم - سيتمتعون بامتيازات الإعفاء . ومع ذلك ، فإن التجار الوافدين من تسكانيا غالبا ما كانوا يعلنون أنهم من بيزا أو كتلان أو من مواطنى برشلونه لكى يستفيدوا من إعفاءات الكوميون الذى يدعون الانتماء إليه . وعلى الرغم من صرامة الإجراءات ، إلا أنها كانت صعبة التنفيذ .

وإذا ما انتهت المساومة على الرسوم الجمركية ، يشق التاجر ببضاعته طريقة إلى الفنادق ، التى كانت تقابل الخانات ، لدى الصليبيين والوكالات الشرقية فى المدينة . وكانت هذه الفنادق تبنى بالقرب من الميناء على قدر الإمكان . وكما يحدث فى أى مكان أخر ، كانت منطقة الميناء هى "الحى الأحمر" فى المدينة ، على الرغم من أن محترفات الدعارة كن يتواجدن حتى فى الفنادق ذات الحراسة الجيدة للكوميونات ، بل وحتى فى المنازل التى كان يؤجرها رجال الدين (بسبب الإيجار الباهظ) على الرغم من التأنيب والتوبيخ الذى كان يوجهه إليهم

بابا روما . وكان السوق المربع أو الشارع الطويل الضيق ، الذى تقوم على جانبيه البيوت المتعددة الطوابق ، وبه المحلات والحوانيت فى الطابق الأرضى ، والمساكن فى الأدوار العليا ، بمثابة قلب مؤسسة الكوميون . وكانت الكوميونات بمثابة مدن داخل المدن . فقد كان لها كنائسها الخاصة ، ومخابزها وحماماتها . كما وجدت الاصطبلات للخيول والبغال والجمال وأماكن السقاية (الأسبلة ، جمع سبيل) لشرب الإنسان والحيوان .

وكان أكبر مبنى ، يتألف من ثلاثة أدوار أو أربعة ، هو القصر Palazzo ومحل إقامة الفسكونت أو قنصل الكوميون . وكان هذا المبنى أيضا مقر المجلس الاستشارى حيث تقام العدالة وفقا لقوانين البندقية أو جنوة ، أو بيزا أو أمالفى أو مارسيليا أو برشلونة . وكان علم الكوميون يرفع فوق القصر ليعلن استقلاله السياسى والقضائى . وكانت بعض القصور مجهزة بدهاليز مظلمة يحبس فيها المساجين أو يعدمون فى بعض الأحيان .

وعلى الرغم من أن بعض الأحياء التجارية كانت لها أسواق الطعام الخاصة بها ، فإن المركز التجارى الكبير ، أو مكان السوق كان يخضع لسيد المدينة . ففى مدينة كبيرة كمدينة بيت المقدس، كانت هناك أسواق متخصصة فى بضائع بعينها . وكانت الرسوم الجمركية تدفع على الطعام الوارد إلى المدينة عند بواباتها ، فى برج داود ، ولكن ثمة رسوم إضافية كان يدفعها البائع والمشترى وهما يتفاوضان بشأن صفقتهما . فالمقاييس والأوزان والمكاييل السائلة والجافة كانت تتقرر مقابل رسم معين من قبل موظفى السوق الذين كانوا يخضعون لإشراف المحتسب . أما سوق الغلال التى كان الإنسان ودوابه وربما ماشيته يتعيشون منها ، فكانت مكانا فسيحا حيث القمح والشعير والشوفان وغيرها مما يقدمه الفلاحون المسلمون والمسيحيون الشرقيون . وفى بيت المقدس كان سوق الغلال بالقرب من بوابة يافا بجوار سوق لحم الخنزير ، على حين كانت الماشية واللحوم تباع بالقرب من منطقة الهيكل . ومن المؤكد تماما أن الجزارين والدباغين قد استقروا فى هذه المكان لكى يكونوا بالقرب من مصادر إمدادهم ، وليكونوا فى نفس الوقت قرب المصرف الطبيعى للمدينة وهو وادى يوشافاط ، حيث كانوا يصبون فيه المياه القذرة ، والسوائل المستخدمة فى تجارتهم .

وقد كانت كل مدينة تفخر بأسواقها . وكانت أسواق القدس وعكا وصور عبارة عن أبنية عالية ذات قباب حيث تقسم بمختلف البضائع على منطقة الحوانيت . وكان التاجر والصانع يعرض بضاعته فى الأبواب المفتوحة على الشارع حيث حشود المشترين رائحة غادية وكانت الأسقف ذات القباب ، أو المظلات القماشية فوق الشارع تحمى رواد السوق من الشمس والمطر

ولكنها تضفى على السوق جوا معتما . وحوار المساومة والنقاش فى كل لغة تحت الشمس وروائح التوابل المتضوعة كانت تختلط بالروائح الكريهة النفاذة التى تفوح من المطاعم المفتوحة. وكانت هذه من سمات المدن الصليبية . وكانت هذه المطاعم المقامة فى الشوارع ، على الرغم من أصلها الشرقى ، قد برهنت على كونها ذات فائدة عملية للغاية فى أماكن يفد إليها الحجاج باستمرار ، أى أنها كانت تفى بحاجات بلد كانت نسبة كبيرة من سكانه (فى البداية على الأقل) من العزاب غير المتزوجين .

وفى جميع المدن الكبرى تقريبا كان يوجد شارع أو منطقة مخصصة للصرافين بالقرب من الأسواق . وكانت الصيرفة مهنة ترتبط بالمدن . إلا أنها فى الأرض المقدسة كانت ضرورة يومية بسبب سيل الصليبيين والحجاج والتجار الوافدين من شتى أنحاء أوربا . وفى المصرف بطاولاته التى اتخذت شكل الصف كان يتم تبادل العملات الأوربية بالعملة المحلية والتعامل بمختلف النقود وأصنافها التى لاتحصى والتى سكت فى مئات دور سك النقود الأوربية ، وكان يتم تثمين قيمتها الأساسية كمعدن ، ثم تحويلها إلى عمله محلية . وكان على المرء أن يتذكر أن العملة الأوربية- الفرنسية على سبيل المثال - كانت تخضع دائما للتخفيض من قبل الحكومة (هذا هو المرادف الوسيط لعملية تخفيض سعر العملة) أو التزييف من قبل التجار المحليين . وغنى عن القول أن كثيرا من الحجاج كانوا يشعرون بأنهم قد خدعوا فى عملية الاستبدال .

وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الصيارفة كان عليهم أن يتعاملوا بالعملات الموجودة فى الشرق الأدنى إلى جانب عملات أوربا . وكانت العملة الرئيسية فى البلاد قبل الغزو الصليبى هى العملة المصرية أى الدينار الذهبى والدرهم الفضى الفاطميين . وكانت هذه العملات تختلط ، لاسيما فى المدن البحرية ، بعملات سوريا ، وبلاد ما بين النهرين ، بل وعملات فارس . وكانت كميات من مثل هذه العملات ، إن لم تكن مدخرة ،ترد إلى دور السك الخاصة بالنقود الفرنجية من خلال الضرائب ، بيد أنها ظلت متداولة بعد الغزو . وقد حاولت دور سك النقود الفرنجية أن تقلد ، بطريقة ساذجة وفجة ، العملة الإسلامية أيضا . وبالتالى ، فإن تبادل العملات الإسلامية والفرنجية كان يحدث يوميا حتى فى الأعمال العادية . ومن ناحية أخرى ، لم تكن العلاقات التجارية مع البلاد الإسلامية المجاورة مقطوعة انقطاعاً كلياً ، حتى فى أوقات الحرب والحصار . وكانت هذه العلاقات تنتعش وتزدهر إبان أوقات السلم .

هذا الموقف ، مثل التجارة البحرية مع شمال أفريقيا ، جعل العملات الإسلامية محلاً للتداول. وقد نضيف إليها العملة المجلوبة مع الحجاج من المسيحيين الشرقيين ومع المسلمين واليهود . وهكذا فإن الصيرفى الصليبى كان بمثابة الوسيط بين العملات الأوربية وغير الأوربية . ولكى يعالج الصيارفة مشاكلهم على نحو فعال ، فإنهم كانوا يميلون إلى التخصص . ففى بيت المقدس مثلا ، كان الصيارفة الفرنجة يحتلون شارعا ، على حين كان نظراؤهم فى الجانب الآخر هم الصيارفة السوريون وهم من المسيحيين الشرقيين الذين يحتمل أنهم تخصصوا فى العملات الشرقية .

ومع مرور الوقت ، ضرب الصليبيون عملاتهم الذهبية والفضية والنحاسية . وكانت العملة الذهبية الصليبية تسمى Denarius وهو ما يذكرنا بأن أول العملات الذهبية التى عرفها الأوربيون كانت بيزنطية ، حيث إن العملات الذهبية التى كانت متداولة فى مستعمراتهم كانت عملات الدول الإسلامية المجاورة . وسرعان ما أخذ الصليبيون بعدها يقلدون الدينار والدرهم الإسلاميين . وبمرور الزمن تحسن التقليد الساذج الذى عرفته العملات الباكرة ، بيد أن خاصية العملات الصليبية ظلت دون مستوى العملات البيزنطية والإسلامية من حيث الوزن والسبيكة خصوصاً . وليس من المؤكد ما إذا كان طراز العملة الصليبية يخفى عن أى تاجر محترف قيمتها الحقيقية ، ولكنها مع ذلك كانت تقبل فى التجارة العالمية فى حوض البحر المتوسط . وعلاوة على ذلك ، فإن العملات الصليبية فى سوريا صارت هى العملة المعول عليها فى معاملات سكان البلاد . وفى الوقت نفسه ، كان الصليبيون يسكون عملاتهم الخاصة من الفضة والنحاس على نمط العملة الفرنسية المعاصرة لها . فإلى جانب إسم الملك الحاكم الذى كان يكتب على الإطار ، والصليب المنقوش فى الوسط ، كانت مثل هذه العملات تحمل على الوجه الآخر صورة برج داوود أو صورة الملك الحاكم . وكانت أغرب العملات الصليبية طرافة هى تلك التى سكت بعد منتصف القرن الثالث عشر وعليها كتابة عربية بمجد الثالوث المقدس! لقد كان ذلك حلاً عملياً يسمح لدار سك النقود المسيحية أن تعلن عن عقيدتها دون حنث أو عبث بالمقدسات ، وأن تستفيد فى الوقت ذاته من السوق العالمى .

وإذا كانت الأسواق المحلية تموج بالحركة فإنها كانت تخدم أساساً حاجات السكان المحليين . وكان هذا الموقف فى فلسطين وسوريا قبل قدوم الصليبيين . ولكن غزوهم للمنطقة أضاف بعداً جديداً إلى الحياة الاقتصادية للبلاد ، وأهميتها التاريخية تتعدى حدودها غير الثابتة .

ولن نقع فى شباك المبالغة إذا ما قررنا أن فترة الحروب الصليبية توافقت مع الكشوف الكبرى للمناطق المأهولة من العالم . ولم يكن الدافع إلى اكتشاف المجهول نتيجة مباشرة للحروب الصليبية ، ولكن هذه الحروب كانت أداة لخلق الظروف المادية والنفسية التى أدت إلى هذه الانطلاقة الأولى نحو الاستكشاف ، قبل حوالى ثلاثمائة سنة من عصر الاستكشاف العظيم . وقد تحول أبطال حركة الكشوف صوب الغرب والجنوب يجوبون المحيط الأطلنطى . ولكن لن ينسى أنهم كانوا يريدون الوصول إلى نفس الأهداف التى وصل إليها التجار والمستكشفون والمبشرون فى ترحالهم قبل قرون ثلاثة فى عصر الصليبيين .

وفى بداية القرن الثانى عشر ، كانت التجارة قائمة ومستمرة مع حوض البحر المتوسط الشرقى ، وشواطىء أفريقيا الشمالية والشرقية ، بل ومع أواسط آسيا والشرق الأقصى (على الرغم من قلة حجم هذه التجارة) . فقد حافظ التجار والبحارة فى جنوب أوربا على حلقات الاتصال مع أسواق الشرق المتوسط الكبرى . وكانت القسطنطينية هى أكبر هذه الأسواق التى كانت إلى جانب منتجاتها التى تخلب الألباب ، نهاية رئيسية للطرق التجارية العظمى على محور الشمال - الجنوب ، من اسكندنافيا إلى شرق المتوسط (وأفريقيا أحيانًا)وعلى محور الشرق - الغرب من الشرق الأقصى إلى البحر المتوسط . وكانت الإسكندرية تنافس القسطنطينية فى أهميتها ، وبينها عدد كبير من الموانىء الأصغر حجما مثل دمياط وأنطاكية.

وفى العصور الوسطى الباكرة ، كانت أمالفى والبندقية المدينتين الأوربيتين الرئيسيتين اللتين تتوسطان الطريق إلى أوربا الكاثوليكية ، وبيزنطة الأرثوذكسية، والعالم الإسلامى . وكان أحد الملامح الرئيسية لهذا النشاط التجارى الباكر متمثلا فى حقيقة أن التجار الأوربيين لم يكونوا قادرين على التوغل خلف نطاق التجارة . فالبوثيكاى البيزنطية والفنادق الإسلامية فى المدن البحرية وعند نهايات الطرق التجارية ، كانت هى أبعد ما يمكن للتاجر أن يصل إليه . وكان أى مكان خلف هذه النزل بمثابة منطقة محرمة على الأجانب . وكان هذا الإجراء يسمح للسلطات المحلية بالتحكم فى سيطرتها على الصادرات والواردات والأسعار والضرائب والرسوم الجمركية ، فضلا عن الاحتفاظ باحتكار طرق التجارة العالمية الكبرى للمواطنين وللتجار أصحاب الامتيازات .

وقد انهار هذا الحائط الخفى ، والقوى فى الوقت نفسه ، الذى كان يفصل أوربا عن مناطق الإمداد خلال عصر الحروب الصليبية . ومع حلول القرن الثانى عشر لم يعد التاجر الأوربى

ينتظر فى القسطنطينية أو أنطاكية أو عكا أو حتى فى الإسكندرية ودمياط حتى تصل قوافل الجمال أو السفن المحملة بالبضائع . فقد شقوا طريقهم فعلاً إلى الأراضى الداخلية القريبة - مثل دمشق وبغداد وأرمينيا - ومع بداية القرن الثالث عشر وبعد قيام امبراطورية المغول الآسيو - أوربية ، وصلوا إلى مناطق الحدود بين أوربا وآسيا ، وأبحروا فى المحيط الهندى بل ووصلوا إلى أرض التوابل العجيبة فى الهند الصينية . وهكذا خرج العالم المسكون ، الذى عرفه الإغريق بفضل غزوات الإسكندر الأكبر والذى وصل إلى مشارف الهند ، خرج عن حدوده الضيقة وفتح قارة بأسرها . وما أدى إلى الزحف الهائل تجاه الشرق كان سحر الربح الخلاب . وكانت هناك بعض المحاولات الغامضة فى مجال الدبلوماسية العالمية والجهود التبشيرية لنشر المسيحية ، إلا أنه من المناسب أن نقدم لقصة عالم العصور الوسطى المتسع بوصف صحيفة فى كراسة حساب إيطالية عنوانها "باسم الله وباسم الربح" !

ففى بداية الأمر كانت الأسواق الكبرى فى حوض البحر المتوسط هى الهدف المنشود . ويمكن فهم مدى تأثير هذه الأسواق على المعاصرين من خلال فقرة نقتبسها من وليم الصورى مؤرخ الحروب الصليبية الكبيرة إذ يقول :

"للإسكندرية شهرتها حيث إنها تستقبل عددا من البضائع من كل شكل أكثر مما يرد إلى أية مدينة أخرى . فكل ما يفتقر إليه عالمنا من التوابل ، والجواهر والكنوز الشرقية والبضائع الأجنبية كان يرد إلى الإسكندرية من الهندين وسابا وبلاد العرب بل ومن أثيوبيا ومن فارس وغيرها من البقاع القريبة . وهكذا فإن جماهير الناس من الشرق والغرب تتجمع هناك . ويجعلون من الإسكندرية سوقاً عامة للشرق والغرب" .

ومؤرخ آخر معاصر لوليم الصورى ، هو بنيامين التطيلى الذى كان أكثر اعتياداً على المدن الكبيرة المزدهرة فى موطنه بالأندلس ، ولكنه لايجد الكلمات التى تسعفه فى وصف مدينة القسطنطينية :

"التجار من كل شكل يأتون إلى هنا من أرض بابل ، وجميع أنحاء شنغار وفارس ، وميديا ومملكة مصر ، وهم يفدون أيضاً من أرض كنعان (ربما يعنى أرض السلاف) ومملكة روسيا (كييف) ، ومن المجر ومن أرض البتشنج Petchenege ، ومن أرض الخزر ومن لمبارديا واسبانيا . إنها مدينة تموج بالحركة والنشاط ، ويفد إليها التجار من شتى الأنحاء عن طريق البر والبحر . وليست هناك مدينة تشبهها سوى بغداد ، مدينة اسماعيل الكبرى" .

وثمة أوصاف مشابهة لأسواق أخرى كبيرة فى شرق البحر المتوسط يمكن أن نجمعها فى سهولة ويسر من المصادر المعاصرة ، إلا أن قليلين من الأوربيين هم الذين توغلوا خلف الحدود المصطنعة لهذه المراكز التجارية ، إذ كان كل امرىء يعلم أن الثروات الكبرى والتنوع المذهل فى السلع لم يكن إنتاجاً محلياً ، وإنما قد أتى من الجنوب والشرق . وفى بعض الأحيان كانت الأماكن التى جلبت منها بعض المواد معروفة ، وفيما عدا ذلك كانت المعلومات شحيحة للغاية . أما المعرفة الأوسع ، فكانت بين العمليين من الناس المشتغلين بالنقل والتجارة ، أكثر مما توجد بين العلماء . فبالنسبة لهؤلاء ، شأنهم فى ذلك شأن رسامى الخرائط فى العصور الوسطى الباكرة ، كان الفردوس موجوداً فى مكان ما صوب الشرق . وآدم وحواء ، اللذان كانا يستران عورتيهما فقط ، يحتلان الركن العلوى من خرائط العصورالوسطى (الجزء العلوى يشير إلى الشرق وفقاً لاستخدام أهل العصور الوسطى) . غالباً ما كان اثنان من الأنهار الأربعة المذكورة فى سفر التكوين ٢ ، ١٠ ينبعان من هذا المكان ، ويختفيان فى التربة ، ثم يظهران بشكل إعجازى مرة أخرى فى هيئة دجلة والفرات ، ولأن هناك بعض التخبط بشأن النهرين الآخرين ، فليس هناك شك فى أن نهر النيل واحد منهما ، على حين كان نهر الجانج هو النهر الثانى أحياناً ، وكان الأكثر استنارة برسم شعلة وطفلاً ملائكياً "شروبيم" قرب هذا الفردوس (تكوين ٣ ، ٢٤) أو يعزلها عن الأرض المسكونة بواسطة الجبال واللهب والصحراء . والإسكندر الأكبر فقط (حسب إحدى الروايات الخيالية التى نسجت حوله فى العصور الوسطى) هو الذى وصل ، بعد فتحه للهند ، إلى مدينة حيث أخبره أحد اليهود أنها الجنة الأرضية !

وعلى أية حال فإن عصر الحروب الصليبية ، قد شهد اختفاء الخانات البيزنطية عند نهاية الطرق التجارية والخانات التى كان التاجرالأجنبى يلقى فيها نوعاً من التسامح والتى كان يخضع فيها للرقابة إبان إقامته المحدودة . فقد ضمنت الفنادق التى انتشرت آنذاك من القسطنطينية عبر أرمينيا المسيحية ، والمستوطنات الصليبية ، بل وحتى فى الإسكندرية الإسلامية .. ضمنت هذه الأماكن السكن والعلاقات الخارجية والمحلية الضرورية للتجار . وبعد ذلك بفترة ، كان التجار يدخلون حلب ودمشق وبغداد عند نهايات الطرق البرية والبحرية الآسيوية وبعدها وصلوا إلى طرابيزون ، وكافا وتانا على البحر الأسود . وفى ذلك الحين كانت طرق تجارة التوابل قد أصبحت معروفة ، وقدر للأوربيين الأوائل الوصول إلى الهند والصين ،

وجزر إندونيسيا . وعلى مدى قرن كامل كانت آسيا ترتبط بأوربا بحجاب من الغموض ، كان يحيط بها منذ اجتياح البرابرة أوربا فى القرن السادس ، وقد آن لهذا الحجاب أن يزول ولكن هذا لم يعمر طويلاً . وبعد ذلك بمائة سنة . دخلت آسيا فى الظلام من جديد ، انتظاراً لإعادة استكشافها على يد الإيطاليين والأسبان والبرتغاليين فى القرن السادس عشر .

وليس هناك ما يمكن أن يعبر عن الآفاق الآخذة فى الاتساع بطريقة أفضل مما جاء فى الصحيفة الأولى لأحسن مذكرات رحالة فى العصور الوسطى ، وربما فى أى عصر آخر ، والتى أملاها سجين فى أحد سجون جنوة على رفيق له فى السجن ١٢٩٨م وهو روستشيللو البيزى Rusticllo of Pisa إذ يقول : "منذ خلق آدم إلى يومنا الحالى لم ير إنسان ، سواء أكان وثنيا أو مسلماً أو مسيحياً أو غير ذلك من أى جنس أو عصر ، مثل هذه الأشياء الكثيرة جداً والعظيمة جدا" وهكذا يدعو ماركو بولو سامعية ليقرأوا عن "تنوع ممالك وأقاليم الشرق .. وأكثر الخصائص والميزات إيثاراً للدهشة والعجب لاسيما فى أرمينيا وفارس والهند وتارتاى" ولكن ماركو بولو لم يكن أول من توغل فى آفاق آسيا اللامحدودة . وبحلول سنة ١٢٤٥م كانت هناك سفارة مسيحيةٍ قد سافرت بالفعل إلى الشرق على أمل عقد تحالف مع المغول ضد المسلمين ، فقد قام جيوفانى Giovanni of Piano Carpini (١٢٤٥) ، وأندريه اللونجومورى André of Longumeau (١٢٤٩) ، ووليم الربروكسى Willam of Rubruquis (١٢٥١) برحلاتهم قبل ماركو بولو . ولكن رحلته هى التى حظيت بالشهرة عبر التاريخ ، لأنها أطلعت أوربا على أسرار الشرق العجيب .

والذى كان يجذب الأوربيين تجاه الشرق يمكن تلخيصه فى كلمة "التوابل" التى كان معناها آنذاك أكبر فى مداه بكثير من معناها الحديث . فلم تكن تحتوى فقط على التوابل والعطور . ومواد الصباغة والمواد الطبية من الشرق ، ولكن أيضا على كل أنواع الواردات من آسيا وأفريقيا . وثمة كاتب من القرن الثالث عشر هو هيون دى ميرى Huon de Méry يصف تاجراً بأنه "بائع التوابل والأطعمة الاجنبية" ، وربما يكون هذا الكاتب هو أدق من اقترب من تحديد مصطلح "توابل" الذى شاع فى العصور الوسطى . ولكن فى عصر الحروب الصليبية حين لم تكن "التوابل" من مواد الرفاهية ، ولم تكن شائعة فى أوربا ، كان الطلب عليها كافياً لإدارة عجلة الحياة الاقتصادية الأوربية لعدة قرون .

وكانت مواد الصباغة مطلوبة فى مراكز النسيج الكبرى فى شمال إيطاليا وفى أنوال إقليم الفلاندرز ، ومراكز النسيج الصغرى فى فرنسا وألمانيا وانجلترا . وكانت الأصباغ المحلية أقل

عادة فى جودتها .و"التوابل" الأخرى كانت تتضمن العطور وكافة أنواع البخور . وفى هذا النمط من البضائع الشرقية خلقت ذكريات الماضى القديم مع ارتباطها بالكتاب المقدس صوراً قدر لها أن تستمر فى الوجود حتى العصور الحديثة . ولم يكن كل زبائن العطور من النساء . بل على العكس من الاعتقاد الشائع ، كان الرجال فى العصور الوسطى ، بما فى ذلك رجال الكنيسة ، يستخدمون العطور . والدليل على ذلك أن رجال الكنيسة الفلسطينيين أثناء زيارتهم لبلاط الملك هنرى الثانى ملك انجلترا ، وبخوا فى قسوة بسبب سحابة العطر التى كانت تحيط بهم فيما يبدو .

وفى المعنى الأدق للكلمة ،كانت التوابل تتضمن الأعشاب ، والأعشاب العطرية ، ومستخرجات النباتات والفواكه أو عصيرها المستخدم كبهارات أو كمادة لتركيب الصلصة. ومن أهم استخدامات التوابل على أية حال كان حفظ الطعام لأطول فترة ممكنة . وكانت بعض التوابل ، وربما كان الفلفل أهمها ، تستخدم كبهارات وكحافظ للطعام . ومن هنا لم تكن هناك إلا خطوة بسيطة تجاه صيدلة الأدوية ، وهى خليط من المعرفة القديمة والتراث الكلاسيكى والوسيط فضلا عن الملاحظات التطبيقية . بل أن التوابل المجلوبة من أقصى بقاع الأرض كانت موجودة باستمرار فى مخزن بائع العقاقير ، الذى كان يضم الذهب والفضة بين محتوياته. وإذا ما اعتبرنا أسعار التوابل المرتفعة أدركنا مدى تكاليف العلاج .

وكانت المنسوجات ، ولاسيما أكثرها فخامة ، تحتل مكانة تقترب من مكانة التوابل فى التجارة مع المشرق . ومن الطبيعى أن الفلاندرز ، وانجلترا فى وقت لاحق ، وشمال إيطاليا ، كانت من أكبر مراكز إنتاج النسيج ، ولكن الشرق كان هو الذى يغرق الغرب بالمنتجات الفاخرة منه . وعلى الرغم من الحقيقة القائلة بأن المنسوجات القطنية والكتانية كانت تنتج فى أوربا ، فإن الجودة التى تميزت بها المنتجات الشرقية كانت تجد لها سوقاً فى الغرب فى سهولة ويسر . وكانت أقمشة الشرق الفاخرة ، مع دائرة المستهلكين المحدودة نسبياً ، هى السبب فى إضفاء جو خاص على التجارة الشرقية ، فالحرير من أجود الأصناف ، بل والأقمشة الحريرية المطرزة ، والقصب بخيوط الذهب والفضة والبالدكينو Baldechino (الذى يشير إلى صناعتها فى بغداد) والدمشقى (من دمشق) والسامايت من اليونان أو بيزنطة ، والتفتاه من فارس ، والستان من زيتون ، وهى مدينة تسوين - تشاو - فو فى مقاطعة فو - كين الصينية ، والمنسوجات الأرخص مثل البكرم من بخارى والكاميلوت (من وبر الجمل) ، وما أشبهها ، كانت غريبة على العين والملمس على حدسواء . ولم يكن تفوق المواد الأولية الخام وحده ،

ولكن الصناعة العجيبة والرسوم والتصميمات هى التى ساعدت المنسوجات الشرقية ، فضلاً عن أن الألوان الزاهية - الأزرق والأحمر ، والأرجوانى ، والأخضر بدرجاتها المختلفة - ميزت الثياب الكنسية والملكية وثياب الامراء . وكانت المجوهرات والأحجار الكريمة تأتى مع الأقمشة من الشرق على الرغم من أنه فى هذا المجال كان الغرب يبيع المرجان للشرق .

وكانت المنتجات الأجنبية ، سواء طبيعية أو صناعية ، تحمل الأسماء الغريبة الرنين للبقاع البعيدة . وقد كتب مؤرخ معاصر أن ثمة أوديسا للتجار كانت تسير فى خطى موازية لإلياذة الفرسان الصليبيين . فمن الشرق الأقصى ، ومن جزيرة زيبانجو (اليابان) التى تحدث عنها ماركو بولو ، ومن اليافاس Javas(بوزينو وسومطرة) وكاتاى ، وتارتارى والهند الصينية ، كان من المعتاد أن تسافر البضائع التجارية عبر الطريق البحرى الأطول والأرخص والأكثر أمنًا فى الوقت نفسه ، وتتغير السفن ، وأطقمها والبحارة عدة مرات حتى تصل إلى سواحل البحر المتوسط . وكان البحارة والتجار الصينيون الذين يستخدمون سفناً كبيرة تمخر عباب البحار ، وهى التى حازت إعجاب ماركو بولو ، يحضرون البضائع من سيلان أو مالابار على الساحل الجنوبى الغربى للهند ، ومن هناك يواصل الرحلة البحارة والتجار الهنود إذ كانوا يبحرون باتجاه الغرب عبر المحيط الهندى . وكان كثيراً ما كان يشار إليه فى ذلك الزمان باسم البحر العربى . وكان المجرى البحرى لهم إلى الغرب يتجه إما إلى اتجاه هرمز والخليج الفارسى أو يستمر نحو الغرب حتى عدن فى شبه جزيرة العرب . وكان الطريق الرئيسى ، إذا لم يتعرض لعبث قراصنة الخليج الفارسى ، يستمر شمالاً حتى دلتا نهر الفرات عند رأس الخليج. إلا أن البحارة غالباً ما كانوا يهجرون هذا الطريق القصير بسبب القراصنة الذين كانوا يمارسون نشاطهم من قواعد على الجزر الصغيرة المحيطة بمدخل الخليج الفارسى . ومن ثم كانت السفن الهندية تفرغ حمولاتها عند مدخل الخليج وتواصل الرحلة بها سفن أصغر حجماً يقودها بحارة من الفرس أو العرب . والطريق البحرى كان ينتهى فى البصرة ، الميناء الرئيسى فى جنوب العراق ، وهنا كانت البضائع تفرغ ثانية وتنقل إلى القوارب النهرية التى تسير بها فى نهر الفرات حتى بغداد . وكانت بغداد أو دمشق هى عادة المحطة النهائية بالنسبة للطرق الشرقية. وكان على التجار الأوربيين أن يقوموا بالتعاقدات على أعمالهم هناك وينقلون مشترواتهم على ظهور الجمال إلى أنطاكية أو صور ، أو عكا أو اياس(من أرمينيا السفلى) . وفى بعض الأحيان ، كان التجار المسلمون أو المسيحيون الشرقيون مثل "الموصليين" يفدون إلى الموانىء

المسيحية فى المستوطنات الصليبية ، بل وربما كانت هناك فروع لشركاتهم هناك . وحينئذ تقوم بضائع الشرق النفيسة بالشطر الأخيرة من رحلتها صوب أوربا . وكانت السفن الأوربية تحمل الحمولة الغالية من محطات العبور (الترانزيت) فى المستوطنات الصليبية ، وبفضل إرادة الله والريح تصل إلى البندقية أو بيزا أو جنوة بعد فترة تتروح ما بين ثلاثة وخمسة أسابيع .

وكان الطريق البحرى الثانى يتفرع من المحيط الهندى ، وبدلاً من الإبحار فى الخليج الفارسى يسير بحذاء ساحل مسقط وعمان وحضرموت ، لتفرغ السفن حمولاتها فى عدن ، وربما تبحر خلال مضيق باب المندب بين شبه الجزيرة العربية وأثيوبيا وتفرغ حمولاتها فى زبيد. وكان ميناء زبيد هو محطة الوصول الأخيرة لسفن المحيط الهندى . وهنا تنقل الحمولة إلى سفن أخرى أخف وزناً تصلح للملاحة فى البحر الأحمر قبل أن تواصل رحلتها صوب الشمال . وكانت الجزر والشعب المرجانية والمياه الضحلة فى البحر الأحمر تتطلب سفنا صغيرة الحجم كما تتطلب وجود بحارة معتادين على أخطار هذه المياه . وهناك كانت سفن التجار تقابل سفن الحجاج وهى تشق طريقها إلى ينبع وجدة ، مينائى المدينة ومكة . وكانت السفن المحملة بالبضائع تبحر صوب الشمال إلى الموانىء المصرية فى عيذاب والقصير ومنها تنقل بقوافل الجمال عبر الصحراء إلى الجنادل عند أسوان أو عند قفط . ومن هنا تحمل القوارب النيلية الحمولة حتى دمياط أو رشيد أو الإسكندرية . ومن هذه الموانىء كانت السفن الأوربية تحمل البضائع إلى موانىء جنوب أوربا .

وعلى الرغم من أن هذا الطريق كان أكثر الطرق التجارية أمناً وأكثرها استخداماً ، فقد كان هناك محور شرقى - غربى تجارى ثالث ينقل البضائع الشرقية من الشرق الأقصى إلى الغرب على ظهور الجمال . وكانت محطاته النهائية فى الغرب هى مدن كافا فى كريميا ، وتانا وطرابيزون على شاطىء البحر الأسود والقسطنطينية وأياس فى أرمينيا السفلى . ومن هذه المحطات النهائية كان التجار الإيطاليون يبدأون رحلتهم الطويلة صوب شواطىء بحر الصين . وعلى حين كان الطريق البحرى يستغرق حوالى عامين ، كانت الطريق البرى أقصر أو تستغرق الرحلة عليه حوالى تسعة أشهر . وعلى الرغم من أن الطريق البرى - الذى غالباً ما كان يطلق عليه اسم طريق الحرير لتأكيد جاذبيته الرئيسية - كان معروفاً منذ العصور القديمة فإن استخدام الأوربيين له لم يصبح واقعاً إلا بعد تأسيس وتدعيم إمبراطورية المغول الكبرى (حوالى ١٢٥٠) . وعندها ، كما لوحظ فى أحد كتب الإرشاد التجارية الإيطالية ، صار فى

إمكان المرء أن يمر فى تلك البقاع الشاسعة وهو آمن تماماً ، سواء أكان مروره ليلاً أو أثناء النهار .

وكانت هناك بعض المنتجات الأوربية القليلة التى تصدر إلى الشرق الأقصى مباشرة فى مقابل الحرير النفيس . وكان الإجراء العادى هو تبادل المنتجات الأوربية بالمنتجات المحلية على طول الطريق . وكان هناك طريقان بصفة أساسية يؤديان إلى الشرق ، أحدهما شمالى والثانى جنوبى ، ثم يتفرغ الأخير أيضا باتجاه البحر العربى أو الهند . وغالباً ما كان التجار يختمون رحلتهم الشرقية فى مدينة سراى Sarai على نهر الفولجا ، أو استراخان على بحر قزوين ، أو مدينة أورجنج على بحر آراك ؛ على حين لم يكن الآخرون يغامرون بالدخول إلى ما وراء تبريز فى فارس . أما الأكثر مغامرة أى أصحاب الشركات التجارية الكبيرة ، فكانوا يعبرون حتى أماليغ ومنها إلى بكين . وكان الاتجاه الجنوبى من اياس وتبريز يسير بحذاء شاطىء بحر قزوين ثم يعبر ميرثى ، وبخارى ، وسمرقند وكشجر ويستمر حتى يركند وخوتان وبكين ، ما لم يختر التاجر أن يعرج على كابول ويصل إلى الدولة الإسلامية فى الهند وعاصمتها دلهى .

وكانت الحروب الصليبية ، وجرأة الإيطاليين ومهارتهم بالإضافة إلى الغزو المغولى ثلاثة عوامل مختلفة ، تفاعلت سوياً لتخلق مجموعة المراكز التجارية التى أرست أسس الاتصالات الأوربية الآسيوية . وبالنسبة لإنسان العصور الوسطى ، الذى كان يشعر شعوراً عميقاً بأن الأعاجيب ، والعالم الجديد الذى يسمع عنه مغلفا بوصف ضبابى ، فضلا عن السلع والبضائع الشرقية التى وكدت وجود هذا العالم ، كان هذا بالنسبة له معجزة أخرى من معجزات الرب . حقيقة لقد كان هناك من يشكون فى هذا ، ولكنهم كانوا شكاكا لأسباب خاطئة ، وحينما ضغط على ماركو بولو وهو على فراش الموت لكى يعترف بأن حكايته عن رحلته حافلة بالأساطير والخرافات ، لم يستطع أن يقول سوى إنه لم يرو كل ما عاشه ورآه حقاً .

خاتمة

قبل نهاية العالم ستتحقق كل النبوءات وتنتشر الأناجيل فى كل العالم ، وتعود أورشليم المقدسة إلى الكنيسة المسيحية" . هذه الكلمات لم يكتبها متصوف أو نبى من العصور الوسطى . لقد كتبها كرستوفر كولومبوس ، الملاح الإيطالى الذى كان يعمل فى خدمة أصحاب الجلالة أكبر ملوك أسبانيا كاثوليكية بعد اكتشاف العالم الجديد . وقد حملت سفنه الشراعية أشرع بيضاء بصلبان حمراء وهو الرمز التقليدى للصليبيين . وكان على ظهر إحدى سفنه يهودى تحول إلى المسيحية ويدعى لويس دى توريز وكان يعمل مترجما للعربية .

لقد مضى قرنان من الزمان بين سقوط عكا واكتشاف العالم الجديد ، ومع ذلك فالفكرة الصليبية ، وإن ضعفت ، لم تمت . إذ أن العداوة بين الشرق والغرب لم تختف ، كما أن فكرة الحرب المقدسة لم تهجر تماما . إلا أن الظروف غيرت فكرة الحرب المقدسة من حرب هجومية ضد الإسلام إلى حرب للدفاع عن الدين الصحيح ضد قوى الإسلام المعادية . ومن ناحية أخرى لم يعد الإسلام تمثله فقط البلاد العربية . بل تمثله الآن الإمبراطورية العثمانية العظيمة ، وقد كان صاحب القسطنطينية التى سميت استنبول منذ ١٤٥٣م أكثر خطورة من سابقيه .

ولم يمح سقوط عكا ، وهو الحدث الذى ختم مصير المملكة اللاتينية ، كل المكاسب الإقليمية للصليبيين . فقد كانت هناك مملكة قبرص القوية التى حكمها ورثة ملوك بيت المقدس الصليبيين . كما كانت هناك مملكة أرمينيا المسيحية فى آسيا الصغرى ، والتى تدين بوجودها وحضارة بلاطها للولايات الصليبية فى الشرق ، على الرغم من أن الصليبيين لم يؤسسوها أو يستقروا فيها . كما كانت هناك أيضاً جزر بحر إيجه وبعضها جزء من مملكة البندقية البحرية ، وبعضها الآخر حكمته الأسر الصليبية الحاكمة مع ظهور الحملة الصليبية الرابعة ، وأخيراً كانت هناك جزيرة رودس التى حكمها فرسان القديس حنا منذ بداية القرن الرابع عشر . وعندما طرد الصليبيون من الأرض اليابسة التصقوا بأطرافها على ممر بحرى فرق بين آسيا وأوربا .

وخلال القرن الرابع عشر ، ظل الإحساس باقياً بأن حملة صليبية جديدة ستتحرك من أوربا لتوجيه ضربة قاضية ضد الإسلام ، مستفيدة بحكمة من التجارب السابقة المؤلمة بأخطائها . وبهذا المنظور بدت جزر شرقى البحر المتوسط كجسور ومعابر لغزو الأرض المقدسة . وزادت الثقة التى دعمها الإنتاج الأدبى عن "استرداد الأرض المقدسة". فمنذ المجمع الكنسى الثانى

فى ليون عام ١٢٧٤ ، عندما قدم البابا جريجورى العاشر اقتراحات بشأن كيفية إنقاذ المملكة الصليبية والخطط الكثيرة توضع فى المجالس الملكية فى أوربا ، وكانت بعض هذه الخطط مجرد خيالات وهمية خالصة تجمع بين الكتاب المقدس واللاهوت ، والتفكير المعبر عن رغبة آملة لا أكثر . وبعض الخطط الأخرى كانت أكثر جدية استمدت نتائجها من التاريخ بما فيه التاريخ الصليبى الحديث ، بالإضافة إلى معرفة ممتازة بالتجارة وأثرها واحتياجاتها وطرقها وتقييمات للقوة العسكرية للأعداء المسلمين . ولم تكن هذه مجرد حجج فى يد المدافعين والقائمين بأمور الدعاية ، فقد أثرت تأثيراً مباشراً على تفكير رجال الدولة والقادة . وفى ظل العلاقات التجارية والسياسية ، كان استرداد الأرض المقدسة أمراً ضرورياً ، وغالبا ما كانت الرغبة فى فعل هذا ليست أكثر من نوع من الاعتقاد الثقافى . ولكن كثيراً ما كانت تصاحب هذه الرغبة الاعتقاد المخلص بأن الوسائل العسكرية والاقتصادية ستحقق فى النهاية هدفها .

وفى النهاية أدت المشروعات النظرية المتعددة والإعداد العملى إلى ظهور حملتين جديدتين يمكن اعتبارهما من الحملات الصليبية . الأول يقودها بطرس الأول ملك قبرص ١٣٦٥م . وكانت الثانية حملة نيكوبوليس الصليبية عام ١٣٩٦م . وكلاهما مميز للقرن الرابع عشر ؛ فبطرس الأول الذى حاول بمساعدة البابوية تعبئة الغرب لحملة صليبية جديدة زار البندقية وستراسبورج وباريس ولندن وبراغ وكراسكو . وقد استقبل البابا والإمبراطور وملوك فرنسا وانجلترا وبولندا والمجر الملك الشهم الذى زادت شهرته بعد قتاله المشرف للترك على ساحل آسيا الصغرى ، ولم تكن النتائج كلها مخيبة للآمال . وكانت القوى المجتمعة غاية فى التأثير، ولكن كانت روح الفروسية هى المحركة للحملة بدلا من التفكير السياسى .

وانطلق الأسطول الصليبى المتمركز فى قبرص إلى الإسكندرية فى ٩ أكتوبر ١٣٦٥م ، وفوجئت المدينة . وليومين كاملين تعرضت المدينة للسلب الذى لم تنج منه الأحياء المسيحية . وبعد أسبوع ، ومع اقتراب الجيوش الإسلامية من القاهرة ، ترك الملك والفارس وجندى المشاة المدينة المحترقة من أجل سلامة سفنهم . وكانت هذه نهاية الحملة التى كانت منفساً للمطامع الفروسية لفرسان أوربا . ولكنها كانت عملاً فى القرصنة أكثر منها حملة صليبية .

وفى الوقت الذى كان فيه بطرس الأول ملك قبرص يحرق بوابات الإسكندرية ، كان الأتراك العثمانيون يهددون أوربا فى خطورة لم يسبق لها مثيل . فمن قواعدهم بالقرب من ضولوريوم Dolorium وهى موقع انتصار الحملة الصليبية الأولى ، وصل الأتراك بسرعة إلى شواطىء البوسفور وإيجه والبحر الأسود . وعند موت عثمان فى ١٣٢٦م كان الأتراك مسيطرين فى

نيقية ، المدينة التى بوركت بالمجلس المسكونى الأول فى تاريخ الكنيسة . وسرعان ما أصبحت الأناضول فى الداخل وأيدين Aydin على ساحل البحر الأبيض المتوسط تركية . وفى النصف الثانى من القرن غزا الأتراك تراقية Hrace واستولوا عليها ، كما استولوا أيضا على روملبا Rumelia وبلغاريا وأجزاء من مقدونيا . وكان الإسلام هو المسيطر الآن متغلغلا فى أوربا من خلال البلقان . ووقعت تحت التهديد المباشر كل من قبرص ورودس وجزر بحر إيجة وأرض السلافيين . وحاول البابا ، بدون جدوى ، خلق تحالف مسيحى باسم حملة صليبية . وكما أن للتاريخ نكساته وسخرياته أصبحت الحرب الصليبية حرباً دفاعية ضد الكافر المعتدى . وكانت النتيجة الوحيدة الملموسة لالتماس البابا الحملة المشئومة التى دعا إليها البابا بونيفيس التاسع Boniface IX وقادها يوحنا دوق بورجوندى . واشترك فى الحملة الفرنسيون والألمان والإنجليز والتشيكيون . وقد نزلت الحملة إلى الدانوب من بودا لمقاومة الجيش التركى بقيادة بايزيد فى معركة حامية فى نيكوبوليس فى سبتمبر ١٣٩٦م . وانتهت المعركة بالدمار والفناء للجيش المسيحى . وفى النهاية لم تكن حرباً صليبية أو جيشاً مسيحياً الذى أوقف الغزوات التركية ؛ ولكن ظهور تيمورلنك المرعب مؤسس الإمبراطورية المغولية الثانية والذى شل حركة الأتراك لمدة جيل بأكمله ، وأجل استيلاءهم على القسطنطينية حتى ١٤٥٣م .

كانت موقعة نيكوبولس آخر الحملات الكبيرة ضد الإسلام . وقد أصمت أوربا آذانها فى وجه هؤلاء الذين حاولوا تحريك حملة صليبية جديدة . وكان مناخ الرأى العام بالتأكيد مضاداً للمحاولة . وكانت هناك أسباب عديدة لتدهور الحماس للحروب الصليبية . فأولا وقبل كل شيء ، كانت هناك خيبة الأمل واليأس حول فشل الحركة . فقد كلفت الحروب الصليبية بمجالها الواسع مئات الآلاف من البشر والثروات دون أن تحقق نتائج مستديمة . وبالإضافة إلى هذا ، أصبحت الحروب الصليبية نشازاً مع تطور الحياة الأوربية فى النصف الأخير من القرن الثالث عشر وفى القرن الرابع عشر . وكانت الحركة الصليبية قد خلقت كتعبير عن أيديولوجية مسيحية موائمة للقرن الحادى عشر . وبعد مائة سنة ، ومع موت إنوسنت الثالث ، كانت أوربا أكثر مسيحية من قبل . ولكن الممالك الإقطاعية الخاصة فرضت نفسها فوق هذه القاعدة العامة من الدين والثقافة . وقد كانت السليل المباشر للممالك القومية . وفى منتصف القرن الثالث عشر ، دخلت القوتان ، اللتان تجسمت فيهما فكرة "مناصرة المسيحية" ، وهما قوة البابوية وقوة الإمبراطورية أو القوة الروحية والقوة الدنيوية لأوربا المسيحية ، فى صراع جعلهما عاجزتين تماما . فقد نظرت الممالك الإقطاعية التى استقطبت ولاء الشعوب نظرة جادة إلى مستقبلها المباشر ، ووجدت أن هذا المستقبل لايكمن فى عظمة ومجد المسيحية ، ولكن

فى تقوية وتدعيم ممالكها القومية . وكان الوجود اللاتينى فى الشرق أمراً يدعو للفخر ، ولكن القليل قد بذل للحفاظ على استمراره حيث إن الممالك الصليبية لم تخلق قومية خاصة بها . وفى القرن الثالث عشر أصيبت هذه الممالك بالفوضى المدمرة كالحركة التى أتت بها إلى الوجود.

ولم تكن العوامل السياسية والاقتصادية الأسباب الوحيدة التى وضعت نهاية الحروب الصليبية . إذ لم يكن يقل عن هذه العوامل أهمية ، على الأقل بين الدوائر التى نصفها اليوم بالدوائر المثقفة ، ذلك العامل الذى تمثل فى النقد والمعارضة النامية ضد الصليبية كأيديولوجية. فقد بدأت أصوات المعارضة فى الظهور منذ الحرب الصليبية الثانية . وقد أتت كل حملة تالية بموجة جديدة من النقد . وقد امتدت قاعدة المعارضة للحملات الصليبية من التروبادور ، خفيفى الروح ، سليطى اللسان ، إلى المفكرين السياسيين الذين أسفوا لاستغلال الحركة من أجل تحقيق المصالح البابوية (مثلاً الحملة ضد فردريك الثانى) وكذلك انتقدها النساك والمتصوفة من المسيحيين ، وأهل الورع والتقوى ، الذين شكوا فى الإلهام الالهى الذى ادعته الحركة ، وذلك لأن سفك الدماء يعارض التعاليم الأنجيلية . وقد ظهرت فى هذه الأوساط فكرة جديدة ، وهى تعليم الأناجيل للكفار وهدايتهم . وقد ألهبت هذه الأيديولوجية الجديدة بالتبشير السلمى الخيال ، وسرعان ما نافست فكرة الحرب الصليبية .

ومنذ منتصف القرن الثانى عشر ، كان القرآن قد ترجم إلى اللاتينية بواسطة رئيس دير رهبان كلونى العظيم "بطرس المبجل" . وبهذا جعل القرآن معروفا للغرب فى سبيل فهم الإسلام وكقاعدة أساسية للمجادلات المضادة للإسلام . وقد داعبت البعض فكرة أنه طالما أن الإسلام، لم يرفض الأنبياء ولم يرفض عيسى المسيح ، فإنه يكفى الإشارة إلى أخطاء محمد حتى يتم إدخال المسلمين فى حظير المسيحية . وكانت الإرساليات المبعوثة إلى المغول فى منتصف القرن الثالث عشر إرساليات دينية أساسا هدفها تحويل هذه القوة الجديدة إلى المسيحية . وكان ريموند لول عند بوابة القرن الثالث عشرأكثر رسل فكرة التبشير بلاغة ، وتحت تأثيره قرر مجمع فيينا عام ١٣١١م تأسيس ست مدارس للغات الشرقية لتدريب ناشرى الدعوة والمبشرين، ووصل الدومنيكان والفرنسيسكان إلى مناطق من العالم لا توجد على الخريطة يعظون ويناقشون ، ويعمدون ، ويؤسسون جماعات محلية صغيرة . وعلى الرغم من أن بعض مآثرهم يمكن تصنيفها على أنها أخاذة ، إلا أن إرسالياتهم لم تصبح أبداً حركة جماهيرية. ومع ذلك فقد قوض وجودهم فكرة الصليبية ، التى أوجدت القاعدة النظرية للمعارضة أو الرفض .

وعلى الرغم من العراقيل فقد استمرت أيديولوجية الحروب الصليبية ، ولكنها مع الزمن حددت لها أهدافاً جديدة ، وبالتالى وضعت وسائل جديدة للعمل . وقد حدث التغيير الرئيسى عند نهاية القرن الرابع عشر . وأصبح رئيسياً بعد منتصف القرن الخامس عشر عندما ارتبطت فكرة الحروب الصليبية بحركة الاستكشاف العظيمة . ومن الصعب معرفة درجة الإخلاص فى هذا المثال الجديد . إذ يبدو أن حركة الاستكشاف استمدت وحيها من مصادر مختلفة ، ولقيت قبولاً لدى مستويات متنوعة من الناس .

ولقد بدأت حركة الاكتشافات العظيمة فى بداية القرن الخامس عشر بالمكتشفين البرتغال الذين وصلوا إلى جزر الأطلنطى فى الغرب ، وداروا حول الشاطىء العربى لأفريقيا فى الجنوب وكان Infante Enriques البرتغالى الروح المحركة لتلك المقاصد الخطيرة التى غيرت مصير الإنسان فى أقل من مائة عام . فقد كانت الاكتشافات البرتغالية للساحل الأفريقى امتدادا لحرب الاسترداد ، وتحويلاً للحرب المقدسة - التى هى الآن فى آخر مراحلها فى شبه الجزيرة الأيبيرية - إلى الأراضى المجاورة للإسلام والوثنية . وربما يكون بمثابة خطأ فى قراءة التاريخ إذا حددنا أهدافاً تبشيرية خاصة بهذه الاستكشافات أو حتى أن نفترض أن التحول إلى المسيحية - كان عاملاً أساسياً فيها . ومع ذلك فليس هناك شك فى أن القادة القباطنة والمكتشفين والتجار قد اعتقدوا أن هناك هدفاً أسمى لمشروعاتهم من مجرد البحث عن El-dorado . فقد ارتبط الجانب الروحى للاستكشافات بالاعتقاد فى مسئولية الرجل الأبيض الخاصة بنشر الإنجيل فى كل العالم المسكون ، وكان رسل هذه الأيام الأخيرة مسيحيين متعمقين فى إيمانهم ، ولهذا فقد رأوا أن هداية الكفار ، وتعميد الوثنيين جزء لايتجزأ من مهمتهم . ومن مميزات هذا الشعور أنه بعد اكتشاف العالم الجديد وقع كولومبس باسم كرستوفيرنز ، حامل أنباء المسيح السارة إلى العالم الجديد . وهذا الجانب التبشيرى واضح خلال كل فترة الاكتشافات الكبرى ، فقد كان كرستوفر كولومبس وفاسكو دى جاما ومؤسس الإمبراطورية الكبير البوكريك يشعرون جميعاً به ؛ بل واعتبروه جزءاً من مهمتهم .

وقد قامت بعثة كولومبس وتوقعاته جزئياً على اعتقادات خاطئة عن حجم الأرض ، وعلى فكرة أنه بالإبحار تجاه الغرب يصل الإنسان مباشرة إلى الهند ، وبناء على هذه الفروض نشأت فكرة الهجوم على الإسلام من بابه الخلفى ، أى من الشرق . وقد أدت أسطورة مملكة القديس يوحنا ، التى حددت بالتبادل فى الشرق وفى أفريقيا ، وكذلك الأوصاف الخيالية لثرواته وقوته العسكرية إلى افتراض أن تحالفاً شرقياً سيسهل الهجوم على الإسلام من جبهتين .

وعندما اتضح الخطأ بدأ التعبير عن فكرة الصليبية فى ألفاظ اقتصادية بمعنى أن الاتصال المباشر بجزر التوابل والهند سيجعل أوربا مستقلة عن مصر تجارياً . وفى نفس الوقت تقوض موارد مصر الاقتصادية الرئيسية ، وهو الدخل الوارد إليها من الضرائب المفروضة على التجارة الدولية، التى كانت تنتهى بطريقها للآسيوى الأفريقى فى دلتا النيل . ولم تنجح أوربا مطلقاً فى تحقيق هذا البرنامج ، ولكن حققه الأتراك العثمانيون بعد فتحهم لمصر (١٥١٧) ، وتحويلهم للطرق التجارية إلى عاصمتهم الجديدة استنبول . وبينما دمر هذا مصر دفع بأوربا إلى جهود كشفية جديدة من أجل كسر الاحتكار التركى للتجارة مع الشرق الأقصى. ومع ذلك فالسيادة على التجارة مع آسيا واكتشاف الذهب فى العالم الجديد ، كل هذا كان فى خدمة رؤيا الصليبيين الموتى ، فعند الإبحار غرباً وتوسيع المسافات بين العالم المسيحى والأرض المقدسة دون كولومبوس فى دفتر حسابات سفينته : "أقترح على جلالتكم أن كل الربح الذى سأحصل عليه من مشروعى يجب أن يستخدم لاسترداد بيت المقدس" .

تعقيـــب

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية والأسس الدينية للحركة الصليبية

لقد حظى موضوع الحركة الصليبية بكثير من الدراسات التى حاولت جادة البحث فى أصول فكرة الحركة الصليبية ، وما نشأ عنها من حملات وحروب استمرت لقرنين من الزمان ، وأصبحت أحد المعالم البارزة فى تاريخ العصر الوسيط . وقد ساهم فى هذه الدراسات عديد من المؤرخين والمفكرين المسلمين والمسيحيين على السواء ، كل يحاول من وجهة نظره ووفقا لخلفيته الدينية والثقافية أن يحلل الفكرة الصليبية ، ويعلل نشأتها ، ويبحث عن أسباب لاستمرارها ، ويبحث أيضا عن مبررات لفشلها فى تحقيق أهدافها . كما اهتمت بعض الدراسات الأخرى بتقييم الحركة الصليبية وتحديد مكانها داخل الإطار العام للتاريخ الأوربى فى العصر الوسيط من ناحية ، والتعريف بدورها وأثرها فى توجيه العلاقات بين الشرق الإسلامى والغرب المسيحى لفترة طويلة من الزمان من ناحية أخرى .

والكتاب الذى قمنا بترجمته هنا لايخرج عن هذا الإطار إلا أن المؤلف هذه المرة ليس مسلما أو مسيحيا ، ولكنه يهودى من إسرائيل ، وهذا يضفى على عمله أبعادا جديدة غير مألوفة فى الكتابات الإسلامية والمسيحية عن الحركة الصليبية . فموضوع الحركة الصليبية من الموضوعات التى أثارت حساسية المسلمين والمسيحيين لقرون من الزمان ، ولا نكون مغالين إذا قلنا أنها كدرت صفو العلاقات الإسلامية المسيحية لفترة طويلة . ولهذا لم تخل الكتابات الإسلامية والمسيحية من إشارات تعكس خلفية الكاتب وثقافته الدينية . والحقيقة أن موضوعاً حساساً كهذا يجعل من الصعب على المؤرخ ، مسيحيا كان أم مسلماً ، أن يلتزم بالموضوعية العلمية فى معالجته له إلا أنه لاينفى وجود هذه الموضوعية لدى بعض المؤرخين . ولهذا فقد يظهر بين الحين والآخر ما يعكس خلفية المؤرخ . ونستطيع أن نقول بشكل عام أن معظم الكتاب المسلمين الذين أرخوا للحروب الصليبية وكتبوا عنها التزموا عن حق بموقف الدفاع هذا فى الوقت الذى تأرجحت فيه كتابات المؤرخين المسيحيين بين اتخاذ مواقف التبرير أحيانا ، والإدانة للحركة الصليبية أحياناً أخرى .

ومؤرخنا ، هذه المرة، ليس مسلما أو مسيحياً . وهذا يعنى أنه عاطفياً لاينتمى إلى أى من الطرفين صاحبى النزاع ، وأنه قد تم له التحرر من قيود هذا الانتماء ، فهو ليس فى حاجة إلى

تبرير ما حدث أو الحكم بالإدانة أو اتخاذ موقف دفاعى ، وإن كان هذا لم يمنع الكاتب من التعبير الحر عن رأيه واتخاذ وجهات نظر معينة طالما أن هذا لم يخرج به عن إطار الموضوعية العلمية المطلوبة فى البحث التاريخى . ونحن نرى أن هذا قد تم فى صورة مرضية فى هذا العمل الذى ألفه الأستاذ يوشع براور الأستاذ بالجامعة العبرية بالقدس فقد قدم الكاتب دراسة تحليلية متكاملة للفكرة الصليبية وتطورها ، وأظهر فى ثنايا عمله كثيراً من صور الاحتكاك الثقافى والحضارى بين عالم الصليبيين وعالم الشرق الإسلامى . وهو وإن اتفق مع المؤرخين المسلمين والمسيحيين فى وصف كثير من الأحداث الرئيسية المتعلقة بالحملات الصليبية والظروف التى نشأت فيها ، إلا أنه يضفى على تحليله التاريخى عناصر غابت من إدراك المؤرخين المسلمين والمسيحيين ، أو لنقل أنها ربما لم تكن موضع اهتمامهم ، ولذلك أغفلوها فى أبحاثهم الخاصة بالحركة الصليبية. ونحاول فى الصفحات التالية إبراز أهم هذه العناصر .

الموقف اليهودى من الحروب الصليبية :

من أول الأمور التى اهتم بها المؤرخ براور فى تحليله محاولته تحديد ما نسميه بالموقف اليهودى وهو أمر ذو شقين الأول : تحديد الموقف الصليبى من اليهود سواء فى الدول الأوربية إبان ظهور الحركة الصليبية أو الموقف الصليبى من يهود فلسطين بعد وصول القوات الصليبية إلى الشرق وتأسيسها للمملكة الصليبية فى القدس . والشق الثانى هو تحديد موقف اليهود من الحركة الصليبية ، وتحديد الدور الذى لعبه اليهود فى هذه الفترة إيجابياً كان أم سلبياً .

ومن الواضح هنا أن خلفية المؤرخ وثقافته اليهودية قد أملت عليه ضرورة البحث فى الأوضاع اليهودية فى فترة الحروب الصليبية ، ودراسة هذه الأوضاع فى الدول الأوربية التى تزعمت فكرة الحركة الصليبية وفى الشرق الإسلامى . ولا شك أن هذا جانب من الدراسات التى لم تجذب اهتمام المؤرخين المسلمين والمسيحيين للحركة الصليبية ، وهنا يجب أن نشير إلى أن معظم الدراسات المتعلقة بالحروب الصليبية وتاريخها لم تعالج هذا الموضوع الخاص باليهود داخل إطار الدراسة التاريخية ، أى لم تعالجه ضمن معالجتها الكلية للحروب الصليبية ، وإن كنا لاننكر أنه قد عولج بشكل أو بآخر فى إطار دراسات أخرى كالدراسات الخاصة بالعلاقات اليهودية المسيحية عبر العصور بما فيها فترة الحروب الصليبية [١] أو الدراسات الخاصة بتاريخ اليهود والتى أفردت فصولاً للتاريخ اليهودى فى العصر الصليبى[٢] أو الدراسات الخاصة بظاهرة المعاداة للسامية . إذ عادة ما يفضل المؤرخون اليهود بالذات مناقشة الموقف الصليبى

من اليهود ضمن الموضوعات المتعلقة بتاريخ المعاداة للسامية[٣] والحقيقة أن هذه ظاهرة لاتقتصر فقط على المؤرخين اليهود. ولكنها تشمل أيضا بعض الكتاب المسيحيين الذين انشغلوا بالتأريخ لمعاداة للسامية ، وأفردوا فصولا فى كتاباتهم لمعالجة الصليبية كجزء من تاريخ المعاداة للسامية[٤] .

ويصرف النظر عن طريقة المعالجة فإن غالبية المؤرخين يتفقون على أنه مع بداية الحروب الصليبية ، التى كان هدفها الأول المسلمين فى فلسطين والشرق عامة ، ظهر عنصر جديد ومأساوى فى تاريخ العلاقات المسيحية اليهودية ، فقد كانت الجماعات اليهودية فى أوربا أول من عانى من ظهور فكرة الحركة الصليبية . وقد بدأت هذه المعاناة فى أوربا ذاتها وقبل أن تصل الجيوش الصليبية إلى الشرق الإسلامى إذ أثارت المسيحية وشحنتها بالعاطفة الدينية المتطرفة . وقد صور قادة الحركة المسلمين فى صورة الكفرة أعداء المسيح والمسيحيين، واصطدمت هذه الروح الدينية الجديدة والمتطرفة أول ما اصطدمت بيهود أوربا الرمز الأول للكفر، والعدو التقليدى للرسالة المسيحية فى نظر أهل العصور الوسطى من المسيحيين فى أوربا . فمارست الجماهير الثائرة الاضطهاد فى شتى صوره ضد الجماعات اليهودية فى محاولة "لتطهير البيت من الداخل" ، كما ادعى بعض زعماء الحركة ، قبل تطهيره من الخارج. والداخل هنا يرمز إلى يهود أوربا أما الخارج فهو عالم الإسلام والمسلمين .ووقعت التجمعات اليهودية فى أوربا ضحية الفوضى التى استشرت بين القوات الصليبية ، وعدم انتظامها وانقيادها أثناء خروجها من أوربا متجهة إلى الشرق ، فنهبت وخربت كل ما صادفته فى طريقها ، وكان يهود المدن الواقعة على طريق الحملات الصليبية أول من تعرض لهذا النهب والسلب . ولم تسلم بعض الجماعات المسيحية من هذا إذ لم يكن فى قدرة الجيوش المتحركة التمييز بين اليهودى والمسيحى وهى فى طريقها إلى الأرض المقدسة ، وكانت النتيجة أن عرف اليهودى والمسيحى الأرثوذكسى حد السيف الصليبى قبل أن يعرفه المسلم .

هذا السلوك من جانب القوات الصليبية المتجهة إلى الشرق لايمكن بأى حال أن يكون ممثلا للموقف الصليبى الرسمى من اليهود فى المجتمعات الأوربية وفى فلسطين . وإذا رجعنا إلى أقدم الوثائق الصليبية الرسمية وهو خطاب اربان الثانى فى كليرمونت لما وجدنا إشارة واحدة إلى اليهود ومن هنا لانستطيع التأكيد على وجود موقف رسمى من اليهود ، وأن ما حدث يمكن تفسيره على أنه يرجع إلى قوى غير عقلانية . ففى حالة جنون من الحماسة المسيحانية

خيرت جماهير الصليبيين الشعبية العنيدة اليهود بين الردة أو الموت على حد تعبير براور الذى يقول إن "ما بدأ كتعبيرعن شعور دينى سرعان ما تحول إلى مذبحة دموية قصد منها القضاء التام على الجماعات اليهودية فى أرض الراين" ، وهى جماعات قديمة يعود بعضها إلى عصر الإمبراطورية الرومانية ، كما نشأ بعضها بناء على طلب بعض الأساقفة المحليين الذين أرادوا تعمير المدن الناشئة وتحويلها إلى مراكز تجارية بمساعدة اليهود وخبرتهم فى هذا المجال . وقد ازدهرت بعض هذه التجمعات اليهودية وبلغت شأواً عظيماً فى العلم ، وظهرت من بينها مدارس لتفسير العهد القديم وتفسير التلمود . وهكذا يبدو أنه لم يكن فى صالح النظام السياسى فى أوربا ولا فى صالح الكنيسة ذاتها أن ينتهى الوجود اليهودى فى أوربا . ولكن الكنيسة ومعها الدولة لم يستطيعا الوقوف فى وجه ما يشبه بالثورة الشعبية ضد اليهود ووجدت كراهية اليهود مخرجاً لها فى أعمال النهب والسلب التى أصبحت جزءا لايتجزأ من كل حملة صليبية خلال مائتى عام ؛ فانتهت جماعات يهودية بأكملها وقتل كثير من اليهود ممن رفضوا التعميد . ومع الحملة الصليبية الثانية وازدياد حركة الاضطهاد ضد اليهود ظهر بين اليهود طقس جديد يسمى طقس الاستشهاد قطع فيه الرجال رقاب زوجاتهم وأولادهم وهم يتلون الصلوات الخاصة بذبح الحيوانات ، ثم ينتحرون هم بعد ذلك . وبهذا الاضطهاد الصليبى دخل يهود أوربا فى عصور الظلمة التى استمرت فى بعض المناطق من أوربا إلى بداية القرن العشرين .

ومن الناحية الدينية حرمت السياسة الرسمية للكنيسة التعميد الإجبارى ، ولم يرض رجال الدين عن الاضطهاد الواقع باليهود إذ كان يهمهم فى نفس الوقت الاحتفاظ بالعنصر اليهودى كشهادة على الإيمان المسيحى وانتصار الكنيسة . ولهذا نجد بعض الأساقفة حاولوا منع جماهيرهم الثائرة من الإضرار باليهود ، ولم تمنع هذه المحاولات الفردية من اضطهاد اليهود وإن كانت قد خففت من حدته فى بعض المناطق . ولكن الجماهير فى حماسها غير العقلى لم تصغ لأوامر الكنيسة ، ووجدت المبرر لذلك فى خطاب اربان الثانى فى كليرمونت والذى حدد العدو بأنه "الكافر" . وكان المقصود بالكافر هنا المسلمين إلا أن الجماهير الشعبية لم تفرق فى الكفر بين اليهود والمسلمين ، واتخذت شعارها تطهير المنزل من الداخل قبل قتال الكفار فى الخارج. وكان لهذه الحملة الجماهيرية أبطالها أمثال فوكمار Volkmar وجوتشوك Gottschalk واميكو Emicho وغيرها . وقد أثارت هذه الأحداث الحساسيات القديمة بين اليهود

والمسيحيين . فبمجرد الحديث عن "الكفرة" و"أعداء المسيح" ورد ذكر اليهود، وخطرت على البال أحداث العلاقات اليهودية المسيحية القديمة ورفض اليهود لرسالة السيد المسيح عليه السلام ، بل واتهامهم بقتله .. ولاشك فى أن كل هذه المشاعر ظهرت من جديد مع الدعوة الجديدة إلى الانتقام من "أعداء المسيح" . وطبيعى أن تكون العامة أكثر الجميع حماسة واندفاعا إلى الانتقام. وفى هذا يقول المؤرخ بولياكوف Poliakov أن المذابح التى تعرض لها اليهود لم تكن من فعل الجيوش الصليبية المنظمة التى قادها البارونات ، ولكنها كانت من فعل الرعاع الذين لا نظام لهم والذين سبقوا الجيوش المنظمة أثناء الزحف إلى الشرق(٥) وقد وجدت هذه الأفعال تشجعيا من بعض الكتاب فى العصر الوسيط الذين عاصروا الحملات الصليبية فها هو المؤرخ الصليبى Gulbert de Nogent يؤكد بل ويشجع على اتخاذ موقف الانتقام من اليهود فيقول: "نحن نريد الذهاب وقتال أعداء الله فى الشرق ، ولكن أمام أعيننا هنا بعض اليهود وهم جنس أكثر عداء لله من أى جنس آخر"(٦) . ويقول Richard of Poi-tiers : "قبل الرحيل إلى هذه الأماكن (يعنى الشرق الإسلامى) قضى (الصليبيون) بالمذابح على كل يهود الغال فيما عدا هؤلاء الذين قبلوا التحول إلى المسيحية وقد قالوا (الصليبيون) إنه ليس من العدالة أن نسمح لأعداء المسيح بالبقاء أحياء فى بلادنا ، وقد حملنا السلاح لطرد الكفار فى الخارج(٧) وما بدأ كثورة شعبية ضد اليهود فى الحرب الصليبية الأولى أخذ شكلا مختلفاً مع الحرب الثانية ، فقد استغل الرهبان الوعاظ من الصليبيين هذا الموقف عقائديا. فنجد مثلا Abbe Pierre of Cluny يقول : "ما الفائدة من الذهاب إلى نهاية العالم وخسران الرجال والمال لمحاربة المسلمين بينما نسمح لكفار آخرين أذنبوا ألف مرة تجاه المسيح أكثر مما فعله المسلمون"(٨) . وكذلك قال الراهب Rudolf فى ألمانيا : "فلننتقم أولاً للمصلوب من أعدائه الذين يعيشون بيننا ثم نذهب لقتال الأتراك"(٩) . ومما لاشك فيه أنه إلى جانب هذه الدعوات الواضحة إلى الانتقام من اليهود، كان هناك أيضا بعض من دعوا إلى حماية اليهود من غضب العامة ، بل لقد ذهب Bernard of Claivaux إلى أبعد من هذا حين استدعى بعض الذين أثاروا العامة للتحقيق مبيناً لهم "المخاطر اللاهوتية" لعملهم الانتقامى ضد اليهود : "ألم يخاطروا بإثارتهم للقضاء على اليهود بالقضاء على أهل الكنيسة فى هداية اليهود إلى المسيحية"(١٠) .

أما عن الموقف اليهودى من الحركة الصليبية فهو فى حقيقة الأمر موقف سلبى للغاية على الرغم من كل محاولات براور لإثبات غير ذلك . ونحن لاننكر أن تركيز الكاتب على ما لقيه

اليهود من اضطهادات متواصلة طيلة مائتى عام جعله يتخذ موقفاً موضوعياً تجاه المسلمين ، إلا أنه يغالى عندما يحاول تصوير النزاع على أنه نزاع مسيحى من ناحية وإسلامى يهودى من ناحية أخرى . فنحن نرى أنه ليس هناك مبرر لإعطاء اليهود دورا مشابها لدور المسلمين فى المعارك الصليبية . وذلك بدليل أن حركة المقاومة ضد الصليبيين التى بدأها المسلمون لم تجذب انتباه يهود الشرق أو يهود فلسطين بالذات ، فلم يقوموا بدور يذكر فى الصراع السياسى العسكرى الدائر حينئذ بين الصليبيين والمسلمين .

حقاً لم يفرق الصليبيون بين اليهود والمسلمين ، فقد كانت النظرة الصليبية الدينية نظرة موحدة تجاه المسلمين واليهود فهم "الكفرة" أعداء المسيح القاطنون فى الأرض المقدسة التى يجب تطهيرها ، خاصة الأماكن المرتبطة بحياة السيد المسيح ومماته وقيامته ، من دنس اليهود والمسلمين . ولكن هذه النظرة الصليبية الموحدة لاتعطى الكاتب الحق فى التسوية بين دور اليهود ودور المسلمين فى النزاع ، فهو يتغاضى تماماً عن السلبية التى اتصف بها الموقف اليهودى منذ بداية الحركة الصليبية حيث قبلت الجماعات اليهودية الاضطهاد الذى حل بها . حتى المقاومة التى أبدتها بعض هذه الجماعات كانت مقاومة سلبية بلغت ذروتها فى الانتحار الجماعى الذى ارتكبه بعض أفراد من هذه الجماعات هروباً من التعميد الإجبارى ، وإن كان التاريخ اليهودى قد اعتاد أن يطلق على مثل هؤلاء الأفراد اسم "الشهداء" كما فعل المقاتلون اليهود فى الحرب الرومانية اليهودية ٦٦-٣ ق.م الذين فضلوا الانتحار على السقوط أسرى فى يد القوات الرومانية المحاصرة لقلعة ماسادا . ومما لاشك فيه أن هذا الانتحار الجماعى وتفضيل الموت على التحول إلى المسيحية تعبير رائع عن مدى قوة الشعور الدينى لدى أفراد الجماعات اليهودية ، ولكنه فى نفس الوقت لا يعد من باب المقاومة التى أوقفت المد الصليبى أو ساعدت على تغيير سير الأمور فى ذلك الوقت . وإنصافا للحق نقول إنه ربما أن الظروف اليهودية فى أوربا لم تسمح فى ذلك الوقت بقيام اليهود بحركة مقاومة منظمة للاضطهاد الصليبى الذى بدأ كتعبير عن شعور شعبى وانتهى إلى سياسة منظمة ، فالوجود اليهودى فى أوربا كان وجوداً ضعيفاً من النواحى السياسية والاقتصادية ، فالأوضاع الاقتصادية بالذات لم تكن تسمح لليهود أن يلعبوا الدور الاقتصادى الذى لعبوه أكثر من مرة وفى ظل ظروف أفضل فى تاريخ العديد من الشعوب .

ولكن إذا كانت هذه ظروف الجماعات اليهودية فى أوربا ، فماذا نقول عن يهود الشرق ويهود فلسطين بالذات ؟ لقد كان عليهم أن يلعبوا دورا مختلفاً عن دور رفاقهم فى أوربا نظراً

لاختلاف ظروفهم . فبما أن المسلمين كانوا هدف الحملات الصليبية وبما أن اليهود كانوا أول ضحايا التحرك الصليبى إلى الشرق ، فهذا يعنى أن واقع الأمر كان يتطلب نوعاً من وحدة الهدف تجمع بين اليهود والمسلمين طالما أن العدو مشترك بينهما ، وأنه كان على اليهود أن يلعبوا دوراً ملحوظا فى حركة المقاومة الإسلامية للغزو الصليبى . ولكن واقع الأمور يشير إلى غير ذلك فالمصادر التاريخية ، إسلامية كانت أم مسيحية ، بل المصادر اليهودية ذاتها ، لم تذكرَ شيئا عن محاولات يهودية للوقوف فى وجه الغزو الصليبى سواء باشتراك مع المسلمين أو فى محاولات يهودية فردية . ولايعطى براور فى دراسته عن عالم الصليبيين أية أمثلة عن المقاومة اليهودية على الرغم من محاولته اللاشعورية لخلق دور لليهود . وهناك عبارة ذكرها براور ومرت دون أدنى تعليق من جانبه وهى عبارة تثير الشكوك فى حقيقة الدور الذى لعبه اليهود فى فلسطين وفى القدس بالذات أثناء دخول الجيوش الصليبية إلى المدينة المقدسة ، فقد ذكر براور أن الجيش الصليبى قد دخل المدينة المقدسة من الحى اليهودى . وهذه الواقعة التاريخية تتطلب ضرورة إعطاء الوصف الكامل للأحداث التى صاحبت سقوط القدس حتى تتضح لنا دلالة هذه العبارة التى ساقها براور ، وسنستخدم هنا وصف براور نفسه للظروف التى صاحبت سقوط القدس . يقول براور : "وكان الفصل الأخير من الحملة الصليبية حصار القدس الذى استمر خمسة أسابيع (٧ يونيو - ١٥ يوليو ١٠٩٩) وقد استعدت المدينة لحصار طويل نظرا لأن المدينة محاطة بالوديان العميقة من كل جوانبها فيما عدا الجانب الشمالى. ونصب الصليبيون معسكراتهم حول الأسوار الشمالية والغربية والجنوبية للمدينة ، ولكنهم فشلوا فى إغلاق المدينة من الشرق (بين ساحة الهيكل وجبل الزيتون) وقد تصوروا أن الحصار سيكون عاديا ، ولكن سرعان ما اتضح أن قواتهم سوف لاتستطيع تنفيذ مهمتها بسهولة . ولم يكن هناك شيء أكثر مناسبة لمناخ هذا الفصل الأخير من ملحمة الحملة الصليبية الأولى سوى حدوث بعض الرؤى الإلهية واشتراك القديس جورج فى المعارك .. وهنا كان قادة الحملة الصليبية أبطال مئات المعارك والمقاتلون المحنكون يسألون نصيحة راهب عاش فى أحد كهوف جبل الزيتون عن كيفية الاستيلاء على المدينة ، فالغارات الفاشلة على الأسوار وموكب المشاة حولها وتوقع سقوطها كما سقطت أسوار أريحا .. كل هذا أثبت عدم جدواه فقد مضت خمسة أسابيع قبل أن تكون آلات الحصار مستعدة . وقد شن هجوم عام فى يوم الجمعة الخامس عشر من يوليو ١٠٩٩م ففى وقت الظهيرة ، ساعة الصلب التقليدية ، نجح برج المحاصره التابع لجودفراى فى الاقتراب من الجانب الشرقى للسور الشمالى ، وأنزل كوبرى على رأس الشرفات ودخل الجيش المدينة من الحى اليهودى .." .

يتضح من هذا الوصف الذى قدمه براور أن الاستيلاء على القدس لم يكن أمراً سهلاً ، وكانت النتيجة الحتمية أن سقطت بقية أركان المدينة بيد القادة الصليبيين المحيطين بها . وإذا أضفنا إلى هذا عبارة أخرى فى نفس الصفحة وهى تخص السكان المسيحيين لبيت لحم لأدركنا مدى سلبية كل من يهود ومسيحيى القدس والمدن المجاورة . يقول براورفى موضع سابق : "وكانت الحملة الصليبية تقترب من نهايتها ، ووصل وفد مسيحى من بيت لحم وطلب الحماية ، فقد أصبح وجودهم مهددا بالتعصب الإسلامى والرغبة فى الانتقام ، وامتطى تانكرد صهوة جواده ليلا وفى الصباح التالى رفرف علم نورماندى على كنيسة الميلاد قبل أن يدخل أى غربى مدينة القدس المباركة" . ولاندعى هنا أن موقفاً موحداً قد اتخذ من جانب اليهود والمسيحيين فى فلسطين فى ذلك الوقت فالواضح أن كل جماعة قد تصرفت بمفردها إذ ليس هناك ما يدعو إلى اتحادهما فى هذه اللحظة ، والنتيجة التى تصل إليها من مثل هذه التصريحات هى أن الموقف اليهودى بالذات كان موقفاً سلبياً للغاية فى المقاومة والدفاع عن المدينة المقدسة ، وأن الحى اليهودى كان نقطة الضعف التى استفاد منها الصليبيون المحاصرون للمدينة ، والتى شقوا منها طريقهم إلى بقية جوانب المدينة وأسوارها . ومن هنا فنحن لانرى دليلا مقنعا على أن اليهود لعبوا أى دور يذكر فى تاريخ الوجود الصليبى فى فلسطين ، وأنه إذا كان هناك دور فهو سلبى للغاية . كما توضح الأدلة التى سردناها .

الأسس الدينية للحركة الصليبية :

وإذا كنا نختلف مع براور فى نظرته للموقف اليهودى من الحركة الصليبية ، إلا أننا نجد أنفسنا متفقين معه فى التحليل الذى يقدمه من خلال بحثه لكى يثبت أن الحركة الصليبية لم تقم على أسس دينية قوية كما ادعى أصحابها أو كما يبدو من المظاهر الخارجية للحركة . ومن هذا التحليل لدوافع الغزو الصليبى للشرق الإسلامى يتضح كيف لبست الحركة الرداء الدينى الذى ظهرت به أمام الجماهير الأوربية لتكسب عطفها وتأييدها ولتكسب أيضا عون رجال الكنيسة الروحى والمادى فى نفس الوقت .

والمتتبع للحركة الصليبية منذ بدايتها وانطلاقها إلى الشرق يستطيع أن يميز عدة براهين وأدلة على ابتعاد الحركة ومؤسسيها عن أهداب الدين ، وعلى وجود دوافع سياسية واقتصادية اختفت وراء الدوافع الدينية لكى تحقق مآربها فى ظل حماية الدين وتشجيع رجال الكنيسة ومعونتهم . ومن أول هذه الأدلة موقف الجيوش الصليبية كجيوش ممثلة للمسيحية الغربية من

المسيحية الشرقية وأتباعها . فهذا الموقف يؤدى إلى الاعتقاد فى أن القضاء على مسيحية الشرق كان أحد أهداف الغزو الصليبى ، ولا نكون مغالين إذا ألحقنا أتباع المسيحية الشرقية إلى قائمة "الكفرة" الذين تحدثت عنهم المصادر التاريخية الصليبية . ويبدو من سلوك القوات الصليبية المنظمة وغير المنظمة فى المناطق المسيحية التى تم فتحها فى الطريق إلى الشرق الإسلامى أن هذه القوات لم تكن ملتزمة بسلوك مسيحى أخوى تجاه السكان المسيحيين . وحتى قبل أن تخرج هذه القوات من أوربا بدأت فى نهب السكان وسلبهم بمجرد انتهاء المؤن. وقد حدث هذا فى فرنسا وألمانيا وبوهيميا وفى المجر والبلقان حيث تصرفت الفرق السائرة كجيش غاز فى مقاطعة العدو ، مما اضطر أهل المجر مثلا إلى تنظيم المقاومة المسلحة والدخول فى معارك ضد الجماعات الصليبية التى قامت بأعمال السلب والنهب . كل هذا والقوات الصليبية لاتزال تسير فى أرض مسيحية غربية . ويزداد الأمر سوءاً مع دخول القوات الصليبية إلى أرض المسيحية الشرقية ففى البلقان ، وهى من أراضى الإمبراطورية البيزنطية ، اصطدم الصليبيون باختلاف العادات الدينية وغير الدينية واختلاف اللغة .. وقد حول هذا لقاء مسيحية الغرب بمسيحية الشرق إلى واقعة عسكرية على حد تعبير براور، ولجأ البيزنطيون إلى وسائل عدة للتخلص من أعمال السلب والنهب ، فأمدوا الصليبيين بالطعام والمؤن حتى يتجنبوا شرهم بل ولجأوا إلى إرسال قوات تكونت غالبًا من الأتراك الذين يعملون فى خدمة البيزنطيين لقمع عصابات النهب الصليبية ، وأصبح الطريق إلى القسطنطينية تميزه القرى المحترقة والمدن المنهوبة والجثث الملقية على قارعة الطريق .. إلى هذا الحد عانت بيزنطة من سوء سلوك الفرق القادمة من الغرب المسيحى والتى كان من المفروض أنها قادمة لنجدة بيزنطة والمسيحيين بها . وقد نجح الإمبراطور الكسيوس كومينيوس فى أن ينتزع وعداً بالحفاظ على حقوق إمبراطوريته فى الغزوات الصليبية التالية داخل المقاطعات البيزنطية السابقة . وقد اضطر الإمبراطور إلى استخدام الحيل والتهديدات والرشوة للحصول على هذا الوعد بعد أن أمد القوات الصليبية بالمرشدين وبالمال والإمدادات ونقلهم عبر المضايق إلى الأراضى الآسيوية.

وقد أشار سير الأحداث فيما بعد إلى أن الصليبيين لم يكونوا جادين فى إقامة تحالف مسيحى مع بيزنطة ، مع أن بيزنطة أبدت منذ البداية استعدادها للتعاون ، وكان أسطولها على استعداد للتحرك إلى مصر. ولم يدم التحالف طويلاً فقد اعتقد الصليبيون أنهم يستطيعون بمفردهم إحراز النصر والانفراد بالمكاسب . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد ، بل لقد

طمع الصليبيون فى أملاك بيزنطة وسعوا إلى ضمها لأملاكهم . وقد أقنع الكسيوس الرابع انجيلوس الصليبيين فى الحملة الرابعة بغزو القسطنطينية وإعادته إلى السلطة واعداً القادة الصليبيين بوضع موارد بيزنطة تحت تصرفهم ، بالإضافة إلى مكافأة مجزية للجيوش . وقد وجدت البندقية فى هذه الفكرة فرصة عظيمة لتوطيد نفسها فى بيزنطة فتتم لها بهذا السيادة على أعظم المراكز التجارية فى العالم . ولم يكن هذا القرار المتخذ ضد القسطنطينية ممكناً لولا العداء الموروث بين الغرب والإمبراطورية البيزنطية والذى بدأ ظهوره خلال الحملة الأولى ، ثم سرعان ما تحول إلى عداوة صريحة خلال الحملة الثالثة عندما اتهمت بيزنطة صراحة بالتستر على صلاح الدين . ويعتقد براور أن الفكرة الأساسية ربما كانت إجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمساعدة المملكة الصليبية إلا أن الحملة غيرت من هدفها بعد حلول الصليبيين فى القسطنطينية وعندما لم ينفذ الكسيوس الرابع أنجيلوس وعده عصف الصليبيون بالمدينة فى أبريل ١٢٠٤ وتأسست مملكة القسطنطينية اللاتينية ، وأصبح بلدوين أول إمبراطور للمملكة الجديدة ، وأصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى لها وقسمت الإمبراطورية ، مثلها مثل كل الأسلاب ، بين المنتصرين .

إذن كان تقويض الوجود البيزنطى المسيحى أحد الأهداف الأساسية للحركة الصليبية ، ولأن هذا الهدف لم يكن معلناً عنه فى أوربا فقد أثار هذا السلوك الصليبى تجاه بيزنطة المسيحية غضب الرأى العام الأوربى للهجوم الذى شنه الصليبيون على الإمبراطورية المسيحية ، حيث فضل الكثيرون الرحيل إلى القسطنطينية الغنية والأقل خطورة من الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة . ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد من الإخضاع السياسى لبيزنطة ، ولكن بدأ تدهور الوجود المسيحى الأرثوذكسى وتعرض للخطر بسبب الوجود الصليبى . ولنأخذ مثالا على ذلك بالطائفة اليونانية التى كانت من أكبر التجمعات المسيحية فى الشرق وقد تركزت قوتها فى المقاطعات الشمالية وبخاصة فى أنطاكية ، وكان لها وجود قوى فى المملكة اللاتينية فى فلسطين ، وكانت كنيستها قبل وصول الصليبيين من أغنى الكنائس المسيحية فى الشرق وأكثرها نظاماً تحت الحكم الإسلامى . ومن المحير أن الصليبيين الذين أقسموا فى كليرمونت على تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الإسلام يتحولون إلى منافسين على الحكم ، ويصارعون من أجل وضع المسيحيين الشرقيين تحت سيادتهم السياسية ، ووضع الكنيسة الشرقية تحت سيادة الكنيسة اللاتينية . فاليونان لم يكونوا هراطقة من الناحية العقائدية ، بل

كانوا فى رأى اللاتين منشقين فقط ومنفصلين عن روما مؤقتا كما تعشم اللاتين الذين لم يكونوا يتصورون موقفاً يكونون فيه تحت سيادة رجال الدين اليونان . كما لم يكن ممكناً على أساس لاهوتى تصور قيام سلطة دينية موحدة يونانية لاتينية . ونتيجة لهذه التطلعات حل بطريرك لاتينى مكان البطريرك اليونانى فى أنطاكية والقدس بعد الغزو الصليبى مباشرة كما خلع الصليبيون أساقفة الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية ، وأعلنوا خلو الكراسى الأسقفية ثم عينوا أساقفتهم وطالبوا رجال الكنيسة اليونانية بالاعتراف والخضوع للبطاركة والأساقفة اللاتين الجدد .

وقد أدت هذه القرارات إلى زيادة حدة الصراع الدينى بين اليونان واللاتين واضطر رجال الدين اليونان إلى الانسحاب والرجوع إلى القسطنطينية بعد حرمانهم من كراسيهم الأسقفية ، وتوالى وصولهم إلى العاصمة البيزنطية كأساقفة اسميين للبلاد التى هزمها الصليبيون بينما بقيت الطبقات الدنيا من رجال الدين فى المقاطعات الصليبية معلنة خضوعها الإسمى للكنيسة اللاتينية . وقد مرت الكنيسة اليونانية بمرحلة تدهور فى ظل الحكم الصليبى حيث تعرضت للاضطهاد الصليبى المستمر . ومن وجوه هذا الاضطهاد أن تأسيس الكنائس اللاتينية فى الشرق كان يصحبه عادة إتلاف وتخريب الكنائس اليونانية . وقد اتضح هذا فى الكنائس الكبيرة وفى المدن بالذات ، وقد وجدت هذه الأعمال تبريرا لها فى أن اللاتين هم الوريث الشرعى للأملاك اليونانية السابقة كما اعتقد .

وبالإضافة إلى هذا الموقف الذى اتخذه الصليبيون من الكنائس الشرقية عامة ، على الرغم من دعوى تحرير المسيحيين الشرقيين من خطر الإسلام ، نجد كثيراً من المظاهر التى تعطى لنا صورة عن الإفلاس الأيديولوجى للحركة الصليبية والاضطراب المعنوى الذى عانى منه الصليبيون ، والذى يدل فى نفس الوقت على أن الأسس الدينية التى ادعاها القادة الصليبيون أسس واهية ، كما أن شعار تحرير الأرض المقدسة لم يكن إلا شعاراً زائفًا سقط عند أول اختبار. فالطريق الطويل الشاق إلى الشرق وألوان المعاناة والأمراض التى عانت منها القوات الصليبية خاصة خلال حصار أنطاكية .. كل هذا سبب نوعاً من الاضطراب المعنوى بين صفوف الصليبيين فنشبت الصراعات بين قادة الصليبيين ، وظهرت أطماعهم الحقيقية حيث بدأت التحديات بين بوهيموند مخطط نصر أنطاكية وريموند ، حيث ادعى كل منهما المدينة لنفسه متجاهلين الاتفاق المعقود مع الإمبراطور البيزنطى . وأثناء هذا الصراع انطلق القادة الصليبيون والرؤساء والفرسان إلى الريف المجاور لأنطاكية كل يحاول أن يحصل لنفسه على

بعض الأملاك الخاصة . ونظراً لضعف مقاومة الوطنيين سرعان ما أصبحت القرى والمدن والقلاع افرنجية . وقد أعجبتهم الحياة فى أنطاكية وضواحيها وأضحت إقامتهم فيها إقامة دائمة وساد الإحساس بأن أنطاكية قد حلت محل القدس ، كما أن نهر العاصى أخذ مكانة نهر الأردن فى عيون الصليبيين. ولولا يقظة المستويات الشعبية من أفراد الصليبيين وحماسهم الدينى الذى أدى إلى ثورتهم ضد زعمائهم وقادتهم لاستقر هؤلاء فى أنطاكية وأصبحت نهاية المطاف بالنسبة لهم ؛ إذ لم يتنازل القادة عن أطماعهم وصراعاتهم إلا عندما هدد فقراء الصليبيين بحرق أنطاكية وهدم أسوارها إذا لم تتحرك الجيوش إلى القدس .

نتيجة لهذه المواقف التى اتخذها القادة الصليبيون ، بدأت تظهر فى أوربا موجة من التذمر بسبب سلوك الصليبيين تطورت إلى نقد شديد للحركة أخذ الطابع الهجومى فى البداية ، ثم تحول بعد ذلك إلى تحليل جاد للأزمة الأيديولوجية التى وقعت فيها الحركة . وقد بدأ البعض يتساءل عن الإلهام الإلهى الذى ادعاه الصليبيون . وفى ظل هذا النقد بدأ الاستعداد للحملة الرابعة التى أشارت أكثر من غيرها إلى عمق الإفلاس الأيديولوجى للحركة . فقد أثبتت الحملةالرابعة أكثر من غيرها أن الأطماع المادية هى التى تحرك القادة الصليبيين ، فبعد سنوات من الاستعداد تجمعت قوات الصليبيين فى البندقية ، وبعد عام تم حصار القسطنطينية المسيحية وبدأت حملة من الاتهامات والاتهامات المضادة بين قادة الجيوش الصليبية . ولايزال المؤرخون يبحثون عن الأسباب التى دفعت بالقوات الصليبية إلى الاستيلاء على القسطنطينية المسيحية ، وهى ليست هدفاً للحملة . وليس هنا سبب واضح سوى أطماع القادة ، وخاصة بارونات الشمال ، بالإضافة إلى الأطماع الخاصة بالبنادقة حيث أصبح بلدوين أول إمبراطور لمملكة جديدة هى مملكة القسطنطينية اللاتينية ، كما أصبح أحد البنادقة أول بطريرك لاتينى للمدينة ، كما أسست البندقية إمبراطوريتها البحرية فى بحر إيجة على حساب القسطنطينية المسيحية .

وتعطينا الحملة الخامسة مثالاً آخر . فقد وضحت هذه الحملة الصراع الخفى بين الكنيسة والدولة والذى تمثل فى التحدى الصارخ لسلطة البابوية والذى أبداه الإمبراطور فردريك الثانى. فقد حمل فردريك القسم الصليبى منذ عام ١٢١٥م ، ولكنه ظل يؤجل حملته عاماً بعد عام مدعياً اعتلال صحته ووجود مشاكل تواجه حكمه فى مملكة صقلية وفى الإمبراطورية . وأخيراً عزم فردريك الثانى على البر بقسمه ، ولم يكن هناك مفر من ذلك لأسباب عدة منها قسمه

الصليبى وكونه إمبراطوراً فى عالم مسيحى ، ثم لقبه كملك القدس من خلال زواجه من إزابللا وريثة المملكة . وهكذا فرضت هذه الحملة نفسها فرضاً على فردريك الثانى . وقد زادت الظروف السياسية من غرابة هذه الحملة . فقد حدث أن تبرم البابا جريجورى التاسع من تقاعس فردريك الثانى وعدم بره بما حمله من أقسام صليبية ، فأصدر قراراً بحرمان فردريك الثانى وقد كان هذا على حد تعبير براور ، الفصل الأول فى مشهد غريب : الإمبراطور المحروم حاكم العالم المسيحى يقود حملة صليبية إلى الشرق . ومن هنا فقد تصرف فردريك الثانى بطريقة لاتظهر أى التزام بالكنيسة أو احترام للسلطة البابوية ، إذ اتصل فردريك الثانى بالملك الكامل حاكم مصر فى محاولة للدخول معه فى معاهدة ، وأدى نجاحه إلى زيادة غضب البابا ، وتقدم فردريك الثانى إلى القدس واستولى عليها دون اشتراك قوات الرهبانية العسكرية . وقد أسكتت أجراس المدينة ، وأصبحت المدينة المقدسة مدينة محرمة ، لأن فاتحها ملك حكمت عليه الكنيسة بالحرمان . ومع عودة فردريك الثانى إلى أوربا رفع عنه البابا قرار الحرمان ، إلا أن المملكة الصليبية عانت الأمرين من الصراع بين ممثلى الإمبراطور وممثلى البابا والأرستقراطية الصليبية . وبدأ تحلل المملكة داخليا وتحولت إلى إقطاعية كبيرة فى يد قلة حاكمة .

وهكذا وضحت الحملات الصليبية بصفة مستمرة عدم التناسق بين الدين والدولة ، وتصارع المثل الدينية والأطماع العلمانية ، وتفاقم النزاع بين البابوية من ناحية وحكام المملكة الصليبية من ناحية أخرى ، بالإضافة إلى إظهار الصراع بين الوافدين الجدد من الصليبيين مع كل حملة صليبية جديدة والأرستقراطية الصليبية التى استقرت فى المملكة منذ الحملة الأولى ، وكيف أن الحكم قد تركز فى يد أقلية إقطاعية حاولت أن تقيم فى الشرق ما لم تستطع تحقيقه فى بلادها . فقد تكالب الحكام الصليبيون على إنشاء الإقطاعيات الجديدة فى أرض بعيدة لأمراء ونبلاء ازدحمت بهم أوربا ولم يجدوا مكاناً داخل النظام الإقطاعى الأوربى العتيد .

وبالإضافة إلى هذا توافرت بعض الأمور الأخرى التى تجعلنا نحكم على الحركة الصليبية بأنها لم تكن حركة دينية أصيلة ، ولكنها كانت حركة سياسية معبرة عن واقع أوربا السياسى فى ذلك الوقت لبست رداء الدين لتحقق مطامع سياسية اقتصادية ، ولتفتح المجال أمام نبلاء أوربا ، وترفع من شأن الاقتصاد الأوربى فى نفس الوقت . ومن هذه الأمور التى تثير الشك حول الأصول الدينية للحركة الصليبية أنه من بين الإقطاعيات العديدة التى تم تكوينها فى المملكة الصليبية فى فلسطين ، لم تنشأ إقطاعيات دينية تناسب الادعاء الدينى والمساندة البابوية للحملات الصليبية ، وتوافق الشكل الدينى الظاهرى الذى أخذته الحركة ، والشعارات

التى تشدقت بها من تحرير للأرض المقدسة واستعادة بيت المقدس وتأديب "الكفرة" إلى آخره من النداءات التى أعطت الحركة شكلها الدينى الذى ظهرت به أمام الرأى العام الأوربى . وهنا يجب أن نشير إلى أنه كان من المتوقع بعد قيام المملكة الصليبية أن نرى المملكة تنظم على شكل يعكس الدعاية الدينية السابقة للحركة ، ويعبر عن الدعوى الدينية التى انطلقت الحملة الصليبية لتنفيذها ، ولكن ما حدث هو عدم جدية هذه الدعوى ، وظهرت الأيديولوجية الصليبية على حقيقتها ، وتم الاستغناء تماما عن كل التطلعات المسيحانية والآمال الكنسية ، وبدأت عملية تنظيم شؤون المملكة الجديدة فى الأراضى المهزومة على أساس النظام الإقطاعى الأوربى. فقد نظم الصليبيون دولتهم وفقا للتراث الذى نقلوه معهم من أوربا ، على الرغم من أن الظروف الاقتصادية الجديدة هيأت للقادة الصليبيين فرصة الابتعاد عن تطبيق النظام الإقطاعى الأوربى فى الشرق . فبعد جيل كامل من الصعوبات والمشاكل نتج عن إدخال الإقطاع كنظام حكومى أن قسمت المملكة إلى عدد من الإقطاعيات الأميرية التابعة للتاج فى القدس ، وكان واضحا منذ البداية أن اللوردات والبارونات الصليبيين كانوا أكثر انتظاما وتدريباً من رفاقهم الأوربيين نتيجة لحالة الطوارىء المستمرة من ناحية ، ونظراً للبناء الاجتماعى الغريب لنبلاء الصليبيين حيث أن معظم الذين قرروا البقاء فى الأرض المقدسة لم يكونوا ينتمون أصلاً إلى البيوتات الكبيرة من بيوتات نبلاء أوربا ، بل كانوا فى معظم الأحوال من طبقة فرسان أقل فى نبالتها من طبقة النبلاء الذين اغتصت بهم بلاطات الحكام الأوربيين . وقد سهل هذا مهمة الحكم إذ لم يجد الملك الحاكم فى القدس معارضة من البارونات خلال الجيل الأول من الوجود الصليبى . وظلت الأملاك والإقطاعيات الملكية واسعة وغنية . ولكن الظاهرة الغريبة هى أنه على الرغم من الدوافع الدينية التى ادعاها الصليبيون خلت المملكة إلا من القليل جداً من الإقطاعات الدينية ، وقد كانت على قلتها صغيرة وفقيرة ومحصورة فى بعض بقاع من اللد وبيت لحم والناصرة .

ومن الأمور الأخرى التى تؤكد علمانية الحركة الصليبية غياب التبشير الدينى بين سكان فلسطين من مسلمين أو يهود . فالإدارة الصليبية لم تبذل أى جهد يذكر فى هذا الاتجاه . ولاشك أن الرغبة فى تحرير الأرض المقدسة من قبضة "الكفرة" كان لابد وأن تتلوها محاولة تحويل هؤلاء "الكفرة" وهدايتهم إلى المسيحية لو كانت هذه الرغبة أصلية فى نفوس القادة الصليبيين. ولكن الظاهرة الواضحة أن الصليبيين فى الأرض المقدسة لم يهتموا بالتبشير للمسيحية بل لقد عزلوا أنفسهم عن الوطنيين ، ولم يختلطوا بهم اجتماعيا ، وتركوهم لشأنهم

فيما يتعلق بإدارة شؤونهم الداخلية ولم يفرضوا عليهم أى نظام خارجى فيما عدا بعض الأمور المتعلقة بالحكم والإدارة. وقد كان هذا قراراً خطيراً كان من نتيجته هجر أى عمل تبشيرى منظم على مستوى المملكة ككل بين المسلمين أو اليهود أو حتى بين المسيحيين الشرقيين . وهذا هو السبب المباشر فى أن الأرض المقدسة ، على الرغم من وقوعها تحت السيادة الصليبية إلا أنها لم تصبح مسيحية . فقد ظل غالبية سكانها غير مسيحيين . ويعلق براور على هذه الظاهرة التى يعتبرها غريبة بقوله : ومرة أخرى يصطدم المثال بالواقع ويملى الواقع شروطه القاسية للاستسلام . فقد كانت هناك فرصة أن تعود الساعة ثلاثة مائة عام إلى الوراء ـ ويعاد خلق الدولة المسيحية كما وجدت تحت الحكم البيزنطى قبل أن يقهرها الفرسان البدو القادمون من أعماق الصحراء ليقيمون الحكم الإسلامى . ولكن الصليبيين لم يستغلوا هذه الفرصة فالتحويل إلى المسيحية لم يكن أبدا هدفا من أهداف الصليبيين ولا جزءا من برنامجهم كما لم تسمح موجات الهجرة الأوربية بالتغطية على السكان الوطنيين . والحقيقة أن سياسة عدم التدخل فى شؤون الوطنيين التى اتبعتها الإدارة الصليبية أدت إلى عدم إحداث أى تغيير جذرى فى النظام الإدارى الإسلامى السابق على قيام المملكة الصليبية ومن الناحية الدينية ضمنت الجماعات الدينية والطوائف المختلفة استقلالها الدينى فى ظل الحكم الصليبى ، وقد ساعد على ذلك غياب الاهتمام الدينى لدى جماعات الصليبيين ، وخلو غزوهم من الهدف التبشيرى هذا وإن لم تسلم بعض الطوائف من مضايقاتهم كما ذكرنا من قبل .

أما التبشير كحركة منظمة فلم يبدأ إلا بعد قرنين من سقوط عكا ومع اكتشاف العالم الجديد . ومع ذلك الوقت كانت فكرة الحرب الصليبية قد ضعفت وانتهى عهدها ولكنها لم تمت تماما حيث استمر العداء بين الغرب والشرق . ولكن الظروف غيرت فكرة الحرب المقدسة من هجوم مسلح على الإسلام إلى حرب للدفاع عن المسيحية ضد القوى الإسلامية المحيطة بها ، خاصة أن الإسلام فى ذلك الوقت كان يمثله العرب من أهل الشرق والأتراك العثمانيون أيضا ويمكن القول هنا بأن هذا التغيير ربما كان تأثيراً إسلامياً مباشراً على التفكير المسيحى ، حيث اقتبس المسيحيون فكرة الجهاد الإسلامية ، ولانستطيع تحديد الفترة الزمنية التى تم فيها اقتباس هذا المبدأ الإسلامى ، إذ من الممكن أن يكون المسيحيون فى أوربا قد عرفوه من خلال احتكاكهم العسكرى بالمسلمين خلال فترة الحروب الصليبية ، وربما كان أيضا من نتائج الاحتكاك المسيحى بالإسلام فى الأندلس . ومهما كان الأمر فإن المواجهة الجديدة بين المسيحية والإسلام ارتبطت بحركة التبشير التى كانت عنصراً غائبا فى سياسة الصليبيين . ويمكن القول بأنه إذا كانت الحركة الصليبية قد هجرت التبشير بين المسلمين ، إلا أن الحركة التبشيرية التى

بدأت بعد ذلك كانت واحدة من النتائج غير المباشرة للحركة الصليبية . ففشل هذه الحركة وإفلاس الأيديولوجية الصليبية والنقد اللاذع الذى تعرض له الصليبيون .. كل هذا كان له دوره الهام فى وضع نهاية للحروب الصليبية ، ولكنها لم تضع نهاية للعداء بين الغرب المسيحى والشرق الإسلامى . وقد تسبب هذا النقد فى تحويل العلاقات المسيحية الإسلامية من علاقات حرب علنية لاتبشير فيها إلى حرب تبشيرية علنية . فقد عارضت الطبقة الأوربية المثقفة الأيديولوجية الصليبية ابتداء من الحملة الصليبية الثانية ، وبدأت توجه نقدها لقادة الحركة ولتورط البابوية فيها . وإلى جانب المثقفين عارض كثير من النساك والرهبان والمتدينين من المسيحيين سياسة الحملات الصليبية المتتالية ورأوا فيها انتهاكا لرسالة الحب والسلام التى هى من صلب الدعوة المسيحية ، وأبدوا شكوكهم فيما ادعاه الصليبيون من إلهام إلهى لحركتهم وذلك لأن سفك الدماء يناقض التعاليم الإنجيلية . ومن داخل هذا النقد بدرت فكرة جديدة وهى التبشير بالأناجيل للمسلمين وتحويلهم سلمياً إلى المسيحية . وقد بدأت هذه الحركة التبشيرية بحملة علمية ترجم القرآن الكريم على أثرها إلى اللاتينية حتى يتمكن علماء الغرب المسيحى ورجال الدين من قراءته وفهم الإسلام للرد عليه ومهاجمته ، وسرعان ما أنشئت مدارس اللغات الشرقية فى الجامعات المشهورة فى أوربا فى ذلك الوقت لمعرفة لغات العالم الإسلامى واللغة العربية على وجه الخصوص ، وقد خرجت هذه المدارس أجيالاً متعاقبة من المبشرين والوعاظ الذين حملوا رسالة التبشير ، وانتشر الدومنيكان والفرنسيسكان فى ربوع العالم الإسلامى يبشرون ويعظون ويجادلون ويعمدون بادئين بهذا حركة تبشيرية واسعة النطاق أرادت غزو العالم الإسلامى بالكلمة بعد أن فشل السيف فى فرض السيادة الغربية المسيحية، ووضعت أساسا نظرياً علمياً للمواجهة مع الإسلام بدلاً من المواجهة العسكرية التى تبناها الصليبيون .

وبعد .. فقد قدمنا فى الصفحات السابقة بعض المظاهر التى دللنا بها على عدم صحة الدعاوى الدينية التى تبناها زعماء الحركة الصليبية فى محاولة لإثبات الأسس السياسية الاقتصادية للحملات الصليبية . ويبقى أن نضيف إلى هذه الأدلة آراء علماء اللاهوت والمفكرين المعاصرين للحروب الصليبية فى صلاحية هذه "الحملات العسكرية" وشرعيتها والحق أن أشهر رجال اللاهوت المسيحى فى العصر الوسيط أمثال لومبارد Lombard واكويناس Aquinas وبونافنتير Bonaventure لم يتعرضوا فى كتاباتهم اللاهوتية لمسألة شرعية أو عدم شرعية الحروب الصليبية . ولانعلم إن كان هذا الصمت من جانبهم يعنى موافقتهم

على الدعائم الدينية التى استندت إليها الحركة الصليبية حتى أن أحد رجال الدين المسيحى المعاصرين وهو الأب إدوارد سنان علق على هذا الأمر بقوله : "إنه إذا كان معظم المسيحيين المعاصرين يعتبرون الحروب الصليبية فضيحة فإن غياب الحديث عنها فى الأعمال اللاهوتية العظيمة فى العصور الوسطى يسبب لنا بعض الاضطراب"(١١) ويوجه سنان نقده بالذات إلى توماس أكويناس إذ كان من المتوقع أن يتعرض أكويناس لموضوع الحروب الصليبية فى عمله الرئيس Summa Theologia . وكان أخوه الأكبر ايمون Aimone قد انضم إلى صفوف الصليبيين ، واشترك فى حملة فردريك الثانى ، ووقع فى الأسر عام ١٢٣٢ . والغريب أن المسيحيين فى قبرص هم الذين أسروه ، وطلبوا منه فدية وتوسط له وأنقذه البابا جريجورى التاسع فى ١٢٣٣م ولتوماس اكويناس أخ آخر يدعى رينالدوس Raynaldus وهو من التروبادور ، وقد انضم إلى البابا ضد الإمبراطور ودفع حياته ثمنا لولائه للبابا .. كل هذه الأسباب كانت كافية لكى يهتم توماس أكويناس بالحروب الصليبية ، ولكنه تجاهلها تماما. والإشارة الوحيدة إليها تبين أنه كان يعتبر الحروب الصليبية أمرا لاغبار عليه ففى هذه الإشارة يدافع اكويناس عن حق نظم الرهبنة العسكرية كفرسان الداوية Templars والأسبتارية Hos-pitallers فى الوجود على أساس أن الكنيسة اعتادت أن تفرض على الراغبين فى التوبة فرصة الاشتراك فى حملة لمساعدة الأرض المقدسة ، ويعتبر الموت بعد العودة من الأرض المقدسة والوفاء بالقسم الصليبى أفضل من الموت أثناء الذهاب . وينتهى الباحث إلى أن الراغب فى معرفة الآراء الخاصة بشرعية الحروب الصليبية عليه أن يبحث عن ذلك بعيداً عن كتب اللاهوت (١٢) .

وقد لقيت الحروب الصليبية معارضة من الرأى العام الأوربى عبر عنها فى كتابات مختلفة، ففى The Wurzburg Annals لعام ١١٤٧ نقرأ : "قضى الله على الكنيسة الغربية أن تعذب بذنوبها لأن بعض الأنبياء الكذبة .. أساءوا هداية المسيحيين وأغروهم بالكلمات الخاوية والوعظ الباطل ، وأجبروا كل الجنس البشرى على الخروج ضد المسلمين من أجل تحرير أورشليم(١٣) ويعلق Gerhoch of Reihersberg على خسائر الحملة الثانية بين الفرق الألمانية والفرنسية من الجيش الصليبى متعجبا بقوله : "أورشليم .. أورشليم .. التى قتلت ورجمت الأنبياء الذين أرسلوا إليها .. ماذا كنت تنوين فعله لتزيدى قتلى جدد ، من المسيحيين هذه المرة ، إلى القتلى القدامى" (١٤) . ومن النقد الذاتى نجد أحد المسؤولين عن الحملة وهو Abbet Bernard of Clairvaux يقول معلقا بعد فشل الحملة : "الرب أثارته

ذنوبنا فأدان العالم قبل الأوان وقد أدانه فى عدالة ، ولكن بدون رحمة إذ أنه لم يبق على شعبه ، ولم ينقذ إسمه : أليس يقولون بين الأمم : أين هو إلههم ؟ (١٥)

ويعد عامين من سقوط القدس كتب رالف نجر Ralph Niger حوالى ١١٨٩م ينقد الاستعداد للحملة الصليبية الثالثة للأسباب التالية . وهى أن الإلحاد والهرطقة فى أوربا تهدد الديانة المسيحية أكثر من خسارة أورشليم الأرضية بينما أمنا صهيون تنهار ، وما الفائدة أن تتحرر فلسطين من المسلمين وينتشر شر الكفر فى الداخل ، وبينما نهاجم الكفر فى الخارج تداس طهارة الإيمان تحت الأقدام ويسخر بها فى الداخل (١٦) ورالف هنا يشير إلى حركات الإلحاد والهرطقة التى انتشرت فى أوربا فى ذلك الوقت والتى اعتبرها أكثر خطورة على المسيحية من خطر الإسلام . ويعطى رالف سبباً آخر يتعلق بمعنويات السكان المسيحيين فى فلسطين فقد تدهورت أخلاقياتهم ، وأصبحت حياتهم الدينية لاتتعدى المظاهر الشكلية لأسباب كثيرة منها الثراء الفاحش والترف الذى ينعم فيه رجال الدين ، وبخاصة البطريرك الذى جاء على حد تعبيره يشحذ فى الغرب لمساعدة المسيحيين ضد المسلمين ، وهو نفسه غير مستعد لرفع أصبع أو أن ينفق من ماله الخاص ضد المسلمين . لقد فقدت الأماكن المقدسة فى رأى رالف بسبب ذنوب المملكة اللاتينية ومنها الخيانة ، والتعاون مع العدو المشترك لدرجة تسليم صليبيين غربيين إليه . والسبب الثالث الذى يقدمه رالف هو أن فلسطين أصبحت ملجأ لمجرمى الغرب والهاربين من العدالة . ولم يمدح رالف أحداً فى المملكة اللاتينية فى الشرق سوى النظم العسكرية ، أما البقية فتستحق ما وقع بها من مصائب فى فلسطين ، أما بالنسبة للمسلمين فقد تحدث رالف فى صالحهم وضد شرعية الحروب الصليبية فهو يقول "ربما كان أمن المسلمين وسلامتهم من إرادة الله وذلك لأن الأرض جميعها ملك لله يعطيها لمن يشاء ويأخذها ممن يشاء"(١٧) .

ولايعنى هذا أن رالف لا يود هزيمة المسلمين ودخولهم فى المسيحية ، ولكنه ساخط على السلوك الصليبى واستخدام الحرب كوسيلة لقهر المسلمين . وينصح رالف بضرورة غزو المسلمين بالكلمة حتى يدخلوا المسيحية عن طواعية "لأن من يسعى لنشر الدين بالقوة والضعف فهو يذهب بعيداً عن الدين ، بالإضافة إلى أن الله لايريد موت الآثم والمسلمون بشر مثلنا ومن المعقول أن نرد هجومهم ولكن يجب أن نكون معتدلين فى ذلك" (١٨) . وينقد رالف أيضا زعماء الحركة الصليبية ، ويسميهم الأنبياء الكذبة ، ويتهمهم وعلى رأسهم القديس برنارد بأنهم سبب الدمار الذى نتج عن الحملة الثانية والخطر الذى تعرضت له الأرواح . ويعتبر الحملة

الصليبية الثانية حملة لم يباركها الله كما لم يبارك حملة أحاب الذى سار حسب نصيحة الأنبياء الكذبة . ويوجه نقده أيضا إلى رجال الدين ، فيقول إن رجال الدين لا يحق لهم الذهاب مع الحملة لأنهم لا فائدة منهم فى الحرب بالإضافة إلى العبء الذى يمثلونه على الجيش المقاتل، فهم لا يفعلون شيئاً ، ويلتهمون من الطعام مايجب أن يكون من نصيب الجنود المقاتلين . ويواصل رالف نقده للنظام الصليبى فينصح أن تبقى النساء فى بلادهن ولا ترحلن إلا بعد أن تظهر نتائج الحملات ، وهن بلا شك عنصر ضرورى لتعمير البلاد المفتوحة . كما أن الفقراء يجب ألا يذهبوا لأنهم أيضا عبء ولايستطيعون تسليح أنفسهم أو إمداد أنفسهم بالمؤن الكافية . أما عن قدامى الفرسان فذهابهم أيضاً ليس ضروريا فهم وإن كانوا يعطون للحملة الهيبة والشرف إلا أنهم بدون منفعة ويجب عليهم البقاء ، فالشباب من الفرسان أكثر نفعا ، وأكبر قدرة على القتال .

وواضح من هذا النقد الصريح للحملات الصليبية أن رالف لا يوافق أساسا على سياسة الصليبيين العسكرية ، ولكنه يعلم أن رفضه لا تأثير له على زعماء الحركة ، فيكتفى بتقديم النصيحة ، ويطلب إجراء تغييرات جذرية فى سياسة النظام الصليبى . فالحرب فى نظره للفرسان الشباب ولا مانع أن يذهب إلى الشرق عدد قليل جداً من رجال الدين لإدارة الأمور الدينية للجيش ، وهو يتعجب ساخراً لماذا يذهب كل هذا العدد من رجال الدين : "لرعاية واحدة من النعاج فى الخارج بينما يوجد فى داخل البلاد تسعة وتسعون نعجة"(١) . وهكذا عبر رالف بالنيابة عن عصره عن عمق الهاوية التى سقط فيها الصليبيون . وقد تحدث رالف ضد عالمه كله ، فى نفس الوقت الذى كانت تستعد وتجتمع فيه قوى الحملة الصليبية الثالثة . ويعلق الأب ادوارد سنان على تحليل رالف النقدى للحركة الصليبية ، فيقول "إنه لأول مرة – حسب علمنا – يعطينا مسيحى لاتينى رأياً معقولاً عن لماذا كانت عبارة "الله يريدها" فى عام ١٠٩٥ مثاراً للتساؤلات ، وربما يجب علينا إعادة صياغة هذه العبارة لتصبح "الله لايريدها" "Deus non vult"(١٩)" .

أ. د. محمد خليفة حسن

مصادر التعقيب :

(١) انظر مثلا : E.A. Synan, The Popes and the Jews in the Middle Ages, the Macmillan Co., N.Y. 1967 .

J. Parkes, The Conflict of the Church and the Synagogue, A Study in the Origins of Antisemitism, Atheneum, New York, 1969.

S. Katz, "Pope Gregory the Great and the Jews" , the Jewish Quarterly Review. Vol. 24, pp. 113 - 136 .

S. Grayzel, The Church and the Jews in the 13th Century, Herman Press, New York, 1966.

H. Liebeschutz, "The Crusading Movement in the bearing on the Christian Attitudes towards Jewry", Journal of Jewish Studies, Vol. X, pp. 97-111.

W. Porges, "Les Relation Hebraiques des Persecution des Juifs pendant la Premier Croisade" REJ, Vol. XXV, pp. 181 - 201, Vol. XXVI, pp. 183 - 197 .

J. Katz, Exclusiveness and Tolerance, Oxford Univ. Press, London, 1961.

C. Moehlman, The Christian - Jewish Tragedy, A Study in Religious Preiudice, Rochester, New York, 1933 .

(٢) انظر مثلا : S. Baron, A Social and Religious History of the Jews, Columbia Univ. Press, New York, 1952 - 1969 .

F. Baer, History of the Jews in Christian Spain, Philadelphia, 1960.

J. Aronius, Regesten zur Geschichte der Juden in frankischen und deutschen Reiche bis Zum Jahre 1272, Hildesheim, G. Olms, 1970 .

G. Kisch, The Jews in Medieval Germany, Chicago Univ. Press 1949.

H. H. Greatz, Geschichte der Juden, eleven vols. English translation Five vols. Philas.

J. Parkes, The Jew in the Medieval Community, Longon, 1938.

(٣) انظر مثلا : Leon Poliakov, The History of Antisemitism, from time of Christ to the Court Jews, tran.

from the French by R. Howard, Schocken Books, N.Y. 1974.

Alan Davies, Anti-Semitism and the Christian Mind, 1969 .

(٤) انظر مثلا : J. Parkes, The Conflict of the Church and the Synagogue, A Study in the Origins of Antisemitism, Atheneum 1969 .

(٥) L. Poliakov, The History of Antisemitism, p. 42 .

(٦) Migne's Potrologie (Latin) vol. 156 .

نقلا عن Poliakov, p. 42 .

(٧) Bouquet, Recueil des historiens des Gaules et de la France vol. 12,p. 411 .

Poliakov p. 48 .

(٨) Bouquet, Vol. 14 p. 462, Poliakov. p. 48 .

(٩) Poliakov, p. 48.

(١٠) Poliakov, p. 49.

(١١) Edward Synan, "Theological Discussion of the Crusades by Twelfth Century Christians", a paper delivered at the 1974 Meeting of the American Academy of Religion, Washington, p. 1 .

(١٢) انظر مثلا : P. A. Throop, Criticism of the Crusades a Study of Public Opinion and Crusade Propaganda, Amsterdam 1940 .

(١٣) Synan, p. 9.

(١٤) Synan p. 10 .

(١٥) Synan p. 10.

(١٦) G. B.Fahiff, "Deus Non Vult : A Critic of the Third Crusade" , Medieval Studies Vol. 9 1947 p. 162 .

(١٧) Flahiff p. 162 .

(١٨) Flahiff p. 162 .

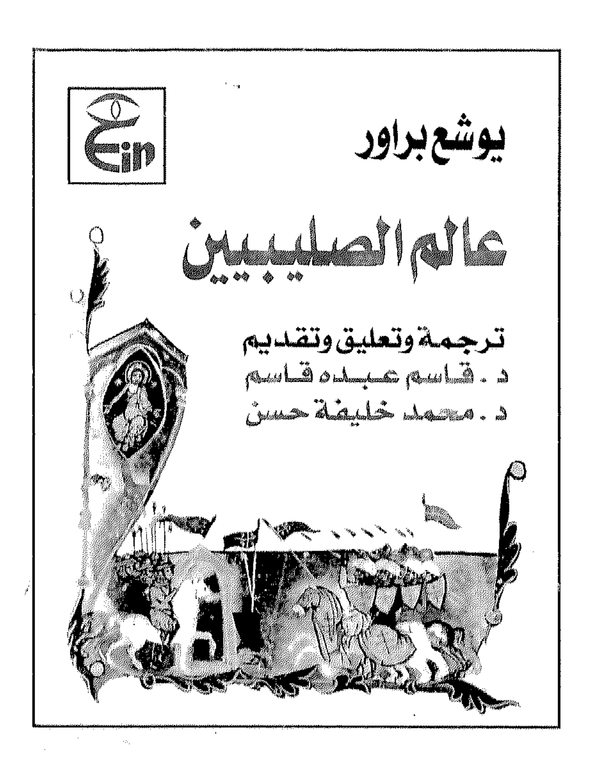
(١٩) Flahiff p. 199 .

الفهـــرس

رقم الإيداع ٩٩/٤٢٤٢

الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 322 - 004 - 4

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ - ٣٥٥٠٦٩٤
٥٣ شارع نوبار - باب اللوق





للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES